قارسيلا

رواية

عماد البليك

***

إلى سلوم،
فهي من ألهمتني هذه الرواية،
وإلى أطفال ينتظرون الأمل
وسط عذابات النار

***

بداية:

قبل أن تقف حافلة المواصلات العامة على الطريق الترابي، على بعد خطوات من الشارع المسفلت، أحس الرجل المسن بوخز قوي يضرب في قلبه، لكنه لم يتكلّم.

قاوم الألم وأسرع للصعود في المركبة مع الأم وطفلتها، دون تحديد الوجهة بعد.

كانت ثمة ريح تلفح بالهواء البارد نوعاً ما، ورذاذ مطر يهطل في أطراف أمدرمان، وبدا سائق الحافلة طرباً وهو يغني:

"القمر بيضوى وأنا شن بلانى بي النجوم"

كان في الواقع يردد صوت المُغني في كاسيت العربة.

معه اشتدت ضربات القلب مسرعة، قوية.

كانت الحياة مثل حلم يصعب الإمساك بنهايته أو بدايته..

وشهق العجوز، سقط على أرض الحافلة حيث كان واقفاً؛ لم يتبرع أحد من الركاب ليقف له كنوع من الرحمة بكبار السن.

في تلك القاعة، ليس بعيداً، في وسط الخرطوم، كان هناك جسد رجلٌ مسن آخر، مُسجى على الكرسي في الصف الأخير..

عيناه شبه مفتوحتين..

يبدو مبتسماً يكلم قرينه في العالم الثاني.

أولاً:
جنجويد[1].. وقرينٌ يقاوم الرصاص

١

ذات ظهيرة، من يوم الأحد أول الأسبوع، حدثت أشياء غير متوقعة، هذا إذا كان ممكناً تعريف التوقع. لكن هذا ليس مهما الآن.

انتهت (حليمة عبد الله) ابنة الثانية والثلاثين من ترتيب دولاب الملابس الخشبي في البيت، وضعت ثياب ابنتها رحاب في الدرج الأسفل، وعلقت فستانها الذي لم تلبسه أبداً على المشجب في الجزء الأيمن، فقد تأخر كثيراً اليوم الذي تفرح فيه مجدداً وربما لا ترغب في ذلك مرة أخرى.

الدولاب مكون من ضلفتين، صنعته قبل سنتين عند النجار (حامد زُرقة)[2]، ذلك الرجل الذي لا يمكنك تقدير كم يكون عمره بالضبط، قصير القامة، بلحية صغيرة مشذبة عادة، بعكس بقية رجال الحي شبه العشوائي، الذي لا يعيش سكانه استقراراً مع التحذيرات المستمرة من قبل السلطات بأن البلدوزرات قادمة ذات صباح لإنهاء هذه المهزلة كما اسماها مسؤول اللجنة الشعبية، رجل الحكومة، الذي لن يردد غير الصدى، لا أحد يجهل ذلك.

---

١ - يقصد بها "جن يركب جواداً ويحمل مدفع جيم ٣ "، وهي مليشيات مسلحة في دارفور.

٢- زرقة تشير إلى اللون الأسود في السودان، وأحياناً لها رمزية عنصرية.

المهزلة هي البيوت المبنية بالطين (الجالوص) والمسقوفة بالزنك، ذات النوافذ الحديدية المطلية باللون الأزرق أو البيج في الغالب، لأنه لا خيارات أخرى في مغلق باشري القادم من مدينة دنقلا في أقصى الشمال، الذي تربّح كثيراً من قيام مئات المنازل في أقل من سنة ببيع مواد البناء الرخيصة المقلدة أو رديئة الصنع، من أسمنت وزنك وصاج ومسامير صينية وبوهيات محلية.

لكل شيء هنا ذكرى وتفاصيل محددة في تلافيف الماضي، حتى لو أن أغراض البيت تظل قليلة، هناك غرفتان، واحدة صغيرة هي المطبخ والمخزن، تقضي فيها حليمة أغلب النهار وهي تعدُّ الملاح للغداء، أو تحيك بعض الثياب لنساء الحي اللائي لا يدفعن إلا بعد مرور عدة شهور، وقد لا يوفين بذلك، فالعثور على المال هنا مهمة مستحيلة، وإذا وجد فالمنصرفات كثيرة، أولها توفير الأكل؛ وجبة واحدة على الأكثر في اليوم، ومن ثم الماء، الذي ارتفع سعره مع الغلاء الذي لم يترك سلعة إلا ومسها.

يأتي السقا بعد أذان الظهر مرتين في الأسبوع يفرغ البراميل للنساء في الجركانات البلاستيكية، لا يتنازل عن الثمن المحدد، ولا يمكن لأي امرأة أن تعود إلى بيتها لتعبئ الأزيار إلا إذا دفعت أولاً. فحسين السقا لا يجامل، وهذا لا يعني أنه ليس طيباً أو عديم الضمير، بل لأن هذا مصدر رزقه، وإذا فتح باب تقديم الماء مقابل الدين، فكيف سيسدد لملاك الصهريج على بعد خمس كيلومترات، فاتورتهم الأسبوعية. وهم (أولاد قدورة) كما يُلقبون، أناس طيبون ككل البشر هنا، إلا أن تمس رزقهم، فيصبحون شياطين وأشراراً.

٢

تاريخ حي قارسيلا يعود إلى بضع سنين، ربما خمس ليست أكثر، منذ أن جاء شيخ مسن نازح من جحيم الحرب في الإقليم الغربي، وأقام أول بيت من الطين هنا عبارة عن غرفة صغيرة تشبه تلك الأكواخ الدائرية التي تعوّد على بنائها قبل سنوات متأخرة، فقد عمل في آخر عمره في مهنة البناء قبل أن يشتغل في العديد من المهن الأخرى وفقا لتقلبات الزمن، مع أن حرفته

المتوارثة هي الزراعة، التي لم تعد تؤكل عيشاً منذ أن ضرب التصحر شمال دارفور واتجه غرباً وجنوباً، دون سابق إنذار.

كانت الطبيعة ومنذ أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن الماضي، تفقد خصائصها القديمة، الأشجار والحشائش تصبح نادرة بعد شحّ الأمطار، والمراعي الخضراء التي كانت تكسو الأرض بمدّ البصر تقلصت وحلّ محلها الجفاف الضارب، وتوقفت الزراعة ليتشرد المزارعون إما بالهجرة إلى المدن الكبرى بحثاً عن رزق جديد أو بالسفر إلى الخرطوم، وبعضهم قرر الهجرة إلى تشاد المجاورة فثمة أولاد عمومة هناك، تحديدا إلى العاصمة أنجمينا التي بدأت تزدهر فيها صناعة تشييد المباني متوسطة الحال في السنين الأخيرة، وهناك من عبر نهر شاري وصولاً إلى الكاميرون للعمل في تجارة الكاكاو؛ حدث ذلك منذ أن وصل أحد الشباب عائداً من هناك ليقصَّ قصته التي تناقلها سكان قارسيلا، الأصل، في غرب دارفور، فقد تحوّل إلى واحد من وجهاء القوم بعد أن خرج قبل عدة أعوام وحالته يرثى لها، ولم يكن من أحد يظن أن معجزة سوف تحدث.

لكن قصة قارسيلا كما يعلم (الحاج سعد)، لا تتعلق بالطبيعة، ولا الزراعة أو ندرة الأمطار فحسب، فبعض من الخير لا يزال باقياً، إنها القوانين البشرية تتحكم في تغيير مسارات الوجود، وتحكم على البعض بأن ينصاع لغير ما ألفه.

ما حدث أنه ومنذ نهاية الثمانينات بدأت الحكومة في تمليك الأراضي لقبائل من العرب البدو، لم تكن مستقرة من قبل في الإقليم، جاؤوا بهم وقدموا لهم الحيازات، في حين كان الأهالي غير قادرين على المقاومة أو قول شيء..

فمن سيقاوم الدولة؟

من يتحدى قانون الخرطوم؟!

ارتضى الكثيرون بذلك، أقنعوا أنفسهم بأن التصحر سريع التوسع، سوف يأكل الأراضي عما قريب، ولهذا فإن قرار الرب عادل وقد شاء لهم أن يبحثوا عن البديل قبل أن تأتي الطامة الكبرى، لاسيما أن المجاعة التي

ضربت الإقليم والمناطق المجاورة من شمال كردفان لم تكن آثارها قد انمحت بعد، ما زال بقية من مصوّري الصحافة الأجنبية يأتون من حين لأخرى، يحلمون بالتقاط صورة لطفل يتضوّر جوعاً وثمة طائر، أو نسر جارح جائع في انتظار موته ليأكله فريسه سهلة، على شاكلة تلك الصورة الشهيرة التي فضحت أمر المجاعة عالمياً في أواخر عهد النميري والتي التقطها مصور عن طريق الصدفة واشتهر بها.

نعم تغيرت النواميس وجد الحاج أو السلطان سعد، نفسه بين ليلة وضحاها يتضور جوعاً هو الآخر، هائماً في الأرض التي كان أجداده وآباؤه أسياد لها، ما الذي يجري بالضبط؟

يصعب عليه اختصار الزمن والتحولات، وتبقى الحياة في ذهنه ليست إلا ذكريات عابرة، وهو يحاول أن يختصر ما تبقى من العمر في النسيان والتلهي بالوقائع العجولة، إلا أن يحدث أمر مدهش ما، وهذا مستحيل في ظل الواقع الذي يتعقد يوماً بعد يوم.

تبدو له قارسيلا القديمة مثل أطياف يصعب الإمساك بها في الذاكرة، ويستعين على الماضي بهذه القرية الصغيرة التي صنعها على أطراف مدينة أمدرمان الغربية، آملاً أن يتمكن ذات يوم من تدميرها كما بناها من العدم، ليعود إلى الديار، إلى التراب، وحيث يغيب المحَل إلى الأبد، وتستأنف الأمطار الغزيرة، ويذهب الجنجويد إلى الجحيم، هؤلاء الغرباء الذين لا يشبهون تاريخ الإقليم، لم يكن من أحد يتصوّر ذات يوم ما حدث، كأنها ليالٍ من الكوابيس المطرزة في عالم آخر ليس له من حقيقة، وإن كان صعب أن نتخيل غير ما وقع حقاً أمام الأعين.

٣

خُيّل لحليمة أنها تسمع صوت ابنتها رحاب وقد عادت من المدرسة المجاورة للبيت، ليس أكثر من ثلاثمائة متر تقطعها البنت بنفسها كل صباح

وترجع في الواحدة ظهراً. غير أن الوقت لا يزال مبكراً على نهاية الدروس، فما الذي جاء برحاب الآن؟

هل نفّذ المسؤول الحكومي الذي حضر قبل عدة أيام وعده بأن يشرع في هدم الحي؟ وأن يبدأ من المدرسة حتى يشعر السكان بأن عليهم التفكير بجدية في البحث عن مكان جديد يلتجئون إليه؟

فالأهالي هنا أول ما يُفكّرون في تعويض سنوات مضت فقد فيها أولادهم حظ التعليم لأسباب النزوح والحرب، من كان مشغول بالمدارس من قبل والنار من حوله؟!

الآن يمكن لهم أن يتنفسوا قليلاً، لولا أنهم لن يتركوهم وحالهم، والحاج سعد يعلم ذلك، يدرك أن المصائب ربما لن تنتهي بسهولة. لديه الخبرة الكافية ليدرك أن المسؤولين عندما يعدون بالأسوأ فإنهم حتى لو تأخروا فسوف يأتون ومعهم الجحيم، وحيث لا قلوب لهم ولا رحمة، خاصة عندما يتعلق الأمر بأناس مغضوب عليهم سلفاً من قبل الحكومة وليس من الله طبعاً.

٤

يوم جاء ذلك الرجل طويل القامة بملابس المسؤولين المميزة، البدلات الرمادية ذات الأكمام القصيرة، ووجوههم باللحى القصيرة المنتظمة والمصبوغة، وعلامة الصلاة، الغرة السوداء، التي يمكن افتعالها بعض الأحيان بالدعك على موضع الجبين بالحجارة. كان قد ترك في الحي هرجلة شديدة.

نزل من عند السيارة ماركة "لاند كروزر" حديثة التصنيع، من موديل السنة، كأنه يهوي من طائرة بالباراشوت، ربما أن خلفيته العسكرية حتى لو أنها عشوائية ومرتبكة، جعلته كثير القفز، يظن أن كل مكان مغطى بالألغام الأرضية. خاصة أنه قضى سنوات طويلة من عمره مطلع تسعينات القرن

الماضي، مع أخوانه في الله، بغابات جنوب السودان يقاتلون المتمردين الجنوبيين الذين أصبحت لهم دولة الآن.

كان يسمي نفسه مجاهداً، وينتمي لفرقة "الدبّابين"، المكلفة بعمليات أشبه بالانتحارية حيث يقومون باستطلاع المواقع المعقدة والحذرة قبل وصول كبار الضباط، ولهذا فإنه عادة ما يموت العشرات منهم قبل أن يصل بقية الجنود ومن خلفهم الجنرالات.

وقتها تمنى لو أنه مات شهيداً، إذن لكان في الجنة مع الحور العين والغلمان المخلدين. لكن إرادة الله لم تشاء له أن يسافر إلى جنة الفردوس.

ظلّ يبسمل ويحمل مسبحته ويؤدي الصلوات الخمس في المسجد ويؤمن بأن خير الدنيا من خير الآخرة، لهذا يُوقِّع ويقبض شيكات مالية يومية بعدد التسبيحات التي فرغ منها، وحيث يصعب فهم طبيعته وكيف يعمل مركبه النفسي، يبدو إنساناً عسيرا على التفكيك، مثل لغز كوني!

٥

الحاج قارسيلا وهو لقب الحاج سعد، من قِبل سكان الحي، يفهم أمثال هؤلاء البشر، يحفظ طباعهم جيداً، يدري تماما "أن الدِين عندهم غلافٌ شكلي لا غير، لأن قلوبهم عفنة لا يتورعون من فعل أي شيء، في الماضي كان منهم أناس صادقون، غير أن الصدق لا يعطيك المبرر لكي تفعل ما تشاء، لأن الصادق الجاهل والضار يظل شريراً".

بخبرة اكتسبها قارسيلا في الحياة وتجارب السنين العجاف، لاسيما العقود الأخيرة، كان قد أخبر الأهالي بعدم اعتراض المسؤول وتقبل كلامه على أنه وحي مُنزّل، عليهم أن يقولوا له، "حاضر، ليس من مشكلة، أبداً.. نعم، سيدنا أنت من يقرر وأنتم أدرى بالمصلحة".

رغم كل هذه الاعتذارات فقد لا ينفع ذلك، "لأن عديم الأصل سيظل هكذا إلى الأبد، عاراً على نفسه قبل الآخرين ولا يمكن التكهن بنواياه عديمة اللون".

٦

تأكدت حليمة أن رحاب التي تدنو من عامها الخامس، ابنة الفصل الأول التمهيدي، التي بدأت في هجاء الحروف بشكل جيّد، قد وقفت أمامها فعلياً، وهي تناديها:

"يمه.. يمه"..

كانت خائفة لم تجد من مكان أكثر أماناً تهرب إليه سوى حضن والدتها، التي أخذتها بقوة إليها وهي تسألها:

"ما الذي حدث، هل هدموا المدرسة؟"

لم يكن السؤال مستغرباً، فرحاب كما كل التلاميذ يعلمون بأن البلدوزر سوف يأتي ذات يوم قريب كما أخبر الحاج قارسيلا الجميع بلهجة واضحة تؤكد أن الأسوأ قادم، هدم المدرسة وبعدها سوف يهدمون الغرفة الصغيرة التي يأتي فيها طبيب منتدب من منظمة أجنبية مرتين في الأسبوع لمعاينة مرضى الحي وتقديم أدوية مجانية من العربة التي رُسِم عليها هلال أحمر.

يقوم الطبيب بعمل روتيني كقياس الضغط أو فحص البول والدم وفي الغالب فإنه لا يمنع الأمراض المستفحلة ولا يؤخر العمر، لأن السرطانات باتت منتشرة وأمراض الكلى والبنكرياس وضربات القلب المفاجئة.

رغم ذلك فإن غياب غرفة الطبيب سوف يحرم الجميع من الأدوية المجانية، لأن الشراء من صيدليات المدينة مُكلف جداً، فسعر أقراص صغيرة كالأسبرين أو الكافينول التي تعد أدوية عادية ورخيصة، يمكن أن يصنع طعام ثلاثة أيام.

غير أن الحاج قارسيلا، يرى مع نفسه أن الطبيب يمكن الاستغناء عنه، "فالطب ليس إلا اختراعاً لتضليل الناس، إنه جزء من ترهات الدولة لشغل المواطنين عن العلاج الصحيح الذي يشفي البدن.. الحكومات تريد لشعوبها

أن تموت بأي شكل كان لهذا استبدلت الطب الشعبي، التقليدي، بالمستشفيات الحديثة".

في زمان يصعب تحديده، كان سوق زالنجي عامراً، وحيث يذهب سعد مع والدته هناك، التي تمتعت بسمعة في المكان كامرأة كان جدها من الزعماء، فإن الباعة يبذلون ما بوسعهم لنيل الرضا منهما، يقدمون لهما الهدايا، والمستفيد الأول كان سعد الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره.

تعيش في ذهن قارسيلا صورة لشيخ متقدم السن في مثل عمره الآن، يجلس في زاوية من زوايا السوق وسط الباعة، الذين يقدمون لك كل شيء حتى ما لا يخطر ببالك..

الرجل اسمه (محمد أحمد)..

الذاكرة لا تخطئ مرات.

٧

نعم. قارسيلا يمكن له أن ينسى أشياء وهناك ما لا يُنسى قطعاً، كمحمد أحمد وهو يجلس بهدوء يشيء وجهه بوقار غريب ليس له من تفسير واضح، تشعر أمامه برهبة كأنك أمام ملاك حقيقي أو شيطان، فالخوف له ردة فعل واحدة سواء أمام العظماء أم التافهين.

كانوا ينادونه بالطبيب، وزبائنه من عليه القوم، لأن أسعار ما يبيعه غالٍ، وكان يبذل ما يكسبه، بحسب ما يتردد، على الفقراء واليتامى.

يحيط محمد أحمد نفسه بالتمائم والأعشاب وأعضاء لحيوانات ميتة، وأظافر بعض الوحوش المفترسة، رتّب كل ذلك بشكل أنيق، يساوم الزبائن ولا يتكلم كثيراً، يضع المبلغ في أناء من النحاس بجواره ثم يلتفت للزبون الثاني فالثالث، الذين يقفون صفوفاً.

كانوا يسمونه المُعالج ويتبركون به.

"لو جاء هنا إلى قارسيلا الجديدة، فسوف تشفى كل الأمراض، ليذهب الطبيب المناوب وعيادته إلى جحيم الحكومة"

يكلّم الحاج سعد نفسه، وهو يسمع من حوله، بعض من رجالات الحي الجالسين في الظل ينتظرون أعمالاً يُكلّفون بها من الراغبين في عمال لبيوتهم، كأنْ يقوموا بصبغ غرفة أو بناء أخرى أو حفر بئر صغيرة تستخدم كمرحاض، عمقها ليس أكثر من مترين، أو صنع كوانين (مواقد) للطهي بالخشب والفحم.

يكلّمهم، أن محمد أحمد كان يشفي الحسد وجراحات الحزانى ويصنع الحب بين البشر، صحيح أن زبائنه من الكبار، غير أنه سراً لا يبخل على المحتاجين من الفقراء، خاصة إذا تعلق العلاج بأمر إنساني حساس مثل الشفاء من العين.

"فداء العين مصيبة كبيرة انتشرت بين الناس ولم ينجو منه أحد سوى قلة جربوا أدوية خاصة من تلك الأعشاب المخلوطة مرات بترياق قليل من سم الثعابين"

مع مرور السنين، اختفى الحاج محمد أحمد ونسجت حوله القصص، قيل إنه هاجر إلى جنوب السودان لكي يعمل مع أحد قادة التمرد الذي كان يحتاج لفكي أو شيخ يصنع له تمائم تقي الجنود من الرصاص الوابل والراجمات الإيرانية التي باتت تجهز في مصنع حديث أقيم بوسط الخرطوم وسط المنشآت السكنية والتي قامت إسرائيل بضربه لاحقاً بصاروخ عابر للقارات، أرسل من عمق البحر الأحمر.

٨

عرف الفكي محمد أحمد بقدرته على صنع مثل هذه التمائم الواقية وقد باع في الماضي واحدة لأحد الضباط الإنجليز وأثبت فاعليتها أمامه.

وقف المفتش ماركوني، في وسط سوق زالنجي وجرّب شرتاي (حاكم) من قبيلة المساليت البندقية، جرّ الباب وعبأها بالرصاص أفرغه من العلبة،

وأطلق الرصاصة الأولى، ضربت بقوة على صدر ماركوني وسقطت على الأرض، والخواجة يضحك كأنه في سيرك، ثم الثانية فالثالثة، حمل الحجاب (التميمة)، علّقها بالشكل المعتاد أعلى ساعده الأيسر، وانطلق في سيارته اللاندروفر، في غاية الابتهاج.

فيما بعد قيل إن الرئيس النميري جاء إلى هناك وطلب تميمة، لكن الحظ عانده، جربوا الرصاصة الأولى فالثانية، كان الرئيس شجاعاً، في الرصاصة الثالثة سقط شيء على الأرض وسط الجموع التي تجمهرت لحضور هذا الحدث العظيم وسط سوق زالنجي.

مع سقوط الرصاصة التي التحمت بشجرة سنط لتستقر في جذعها، تدفق الدم الأحمر على الأرض من مكان قريب من أسفل بطن القائد.

أسرع مرافقو الرئيس للإحاطة بالشيخ محمد أحمد وقبله بالشرتاي الذي كان قد استخدم البندقية، رموا بهما في سيارة مرافقة لوفد النميري وحملوهما إلى جهة مجهولة، في حين أقلت طائرة مروحية النميري إلى باريس للعلاج.

سرت شائعات أن المشكلة ليست في التميمة إنما كانت ثمة مؤامرة تحاك لقتل النميري في دارفور، وبعدها لم يزر الرئيس الإقليم إلى أن دخلت مجاعة سنة ١٩٨٣م التي قتلت آلاف البشر، وشاع كذلك بين الناس أن مكتب الرئاسة قام بإغلاق ملف أي توريدات للحبوب إلى دارفور، أو حمل القمح إلى هناك أو السماح بزراعة الدخن ولو في أماكن محدودة يتوفر بها الري الصناعي.

انتهى الوضع بأن ترادف مع تلك القرارات، أن عمّ الجفاف الشديد وحلت الكارثة وزحف النازحون من شمال الإقليم والأقاليم المجاورة لحدود الخرطوم الجنوبية وأمدرمان ليقيموا مدناً كبيرة للنازحين تفتقد لمقومات الحياة، ولم يكن من بُدٍ سوى ذلك.

٩

يتحسس الحاج قارسيلا تميمته التي لبسها منذ صغره، دون أن يتعرف على التاريخ بالضبط، لقد كانت سبباً مباشراً في نجاته من رصاص الجنجويد

يوم هاجموا القرية وقتلوا السكان واغتصبوا النساء وزرعوا الويلات وأحرقوا الأطفال بجنون كأنهم شياطين مسلطة وليسوا بشراً من خلق الله.

فعلت التميمة دورها ومنعت الرصاص، كلما قام الجنجويدي بتصويب الرصاص من الرشاش تساقط الرصاص كأنه البلالي الملونة التي يلعب بها الأطفال، إذ كان يسقط على هيئة كرات صغيرة؛ غير أن أمراً غريباً حدث، ليس لقارسيلا أن يُقصّه لأحد سواه لأنه سرّ يختص به وبقبيلته؛ أن الرصاص الكثيف أخرج قرينه منه.

سار القرين كجسد آخر بنفس شكله ومواصفاته وهرب منه إلى جهة مجهولة، وسط ذهول الجنجويد الذي آثروا الفرار من أمام الرجلين المتشابهين، بل اللذان يحملان نسخة واحدة متكررة.

هالهم ما يرون، وهم يصرخون كالمجانين، بظن أن أعينهم زاغت، يحُكّونها ثم يعيدون الكَرّة..

يبصرون رجلاً يجري ذات اليمين والآخر ذات اليسار..

الرصاص لا يقتل أي منهما.

١٠

يشتاق قارسيلا ليرى قرينه، رفيقه الذي طالما عاش داخله أو فيه، كانا صديقين بل نفس واحدة.

يتذكر أن آخر كلمة سمعها منه وهو يودعه قوله:

"سنلتقي ذات يوم حتى لو اختلفنا.. كن شجاعاً. أعرف أنك سوف تصون نفسك وعرضك وأهلك.. لا تخاف الحكومة ولا رجالاتها ولا الجنجويد إنهم باطلون وكذابون ومنافقون، هم أهل الشهوات وأنت ورثة أهل القران والحق، فسير إلى مبتغاك"

كانت كلماته تتردد كصدى يضرب بالسحب أعلاهم، ثم يرتد للأرض.

واختفى قارسيلا الآخر وراء الآفق البعيد.. في حين بقي الأول، أمام رفاقه الآن يستعيد بامتنان صورة والدته التي قالت له ذات صباح، إن الفكي محمد أحمد ليس إلا خبيراً صغيراً في مقابل خبرات أهلهم وأجداده.

كان سعد قد أعجب بالتمائم والأحجبة، وقد قدّم له الفكي واحدة منها كهدية فهو ابن سلاطين، غير أن أُمّه بمجرد أن وصلوا البيت خلعت الحجاب ومزّقته، وأدخلت يدها إلى صندوق قديم في ركن منسي من القطية الكبيرة، أخرجت حجاباً صغير الحجم محكم الصنع علقته في يد ابنها، وهي تكلّمه:

"سوف يحرسكما معا، صانكما الرب يا ولدي!"

يتحسسه ليتأكد أنه موجود، وبهذا فهو ناجٍ من أي أذى إلى أن يأتي أمر الله، ووقتها لا ينفع أي حجاب لأن القدر الإلهي يكون قد حلّ.

يَشتمُّ التميمة الواقية من الرصاص بقوة بكل أنفه، ليرى من وراء الرائحة صوراً مترسبة في دماغه لنمور وأسود وثعابين وأسماك البردة، كلها تجمعت بأجزاء منها سُحقت معاً ليكون منها هذا الحجاب المُغطى بجلد النمر، تلك الصناعة التي لا يخبرها إلا أهلها وورثتها فقط، مع الخبرات الأخرى، مثل ذلك العلاج الساحر الذي كان الفكي قد أهداه كذلك للصبي سعد، وهو عبارة عن ظفر لحيوان لم يتعرفا عليه هو وأمه، يمسكُ به من بعيد ويتلو بعض الكلمات التي حفظها في ذلك الزمن ونساها اليوم، ليجد أن الشخص الذي يقف أمامه قد تجمّد وأصبح غير قادر على الحركة.

١١

هدأت الطفلة في حضن أمها، قبل أن يرتفع صوت مدوي، يشبه تلك الأصوات التي سمعتها حليمة في ذلك اليوم القريب، البعيد، عندما هاجم الجنجويد قريتهم وحوّلوها إلى رماد بمن فيها.

ذكريات مؤلمة تطفو على الذاكرة في هذه اللحظة مع قعقعة السلاح الشديدة، بنادق رشاشة ومدافع صغيرة وسيارات تهتز لها الأرض في الأزقة الضيقة بالحي.

هل وصل الغضب مجدداً إلى هنا؟ وهل ستبدأ فصول مأساة جديدة كالتي حدثت في تلك المرة وحيث يصعب استرجاع الأذى والقسوة والألم؟

كان دماغها يعمل بشكل سريع وغير منتظم، دون أن تصبح قادرة على التمييز.

اختلط عليها الأمس مع اليوم، وهي تُسرع لحمل ابنتها مجهولة الأب التي حملت بها في ذلك الفجر من أحد المغتصبين، عندما تناوب عليها عدد من الرجال الملثمين بالعمائم وهم يفرغون توحشهم واحداً تلو الآخر.

تبدو همهماتهم كأنها تتكرر الآن، وهم يتكلمون لغة عربية ملكونة لا تشبه اللهجة المعهودة هي أشبه بلغة سكان الصحراء البعيدين، الذين كانوا يأتون في أول سنوات الجفاف لمفاوضة شيخ القرية في أن تنهل ماشيتهم من المراعي المحيطة بالقرية، قال الشيخ وقتذاك:

"إنهم قادمون من بلاد النيجر ومالي أو من ليبيا القريبة، فدارفور لا تزال بخير رغم الجفاف الذي عمّ بلاد الصحاري إلى موريتانيا غربا"

١٢

يرتفع الدوي العنيف، تسمع حليمة أصوات مجموعة من الرجال وهم يتصايحون، "الله أكبر"، لتشعر بمزيد من الخوف أن الكارثة قادمة لاشك.

طالما حذر الحاج قارسيلا سكان الحي، بأن العدو يظل عدواً إلى الأبد مهما صالحك، وأن السكون اللحظي الذي عاشوه لمدة عامين في الحي قبل أن تبدأ التهديدات بالهدم والتشريد، يمثل إشارة لمصيبة كبيرة قادمة..

كلامه يؤخذ بمحمل الجد، فهو خبير بشؤون الحياة وكيف أنها تصنع الحرائق من مستصغر الشرر. كان يقول: "لقد ارتضوا بقاؤنا هنا رضوخاً للمنظمات الدولية والدعوات الإنسانية الخارجية، وفي اللحظة المناسبة سوف ينتقمون منا، لهذا علينا أن نقنع أنفسنا دائما بأن هذا المكان مؤقت، وليس لنا من جهة تستحق الحنين، غير ديارنا التي يجب علينا أن نعود إليها ذات يوم قريب، ولئن تموت في بلدك خير من أن تفنى في أرض غربة"

بالنسبة له ليس في الخرطوم ولا مدنها الثلاث المكتظة بالسكان من أمان دائم ولا يشعر بأي عطف أو مودة اتجاهها، فهي كما ينظر لها دائما في خاطره؛ المدينة التي تخترع المؤامرات وتخرج منها خطط الموت والتدمير واغتيال الأبرياء.

حتى عندما وصل إلى هنا وبنى أول غرفة في حي قارسيلا لم يكن يظن أنه سوف يبقى طويلاً، كان قد أراد فقط أن يرتاح لشهور من النزوح الطويل ورحلة لم يكن يدري في واقع الأمر عندما بدأت، أنها سوف تقوده إلى أطراف العاصمة، من ناحية غربي النيل، بعكس رغبته في الاتجاه غرباً إلى حدود تشاد حيث الطريق أكثر أماناً، وحيث ذهب آلاف البشر إلى معسكرات النزوح.

ثانياً:
الدبوبة لا تُسكر

١

بضع أيام مضت وجيش المسلحين، الذي تسميهم الحكومة بالمتمردين ويطلقون على أنفسهم الثوّار، قد قطع مئات الكيلومترات في الصحراء.

على مدّ البصر؛ يمكن رؤية أرتال من السيارات ذات الدفع الرباعي تنهب الرمال، تحت القمر المضيء، بحيث يبدو المنظر من بعيد كما لو أنها لوحة رومانسية لا تُصوّر ما وراءها من أضغاث الحروب وحسراتها المُلّوعة، والإفك الذي تحمله لمصائر البشر.

يبدو القائد وقد اقترب من عقده الخامس ملثّم الوجه، بلحاف أسود، جالساً تحت شجيرة شبه جافة، يعالّج أوجاعه الشخصية، محاولاً تجنب صورة الأصدقاء القدامى الذين غدروه، طالما كان الغدر شيمة السياسيين والمنافقين.

السياسة في حد ذاتها لعبة القذارة والنفاق والتضليل والحروب، هي التجلي الأوضح لهذا الضمير الغائب والمنتهك.

ولكن ماذا سوف يفعل؟ وقد توّرط!

وحيث لا يمكن للإنسان في لحظة مواجهة شجاعة مع الأنا أن يفهم بالضبط ما يفكر فيه، هل هو في الطريق الصحيح أم أنه أسير الخطأ والغياب؟

لكن علي أي حال، لا مجال للتراجع؛ على الرحلة أن تمضي، هكذا هي فلسفة الحياة أن تقرر ومن ثم لا تلتفت للوراء، أن تسير بلا ظنون وتمارس الاغتيال المستمر لأي شائبة تحاول أن تجعلك ذلك الذي يخذل نفسه.

يوم بدأ الرحلة إلى هنا، كان الطريق مختلفاً، ظنّ للوهلة الأولى أنه سيكون مجرد مقاتل في صفوف الثوّار فحسب، لم يحسب أن المسألة سوف تتطوّر ليصبح الرجل الأول.

قد يكون.. أو يعلم أنه ذكي أو يقال عنه ذلك، لكنه يدرك أكثر أن قوانين الحياة الواقعية ومنطقها غير ذلك، بمقدورها أن تقود الإنسان إلى ما ترغب فيه تماما دون أن تسمح له بالوقت الكافي لكي تستشيره، هل أنت مؤمن بذلك أم لا؟

هل ترغب فيه أم لا؟

المهم أن تمضي، وحيث لا متسع للذكريات والرجاءات المتبددة.

٢

كأن الزمن لم يتقدم كثيراً، مضت عدة سنوات سريعة جداً، منذ أن اختار الخروج إلى أن أصبح عليه أن يقرر وحده حتى لو أنه استشار مساعديه.

هل تحوّل إلى ديكتاتور؟

تماماً مثل الذين كان يحاربهم ويُلقي الخطب الحماسية بصوته الأبح ضدهم، كيف أنهم يدمرون الأوطان ويهلكون الأرض والنسل والزرع، ولا يبحثون إلا عن مجدهم الشخصي.

هل يمكن للإنسان أن يتغير؟

أم أن هذه هي حقيقته التي يجب مواجهتها؟

رغم أن الزمن لن يسمح بالتبدلات من جديد، فقد فات الأوان.

"نحن الآن على أعتاب العاصمة سوف نغزوها بجيشنا الجرّار، وسوف نقتلهم شر قتلة، سيجنون ويلات ما فعلوا بأهلنا وبنا لسنين طويلة، عقود"

يخبر مساعده بأنه يريد أن يرتاح، بأن يغفو قليلاً، يضع هاتفه الثريا الذي يعمل مع الأقمار الاصطناعية جانباً، يخبره بأن يرد إن كان من اتصال ضروري، من المنسقين في المكاتب الخارجية، لاسيما في أوروبا وأمريكا، لقد تم الاتفاق بالمؤتمر الأخير في برلين على أن المعركة القادمة لابد أن تكون فاصلة ونهائية.

حدث ذلك في الجلسة السرية التي أُتخذ فيها قرار الحرب، ثلاثة رجال فقط جلسوا في قاعة مغلقة صغيرة، وعاهدوا أنفسهم، وضعوا أياديهم فوق يد القائد الذي لم تكن موجودة أمامهم على الطاولة بل هناك في الميدان يُحدّثهم بالهاتف، حيث أيقن منذ عام بأن الانتصار لن يتحقق إلا بالذهاب إلى هناك وسط الجنود والعمل من أرض النار، من الضروري أن يبقى آخرون في الفنادق والمدن الضاجة، لكن ليس هو من سيبقى.

وراء ذلك كان ضميره يُخبّره بأن ثمة خير قادم، انتصار كبير تأجل لبضع من الزمن، منذ ذلك الهجوم الكبير على مطار الفاشر، كبرى مدن دارفور فجر الجمعة ٢٥ أبريل ٢٠٠٣م، وحيث كان للمعركة أن تهزّ الخرطوم هزاً، وبدأت بعدها الحركات الثورية في كل مكان، الكل أخذ الأمور بمحمل الجد، لم يعد ثمة ما يمكن انتظاره سوى الأمل النهائي، يتشكل في ملامح ذلك الانتصار الكبير، القادم.

٣

في شبه غفوته يرى الخرطوم التي غادرها مغاضباً، رمى لهم باستقالته في الطاولة، في مكتب سكرتير الرئيس، وهو يلعن في سره السنوات التي أفناها في الحرب الأخرى في جنوب البلاد، يعالج الألم بالنسيان، ويلعن سنوات تنقله كوزير إقليمي في شؤون التعليم مرة والصحة مرة ثانية والتعدين وغيرها، جرّب كل الاختصاصات متناسياً تخصصه الأساسي كمهندس ديكور.

قضي ليلة تعسة يرى فيها مدينة الجسور كأنها تعيش قيامتها، كانت هي قيامته وثورته التي بدأت، ولم يكن يفكر بسوى الهروب من المدينة الكريهة..

"أن تصبح جندياً في جيش التحرير أفضل من أن تصبح عبداً لهم هؤلاء اللصوص والمجرمين الذين يتكلمون باسم الله، والرب لم يسمع بهم ولا يحبهم، وهم يتبجحون بلسانه كأنهم أبناؤه دون سائر العالمين"

لم تمض سوي أيام قليلة، كان قد أخذ طريقه إلى جبال النوبة غربي كردفان، سيلتقي برجل مهم هناك سراً، له علاقات وثيقة بجهات داعمة للحروب.

هاتفه بمكالمة مقتضبة، إنه لم يعد يثق بهم – يعني رفاق السلطة - وسوف يأتي إليه سريعاً، وقد كان.

٤

إلى أن وصل لم يكن متأكداً من هوية مُجالسه تماما، من يكون، أي هوية تحدده؟

هل هو مجرم، تاجر؟

أم هو رجل يحب الإنسانية والسلام.. كما يقول؟

قد لا يكون كل ذلك مهماً الآن.

كما لم يعرف هل هو مسلم أم مسيحي أم بلا دين؟

ما هو مهم أن يصل معه لنتيجة بشأن انضمامه للمسلحين، غير أن الطريق كان مختلفاً، الخيار الإلهي كما اسماه الرجل، وهو يكلمه:

"إن الله اختارك نعم، ولكن لتقود جيشاً وليس أن تصبح مجرد جندي"

نظر إليه باستغراب، مصدق وغير مصدق، ولم يقاطعه، فثمة غرور داخلي بدأ يتغلغله عليه أن يشبعه إلى النهاية.

من وراء حجب الغيب تبدو تلك الذكرى، حاضرة لا تفارقه اللحظة التي غيّرت كل نواميس وجوده، ورهاناته في الحياة. وهو يرى نفسه في كلية الفنون الجميلة كمهندس ديكور يترجل ماشياً في شوارع الخرطوم القاحلة، وهي تغتاله يومياً، كعهدها في اغتيال الموهوبين والمبدعين، وتقديمهم قرابين للتماسيح النيلية الكبيرة التي تتجسد في شكل بشر مكرّشين، يرتدون العمائم ويهتفون في المساجد والمنابر والمؤتمرات بقاعة الصداقة المطلة على النيل، التي بناها الصينيون عربوناً لصداقة لها ثمنها حتماً.

لم يكن يظن أنه سوف يصبح لقمة سائغة لهم هؤلاء "الأخوان في الله"، وقد حدث.

٥

أخذوه إلى سراديبهم السرية، بلغتهم جنّدوه، صار من أهل الله وزمرة الأصفياء، أصبح يحاضر في اشتراكية أبو ذر الغفاري، وصلف الحجاج بن يوسف، ومجون هارون الرشيد، يحمل في يده كتاب ولي الدين يكن، الذي يكاد قد نسي عنوانه الآن.. يدعو فيه إلى تشكيل جيل جديد من المسلمين متحرر، لافتته الكبرى الله والمجتمع العادل، العدالة الاجتماعية بلغة أخرى.. تلك التي استلم الإسلاميون السلطة ولم يطبقوها.

استلموها عنوة ذات ليل وعلى حين غفلة وهم يستعينون بالعسكر، وفي النهاية لم يحصد الناس منهم سوى العذابات. لينطبق مثلث المفكر المغربي محمد عابد الجابري، أن كل الحركات الإسلامية ما هي إلا دورة ثلاثية، نبوءة (عقيدة) ثم عصبية (قبلية) فغنيمة، وما أبشع الغنائم التي باتت هي

المرجع الأخيرة لحياتهم، البنوك التي عبأت الخرطوم مثل السرطانات تشظف أموال البشر، الدولار الأمريكي الذي ارتفع سعره للسماء ويزيد بلا نهاية محددة، الاقتصاد الذي تعثر، الحروب الطاحنة، الفتن التي أخذت كل القلوب تقريباً بلا استثناء.

٦

كان الرجل الغريب، يكلّمه وهو يشرب جرعات متعاقبة من قرعة المريسة، ذلك الشراب المحلي المصنوع من الذرة البيضاء المخمرة، عرف أنها من النوع المسمى بـ "الدبوبة"، التي كان ضباط الجيش في الجنوب وهم يقاتلون "أعداء الله"، يطلقون عليها النخب الأول.

كان بينهم، ضباط إسلاميون يعيشون عليها، فهي طعام وشراب.

يكاد يضحك، ثم يتذكر حضرة من يقف أمامه، الرجل الغامض الذي عليه أن يحترم هيبته.

إنه يشرب هذه الدبوبة لكنه لا يسكر، يبدو أن له رأس خاصة جداً لا يمكن تدميرها بأي نوع من الخمور..

لقد جرّب شرابها - هو - كذلك في سنوات الفنون الجميلة.. "كل فنان لابد له أن يسطل ويخرج عن قاعدة العقل ويسكر لكي يكون مبدعاً"، كما تقول قواعد الفن لدى أهله في الخرطوم، طالما سمع ذلك ورردده مع نفسه كثيراً.

يسير بزجاجة يتلوى بها في الشوارع، والأزقة، في زمن لم تكن الشرطة الإسلامية قد ظهرت فيه لكي تقبض عليك وتقول عنك إنك تخالف شرع الله ثم تضربك أربعين سوطاً على ظهرك وسط جموع من البشر وهم يستلذون مرآك المعذب..

"الحمد لله لم يحدث معك ذلك، نجوت لتهرب إلى جحيم آخر"

٧

كان النميري وقد رأى أن الرئيس المصري محمد أنور السادات قد تمّ اغتياله في حفل عسكري مهيب في ٦ أكتوبر ١٩٨١م، برصاص من كان يحتفل بهم، كان قد شعر بالخوف، أن الإسلاميين يجب احتواءهم وإلا تحولوا إلى وحوش سوف تفترسه، لقد استطاع أن يقضي على الشيوعيين الذين جاؤوا به إلى الحكم، رغم أنهم حاولوا أن ينقلبوا عليه ونجحوا في ذلك لثلاثة أيام إلا أنه عاد في اليوم الرابع ليريهم الويلات ويعدّم قياداتهم بطريقة بشعة في عملية عرفت بـ"مجزرة وادي الحمار".

كان القادة يأخذون الرجل يرمون به من مروحية من علو شاهق في صحراء العتامير بشمال البلاد، وهو ساقط على الأرض، دون باراشوت، سوى روحه التي بدأت في الهلع؛ يكون الرصاص الثقيل قد قضى عليه وسقطت جثته إلى حيث مكان لا معلوم، حدث ذلك في ١٩٧١.

رأى النميري مأساة السادات، صديقه، وكان يلاعب الإسلاميين فقرر أخيراً أن يحتويهم وينفذ لهم أول مطالبهم..

"شريعة غراء تسوّد البلاد وتهدي العباد"

كما قالها بنفسه وهو يؤم المصلين في أكبر مساجد الخرطوم ويعلن أنه الإمام الجديد، ولم ينقصه إلا أن يقول أنا المهدي المنتظر قبل نهاية القرن.

أُنشئت على اثر ذلك ما عرف بمحاكم العدالة الناجزة حيث يجلس القضاة في الشارع تحت الأشجار وراء طاولات خشبية ينفذون الأحكام مباشرة على المجرمين، مُعطِّلي سنن الرب، الضرب الموجع للسكارى، رجم الزناة، الرمي من أماكن شاهقة للوطيين والسحاقيات، بعد تعرية أجسادهم.. قطع أيادي السارقين.

مرة جاء وزير واعترف بأنه سارق وتم قطع يده أمام الملأ، لأن الرئيس أراد به أن يكون عنواناً للعدالة الناجزة، ولو لم يفعل ذلك لكان قد قُتِل برصاص النميري وليس من منفذ له، وعاش الرجل بعدها ببيدٍ مقطوعة دون أن يترك السرقة.

كذلك هناك القطع من خلاف لمن يكرر السرقة؛ لتقطع الأرجل مع الأيادي، ومن ثم قطع الرقبة بالسيف للقتلة وكبار المجرمين من التجار في الغالب الذين يسرقون قوت الشعب، وفي أغلب الظروف فإنه لا تاجر حقيقي نفذت فيه الأحكام.

كل هذه الأحكام نفذت.. القائد يتذكرها، يعيشها في ذهنه، وأن أكثر الضحايا كانوا من بني جلدته الذين كانوا يتم تقديمهم كقرابين هم وأبناء الجنوب على أنهم من خُلقت الشريعة لأجلهم، والمسيحي كان يصرخ، لي دين آخر ولكن ليس من منجاة.

٨

سمع صوت الرشقة الأخيرة القوية، من المريسة.

يبدو هذه المرة أن رأس الرجل الغريب قد داخت وهو يأخذ القائد المرتقب من يده، وسط الجبال وهما تحت السحب الداكنة مباشرة..

مع هذه الأطياف التي تختلط في ذهنه، وهو بين اليقظة والغفوة الآن، يرى شريط الرحلة كلها.. إذ كان يُحدّث نفسه بصوت مسموع تحت أفق السماء الملبدة بالغيوم الخريفية، ينظر إلى الأرض الخضراء الممتدة وسط التلال، محتضناً بندقيته ماركة كلاشينكوف التي سوف ترافقه في السنين المقبلة، كرفيق لا يمكن لك أن تتركه أو يتركك وحدك.

لقد عاش مع هذا السلاح الحبيب، في سنوات الجهاد، ضد متمردي الجنوب، والآن هو يتحاور مع رجل له علاقات وطيدة مع هؤلاء الكفرة كما كانوا يسموّنهم. يسمع منه ما سيقرر له، به، مستقبله، دون أن يقدر على أن يقول له لا، أو نعم. فقط عليه أن يترك للقدر أن يرسم دربه ويقرر.

لم يكن يتوقع ذات يوم، أنه سوف يعود ليرافق هذه البندقية وهو يتحسسها ككائن حي، أليف.

٩

بعد سنين وجيزة من ذلك اللقاء أعلى الجبال الخضراء، كان قادة جيش التحرير قد أغلقوا ملف الحرب، وقعّوا اتفاقاً للسلام مع حكومة الشمال في الخرطوم، لينفتح الجرح في مكان آخر.

لم يكن القائد يدرك أن ذلك اللقاء بداية لإغلاق ملف وفتح ملف آخر، ولم يدري بعدها بسنوات عندما انتهت تلك الغزوة للخرطوم بالفشل رغم ما حققته من صيت إعلامي أن كان كل شيء مرتب فعلياً أم حدث في وقته المحدد.

هل بإمكان البشر تغيير التاريخ وصناعته؟

أم أنه التاريخ هو الذي يقود نفسه بنفسه؟

والبشر ما هم إلا أدوات له يحركها كيفما شاء.

ما حدث أن السنوات تسابقت على عجل، كان جيش التحرير الجنوبي قد أنهى الحرب بتوقيع اتفاقية سلام مع الشمال، ذهب القادة بعدها إلى الخرطوم وهناك مضت السنوات سريعة جداً، لتنتهي باستفتاء قسّم البلاد إلى نصفين، كأنه زلزال أو جرح عميق انتهى بتقطيع الجسد المنهوب منذ الأزل.

١٠

حكّ القائد عينيه وراء النظارة السوداء التي أزالها، ليرى عتمة أمامه، قبل أن يُصدّر أوامره بالتحرك ليلاً، وحيث لابد من السير تحت القمر لكسب الظلمة والسكون في النهار، حتى لا تشعر استخبارات الخرطوم بالأمر؛ أن ثمة جيش يتقدم نحو المدينة.

كان المتمردون قد اتجهوا شمالاً ما ضلّل القيادة في العاصمة أن المسلحين يستهدفون مدينة دنقلا في أقصى شمال البلاد، لذا ليس من مشكلة إن هاجموا موقعاً آخر، المهم بالنسبة لهم أن تظل الخرطوم محمية ومحروسة بإذن الله..

"لا يدخلها هؤلاء الأنجاس"

كما كتبوا عنهم في الصحف لاحقاً ووصفوهم بأقذع الأوصاف..

عبيد، مجرمين، سفلة، قتلة، خناقين، مصاصي دماء.

١١

تحركت السيارات بسائقيها المدربين على السير في الرمال الكثيفة.

كان القائد حنيّن يجلس في الكرسي الأمامي من السيارة التي تقع في وسط القافلة تماماً، رأسه لا تزال مشوشة ومحشوة بقصص تلك الأيام الخالية، أين كنّا وأين أصبحنا؟!

يُفكّر في قدره الذي كأنما هو معلق أو مرتبط إلى حد كبير بالحروب والمأساة، أو ربما هي حياته تراجيديا عليه أن يعيشها شاء أم أبى، لوحة فنية عليه أن يرسمها ويُرتّبها على شكل أثاث في منزل فخم من منازل أحياء الخرطوم الراقية، كما فعلها مرة مبكراً أيام التخرج الأولى، وهو يدخل ذلك البناء المكون من ثلاثة طوابق، كأنه بيت في الجنة، في حي فخم لكنه متسخ.

الزبالة مكوّمة في كل مكان وهذه هي القاعدة..

"أن تنظّف بيتك من الداخل وتترك الخارج متسخاً"

في حين أن الحقيقة في قالب الحياة بهذه العاصمة..

"إن الداخل أكثر اتساخاً"

يتذكّر تلك الفكرة التي عبرت بذهنه وهو يجلس داخل صالة الاستقبال، في انتظار مقدم رب البيت، الإله الذي يريد أن يجلس على كراسي وثيرة وراء جدران مزيّنة بألوان أفريقية صارخة. يعلن عن زنوجته في الجدران ويشتم الأفارقة في المنتديات العامة وهو يقول عنهم كسياسي مخضرم إنهم سبب البلاء في البلاد.

"إن الرب قد خلقهم لكي يكونوا وقود النار، وحطبهم له القدرة على الاشتعال طويلاً"

هل كان سكراناً وهو يحدّثه بذلك؟

وهل نسي من يُكلّم أمامه؟

وربما انتبه فجأة ليعتذر له:

"عفوا ابني، أنا لا أعنيك أنا أقصد الذين يفتقدون للمواهب ولا يجيدون سوى إثارة القلاقل والتغوط"

ثم ضحك بهيستيرية مقيتة، جعلت حنيّن يكرّهه، يرغب في الخروج ولكن كيف؟! فالرجل ظل يثرثر.

في الواقع لم يكن سكراناً، كان مسطولاً، فقد اتضح الأمر بعد قليل عندما تقدمت شابة أثيوبية باهية الجمال، تعمل خادمة في البيت، غالباً. قدمت له السيجارة الملفوفة بعناية فائقة، وبات ينفث دخانها في هواء المكيف البارد (الفريون) وهو يسحب نفثاً ويمرر يده على خديّ الخادمة الواقفة بتدلل بجواره، دون اكتراث بأن هناك شخص آخر هنا، إنسان نكرة.

انتهت الجلسة دون أن يقبض الشاب أي مبلغ لبداية العمل.

فهم أن عليه أن يدبر أموره بنفسه، يستدين، يسرق، يُلاط به، المهم أن يبدأ ليرى المسطول العمل، إن أعجبه دفع وإلا، لا.

استدان مبلغاً وبدأ الشغل، رسم له جندياً زنجياً قوي البدن، وسط غابة من الأشجار الملتفة البديعة.

كانت الفكرة من ابتكار السياسي المخضرم، الذي كان يشغل منصباً استخباراتياً كبيراً في الجيش غير معلن، لكنه أخبر حنيّن بذلك، وحذّره ألا ينقل ذلك لأحد.

"وإلا كان مصيرك!.."

قالها بأن أخرج مسدساً كان في محفظة جلدية مندسة وراء بنطاله القصير، الذي لا يكاد يتدلى إلا قليلاً أسفل الركبة، لكنه ليس أقصر من لحيته الطويلة التي تُداني الكرش، وهو يمسحها أو يترك لتلك الخادمة الأثيوبية أن تمشطها له بالخلال الخشبي، وهو مستمر في نفث دخان حشيشته.

مرة قال له جرّبها، ولم يكن من مفر أمامه، فالمسدس جاهز،

سحب حنيّن رشفة هوائية شديدة، كحّ بعدها بشكل متواصل لثلاث أيام غاب عنها من الفيلا، ثم عاد، ليجد أن الرجل قد ترك له وصية عبر الخادمة يخبره فيها بأن العمل لم يعجبه وعليه ألا يعود مرة أخرى.

قالت له الشابة الجميلة وهي تمصّ شفتيها:
"أخبرك بالسر ولكن لا تقل لأحد، إنه يبتزك ولكني لا أظنك شجاعاً في أن تأخذ حقك.
ثم أغلقت الباب وكان عليه أن يغادر.

١٢

يتبجح ذلك الرجل في حكاياته وهو مسطول، بأنه مقاتل قديم، وحيث لا يمكن التفريق بين الواقع والخيال.
حكى لحنيّن، الكثير من القصص، كيف أنه قاتل لربع قرن تقريبا مع رفاقه في الجيش الشعبي الجنوبي من أجل وحدة البلاد، قاتل مع النصف الذي لا ينتمى له عرقاً ولا ديناً، كما كان أصدقاء الحرب الأولى من الجنوبيين يتندرون عليه..
"أنت طينة غريبة بيننا يا عمّار"
كان اسمه الحركّي عمّار..
وكان ضباط جيش الجنوب يقولون له..
"إنه اسم على مسمى، ألم يكن عمار بن ياسر مجاهداً كبيراً، وكانت أسرته من أوائل العوائل التي ضحت من أجل دينكم"
يعلم حنيّن أن بعض أبناء الشمال قد قاتلوا مع أهل الجنوب، لكنه ليس متأكداً من رواية الرجل ومدى دقتها، ولم يهتم بهذا كثيراً، حتى لو أنها تطارده الآن بدون سابق إنذار، في هذه الآلة التي اسمها الدماغ التي لا يعرف الإنسان كيف تشتغل؟!
يحاول أن يتناسى سيرة ذلك الرجل النحس، تلك الأيام، أن يحقق ذاته وينتصر لتلك الأوجاع القديمة، كالتي حقنها به ذلك المعتوه، الذي كان يفتخر بأنه كان ماركسياً كبيراً في صفوف الجيش الشعبي يحارب من أجل وحدة البلاد وقد وجد ضالته أخيراً بعد أن هداه الله ليرى طريق الحق مع الرب الذي لا ينسى عباده الذين يحبهم.

كان يقول بثقة مفرطة أنه محبوب من الله، يسمعه الشاب الواقف أمامه الذي اختلطت الألوان بجزء من وجهه وملابس العمل المتسخة، بالبوهيات، وهو يضرب بالفرشاة على الحائط العريض، طوله يكاد يكون أكثر من عشرة أمتار، والوقت يداهمه أن يكمل الجانب الأول من الجدار، قبل حلول اليوم التالي..

ثم يسمع السيد يعلن أنه معجب جداً بهذا العمل الخرافي..

"الخرااااااااااااااااافي..."

يقولها.. بمطّ شفتيه بطريقة مفتعلة.

يستمر الرجل في هرطقاته، حكاياته التي يُسلّي بها حنيّن وهو مستمر في عمله، يسمعه دون أن يقرر مساحة الحقيقة من الخيال.

عليه أن يسمع القصة فحسب.. "ثمة رواية تُحكى وليس من قواعد للسماع أو القراءة؛ أن تبحث عن موضع الحقائق، فأنت أمام لوحة مسموعة" يخبره بالمزيد.

كانوا أحياناً يلقبونه بـ "آسر"، يقولون عنه إنه كان بالفعل آسراً لكثيرين ممن عرفوه والتقوا به في معتركات الحياة المختلفة، سواء وسط غابات النصف الأعلى من البلد الكبير الذي صار الآن البلد الثاني له، أو في قاعات المؤتمرات في عواصم الدول المجاورة والغربية وغيرها من بلدان الدنيا التي طاف بها وهو يُعرِّف نفسه على أنه "مناضل من أجل صناعة البلد الجديد الذي سوف تزول فيه الفوارق العرقية وينعم الجميع بحرياتهم الخاصة ومساواة بينهم في الحقوق والواجبات، دون تغوّل دين على دين أو طائفة على طائفة أو ملأ على ملة".

قاتل مع أصحابه بكل إخلاص وأشواق كبيرة؛ أن ذلك الحلم بعيد المنال سوف يتحقق، إلى ذات لحظة ما، كان قد اقترب من اليقين بأن البداية قد شارفت على البزوغ. حدث ذلك عندما وقّعوا واحدة من اتفاقيات السلام المتناسلة؛ حيث ما أن تبرم واحدة حتى تنقض فتبرم أخرى غيرها، في حرب

استمرت لخمسين سنة تقريباً، يوم انفجرت كان ما زال جنيناً في رحم الغيب ولم يكن أبوه قد تزوج من والدته بعد.

في النقطة الأخيرة، يحتار حنيّن فالرجل يُكذِّب في تاريخ مولده، فمن الواضح أنه على الأقل في الستين من عمره وهذا يعني أنه وُلِد قبل أن تبدأ الحرب في منتصف الخمسينات من القرن العشرين.

ولكن ماذا يعني ذلك إن كان عمّار يتحرى الكذب في الحياة العامة؟ كما يكذب هنا ليسليه بخلط الواقع بالخيال، وهو ينهي لوحة الجندي الزنجي على الحائط؟

ليس عليه من أثم، لينسى الأمر برمته فقد مضت تلك السنين البعيدة وصارت ذكريات آثمة.

ثالثاً:

الجنة قريبة من هنا

١

في بداية الرحلة كان يريد طريقاً آخر ولم يكن من سبيل؛ فأغلب الدروب في الصحراء كانت محاصرة بجيوش الحكومة والجنجويد والمسلحين وقطاع الطرق.

كان يقطع عشرات الكيلومترات ثم يعود إلى النقطة التي بدأ منها، بظن أنه سوف يصل حدود تشاد ومنها قد يذهب إلى أنجمينا وربما الكاميرون ليعمل تاجرا للكاكاو في هذا العمر المتأخر، ما دام يملك القدرة لذلك.

غير أن القدر صاغ له خطة أخرى، ولم يجد نفسه يتنفس بعد عناء الارتحال الطويل إلا هنا على أطراف العاصمة، ليبدأ القلق مستعراً مع المضايقات الأخيرة من جانب الحكومة والتهديد بهدم الحي على أنه عشوائي، كذلك مع نسيان الصحفيين الأجانب لمأساة أهالي قارسيلا، فطالما كانوا يأتون لزيارتهم وتفقد الأحوال وهم يدونون على أجهزتهم اللوحية بعض المعلومات أو يلتقطون الصور.

توقف هذا المشهد منذ عدة شهور، بسبب مضايقات الحكومة لهم، وأنهم يبحثون عن إثارة الأزمات ليس إلا..

"أشعلوا الفتنة في دارفور ويريدون أن ينقلوها إلى الخرطوم"

يدرك الحاج قارسيلا؛ كيف أن الحكومة تلعب لعبة الموازنات في بعض الأحيان - وليس دائما - عندما تحاول أن تُظهّر من خلال هذا الحي أن التعايش أمر واقعي وحقيقي بين أهل دارفور من ذوي الأصول الأفريقية وغيرهم من البدو الدارفوريين أو عموم أهل السودان، فأكثر من مرة كانوا يستضيفون متحدثين في الإذاعة المحلية يتكلمون بهذه الصيغة، ويرددون الحكاية نفسها..

"الغرب يريد لنا أن نعيش الفتنة إلى الأبد. هناك حروب أكبر وتستحق الانتباه في العالم وبلادنا بحمد الله في غاية النعيم الرباني"

٢

يتخيل قارسيلا أنه لو أكمل تعليمه كعدد من رفاقه لأصبح الأن سياسياً كبيراً وربما كان قائداً لإحدى حركات التمرد في الإقليم، أو ربما قبض عليه وأعدم منذ سنوات كما حدث مع "داؤود يحيى بولاد" الذي قاد أول حركة تمرد في دارفور سنة ١٩٩١ منطلقاً من أراضي جنوب السودان وتمّ القبض عليه ومن ثم قتل رمياً بالرصاص، لم يشفع له أنه كان صديقاً قديماً للحكام وأنه كان عضوا في "الجبهة الإسلامية"، لقد مات دون أي محاكمة ولو صورية.

ثم يمضي الحاج سعد بخياله يتصوّر حياة أخرى له، إلى أن ينتبه أنه ابن اللحظة الحاضرة وعليه أن يُواجّه في هذه البرهة بالتحديد، أصوات الرشاشات والمدافع المحمولة على السيارات التي بدأت تضرب بقوة في مكان قريب من الحي.

يسمع صوتها، دون أن يفهم ما الذي يحصل، هل وصلت الحرب إلى الخرطوم؟

وهل قررت الحكومة استعانة بالمليشيات التابعة لها، سواء كانوا جنجويداً أو غيرهم من الاختراعات أن تواصل فوضاها هنا وتقضي على سكان قارسيلا؟

قد يحدث ذلك، رغم أن الحي فيه خليط من قبائل أخرى من البلاد، لكن ليس من مشكلة يمكن التضحية بالقلة في سبيل الكثرة، فالمصلحة لا تعرف المحبة، تجرد الإنسان من القلب وتزرع فيه الإجرام إلى أقصى مدى ممكن.

تصمت الرشاشات قليلاً أم أن الشيخ المسن يتناساها وينهمك في ذكرياته المشوشة.

٣

يرى من وراء غبار الأزمنة، كيف أن الخبر سرى في قارسيلا القديمة، كانوا يتحدثون عن القبض على الرجل الذي جاء ليقاوم الحكومة ومن يقفون في صفها من بعض زعماء القبائل الموالين، الذين لا يتورعون في سبيل السطوة والمصالح، فالكل يرغب في أن يصبح شرتاي(حاكم) كبيراً، وليس مهما كيف يحدث ذلك، المهم أن ينال الرضا من السلطة وأن يكون له علاقة جيدة بها.

ان تنال رضا الخرطوم يجعلك تحصل على المزيد من الأراضي الزراعية التي انحسرت كثيراً، كما يمنحك الفرصة الأخيرة لتجمع المزيد من الأموال قبل أن تحدث طامة كبرى، لا أحد يعلم حسابات الغد القريب.

قبل أقل من عامين من إعدام بولاد، حدث انقلاب عسكري في الخرطوم، استولى الجيش على السلطة بواسطة العميد حسن عمر أحمد البشير يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، ولم يكن قد مضى أكثر من أربع سنوات على الانتفاضة الشعبية التي أطاحت بحكم الرئيس النميري في يوم السبت السادس من أبريل ١٩٨٥ أثناء رحلة علاجه إلى أمريكا.

"قد يحصل انقلاب جديد وتتغير المعادلة، ولهذا فالذي يقدر على التعايش مع كل الحكومات هو الذي يملك النفوذ ورزم الجنيهات والسلاح طبعا"

تم القبض على بولاد بعد أن فشلت حملته بسبب وشاية، من أحد الأقارب.

"إنهم الأهل الذين يشعلون الفتنة وحيث لا يمكن الركون لهم أبداً، دائما ما يقرصك أقرب الناس إليك وأنت غير منتبه"

كان الأهالي يرددون ذلك، وهم يقصون الرواية بأكثر من صيغة.

في النهاية هناك قانون واحد وواضح جداً هو السلطة والنفوذ والمال، وحيث انتهت حياة المتمرد الدارفوري، المنتمي لقبيلة الفور بأن أعدم على الفور في منطقة قارسيلا.

٤

يكاد الحاج سعد يسمع صوت الرصاصات التي قتلت الرجل الآن. تختلط في أذنه مع وشوشات المدافع والكلاشينكوف الذي يعوي في هذه الظهيرة.

يغيم فجأة الماضي ينزوي في الزمن الحاضر، عندما رأى مجموعة من الجنود يهرولون في طرقات الحي وهم يتسابقون إلى جهة ما، ليست واضحة، ووراءهم سيارات لاندروفر و"بيك آب" محملة بالأسلحة ومزيد من العساكر، لكنهم ليسوا من طرف الدولة، إنهم متمردون يشبهون مقاتلي الزغاوة برؤوسهم المغطاة باللحافات الطويلة ذات الألوان القاتمة، التي لا تكشف غير العينين.

لوهلة دار بخاطره أنها مؤامرة من قبل الحكومة، وأن هؤلاء الناس مجرد مأجورين، بأزياء تشبه ما يلبسه المسلحون من حركة العدل والمساواة، التي يُشكّل الزغاوة عظمها الأساسي، لكي ينسبوا تهمة تدمير الحي والقضاء على أهله للمتمردين، الذين لا يمكن التصور بأي منطق قدرتهم على دخول العاصمة، خاصة أن مواقعهم في شمال دارفور بعيدة جداً عن هنا تفصلها أكثر من ١٥٠٠ كيلومتر على الأقل وسط تضاريس رملية قاسية وصحراء ليس فيها سوى شمس حارقة وتفتقد للماء، والخضرة، مساحات شاسعة القحط، كتلك التي سار فيها من قبل أو في جزء منها حتى أدرك هنا قبل عدة سنوات، رغم أنه مرات يتخيل أن القصة كلها ملفقة وأنه وصل عبر لوري حمله من مكان لآخر في فصل ما قبل الخريف، حيث كانت السماء تستعد لتروي الأرض ببعض الأمطار العابرة التي ليس من شأنها أن تعيد للتراب الجدبة رونقها القديم.

٥

مع تنامي صوت الرصاص، والراجمات القوية التي ضربت في الحي، بدأ الحاج قارسيلا يفكر في قرينه الآخر، هل سيكون مثلاً قد أصبح من المتمردين أم سيكون قد مات؟

لكنه لو حدث أنه مات فربما شعر بذلك أو أصبح هو شخصياً في عداد الموتى؟!

فالقاعدة "أن القرين لا يعيش طويلاً لو أن صاحبه قد رحل عن العالم، لأن الروح التي تتنازع هنا وهناك بين جسدين منفصلين لن تُعمِّر كثيراً".

هذا يجعله يطمئن بأنه قد يلتقي قرينه ذات يوم ما، ليحلّ فيه أو يحلّ هو فيه، حيث لا يمكن تحديد الأصل، ومن ثم يعيشان حياة آخر العمر ويروي كل منهما للآخر قصته، ما الذي حدث معه طوال السنين التي خلت.

لم يحدث أن تكلّم بأمره، لأنه من أسرار القبيلة والحديث عنه حرام، يُعطّل السر نفسه، ويجعل صاحبه في خطر، وحتى لو أن الزمان بدورته قد أهان قارسيلا وأهله وجعلهم يتكبدون الحياة ويعيشون بشظف جراء ما حدث من تحولات غير مفهومة في شأن الدهر، فإن العهود والتقاليد المتوارثة لا تنصرم، إذ يجب الحفاظ عليها والتمسك بها.

يعلم ذلك جيداً وأن أول هذه العهود هي الأسرار الكبيرة، كسرِّ قرينه.

ويعلم أيضا أنه في زمان غير هذا ووفق ما ورد في القصص المروية التي سمعها من أمه تحديداً فإن واحداً من أجداده قاتل ضد جيش الزبير باشا في معاركه ضد سلاطين دارفور في القرن التاسع عشر، وهو يخدم الحكمدار التركي في الخرطوم، وأنه ذات يوم بعد أحد المعارك، خرج قرين جده ليسافر ويعيش كمولى في بيت الزبير في حين أن الآخر بقي في قصر سلطان الفور، وكان كل منهما ينقل للآخر أحواله وما يجري معه، وقد ساعد ذلك كثيراً في أن تصل المعلومات للسلطان في جبل مرة إلى أن علم رجالات الزبير الغازي، عن طريق وشاية، بأن ثمة من يُسرّب معلومات من داخل قصره.

حققت استخبارات الزبير في الأمر وتوصلوا للسبب دون أن يفكّوا لغز الطريقة التي يتم بها نقل الأسرار.

في النهاية لم يكن ثمة حل سوى أن يقتلوه رمياً بالرصاص دون أن يفصح لهم عن أي معلومة. ومعه مات القرين هناك في تلك اللحظة في قصر السلطان.

تلك القصة تجعله يشعر بالفرح أن رفيقه ما زال حياً، لكن ما افتقده تلك القدرة التي كان أجداده يتمتعون به من إمكانيات تواصل القرينين وأن يبث كل منهما شكواه للآخر، وهي مسألة حار فيها دون أن يعلم من إجابة أو يجد من يوضح له ذلك، فقد مضى العارفون وأولهم أمه التي لو كانت حية وشهدت ما جرى معه لكان حتماً قد أخبرها، فقد كان يأتمنها على أسراره وقصصه ومغامراته في الحياة، غير أنها للأسف مضت ككل الذكريات، وهي قد عاشت ما يقارب مائة سنة بكل خفة ونشاط وقوة وأمل.

٦

على الطريق إلى الخرطوم وفي مسار طويل لا يمكن للمسافر الوحيد أن يتنبأ متى سينتهي بالضبط، شاهد الحاج سعد منظراً لا يمكن نسيانه، مجموعة من الحمير المحترقة في أحد غزوات الجنجويد على القرى، أصبح نصف جسدها رماداً وبقي النصف الآخر يتعفن تحت الشمس والغبار.

تذكر معها؛ حماره الأعرج الذي ركبه في طريقه لزيارة أحد أقاربه، أخر مرة، عصر اليوم الذي سبق دخول القتلة للقرية، دون سابق إنذار.

كانوا قد سمعوا بأخبارهم منذ أيام وأنهم قد حرقوا العديد من القرى والمناطق في الإقليم وأبادوها تماما بما فيها من سكان وأشجار وحيوانات، ولم يفكر من أحد بالهروب أو الرحيل لأنهم كانوا على يقين بأن الإنسان ابن أرضه، لا يغادرها إلا إذا احتدم الخطر، إلى أن حدثت الفاجعة الكبيرة.

٧

بعد إنهاك كان قد سقط أرضاً في إحدى المناطق القريبة من معسكر تابع لقوات الجيش الحكومي، التي تكتفي أحياناً بإرسال الجنجويد وتبقى ليمارس جنودها لعب الورق أو التسلي بإطلاق النكات البذيئة حول أسرار من حياتهم لا ينبغي أن تُحكى.

كيف أن أحدهم ضاجع زوجته في أول ليلة وهي تبكي.

وقال آخر كان لوطياً أنه لم يشعر بالمتعة فغادرها في اليوم التالي إلى رفاقه القدامى الذين يلتقي بهم في بيوت معروفة بالمدينة، بعد أن يسكروا ليلاً ويبدؤون في التلهي بغرائزهم إلى الفجر، ثم يقومون للصلاة ومن ثم ينصرفون إلى أهاليهم، وكيف أنه أنجب سبعة أبناء رغم عدم شعوره بأي متعة مع تلك الزوجة، وكيف أنه اشتهى أحد أولاده مرة، حتى أنه شكّ أنه ليس ابنه.

قصص لا تنتهي. يكاد الحاج قارسيلا يسمعها في أذنه الآن، تقترب وتتلاشى، عندما وقف أمامه شاب مليح حليق اللحية، منزوع طاقية الرأس.

ذلك الشاب شعر بحركة شيء في الخارج، فخرج من خيمته التي كان يجلس فيها وحيداً، ليعرف ما الذي يجري؛ فربما أن خطراً قادم، فالمتمردون باتوا أكثر قوة منذ احتلوا عدداً من القرى الجبلية بجبل مرة وهو موقع استراتيجي يتوفر فيه الماء الذي يعتبر أحد الأسلحة الضرورية في معارك دارفور.

الشاب يحمل رتبة ملازم أول، سنه اقتربت من العقد الثالث، فيه من بقايا مروءة عادة ما يفتقدها رفاقه، وربما يمكن تفسير ما حدث بعدها؛ بخلفيات تاريخية طابعها التعاطف.

٨

رأى الملازم أول "مبارك بكري"، في الحاج سعد صورة لواحد من أهله، بالتحديد جده "ساطور"، الذي كان ملقباً بذلك الاسم حيث كان يعمل جزاراً في الحلة في حين كان اسمه الحقيقي حسنين، وقليل ما ينادى به، فقد بات ساطور الاسم المحبب له، وهو يتهادى في الطرقات والأزقة في الفجر الباكر يحضر الحيوانات من الزريبة بجوار النهر ثم يقودها إلى السلخانة التي تقع قريباً من الخلاء شرقي البلدة.

يجلس الجد لساعة أو أكثر في انتظار الطبيب البيطري، الذي يأتي بسيارته الحكومية المتهالكة، يوقفها وهو يعالج بقايا النعاس ورأسه المتخدرة بالسطل، حيث عُرّف أنه من مجربي حشيشة البنقو الكبار، وكثيراً ما شوهد وهو يدخنها بجوار النهر، يتمشى جيئة وذهاباً قبيل المغيب.

يبدأ البيطري عمله بأن يفحص البهائم ثم يضرب اللحم المذبوح بعدم مبالاة، بالختم الأزرق الذي يغمسه في علبة الحبر التي يكون قد غرسها في الرمل، بجوار الطاولة التي يجلس وراءها فوق مجموعة من الطوب الأحمر الذي رصّ ليشكل كرسي، في مكان يبعد عن المدينة، أسفلها، ليس أقل من ثلاثة كيلومترات.

مع شروق الشمس يأخذ ساطور اللحم في عربة يجرّها حصان، بها صندوق خلفي مغطى بمشمع أسود قديم ومتسخ، لكن لا أحد يبالي، ليصل الجزارة في وسط السوق ويبدأ عمله في بيع اللحوم والمصارين والكلاوي.

كان الصبي مبارك يذهب كثيراً مع جده ساطور إلى السلخانة، وتدرّب على حرفة الذبح واختيار البهائم من الزريبة المملوكة لأحد عرب العبابدة، تلك القبيلة التي تعيش ما بين مصر والسودان.

ينهضان مبكرين ويقومان بعملهما بكل إخلاص.

على الأقل كان الصبي مخلصاً.

بإمكانه أن يسترجع التفاصيل بمحبة فائقة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي بدأ يكرّه فيه نفسه عندما اكتشف أنه منبوذ بسبب جده، الذي لم يكن سوى

رقيقاً، مملوكاً لأحد الأسر العتيقة في البلدة، وأن والد ساطور، الجد الأكبر، جاؤوا به من غربي البلاد.

٩

بيع الجد ساطور الكبير، في سوق النخاسة بمدينة شندي شمال الخرطوم، الذي كان عامراً بالتجار القادمين من أفريقيا، غربها ووسطها، محمّلين بكل شيء. ريش النعام وسن الفيل، والدمور والأقمشة والأعشاب والتوابل.

كانت هناك زاوية في السوق مخصصة لبيع العبيد المسترقّين الذين يخضع سعرهم إما لقدرة الواحد منهم على العمل الشاق أو لوسامته، حيث يستخدمه سيد القبيلة من الجلابة المقيمين على ضفاف النيل، في خدمة ضيوفه ويباهي به كغلمان الجنة وربما جرّبه في أمور أخرى.

أيضا تجد في السوق الجواري اللائي في الغالب يكن من غير المختونات، حيث أن نساء النيل يخضعن للختان الفرعوني باسم الحفاظ على الشرف، بأن تزال كافة أعضائهن التناسلية، ما يجعل الزعماء العرب حتى لو أنهم يتزوجون منهن وينجبون أولادهم وورثتهم، إلا أن متعتهم الحقيقية في الجنس والنكاح تأتي مع هؤلاء المسترقّات، من ذوات البشرة السمراء والغنج الزنجي اللائي لا يضاهى، وحيث كنّ ماهرات في فنون أخرى كالطبخ والنظافة وترتيب شؤون الحياة، بحرفية مدهشة، وكان لهن خاصية أخرى هي أجسادهن البضّة المعطرة بأعشاب يُحضرنّها بأنفسهن، لا يعرف سرّها من أحد سواهن ولا يقدمنها لنساء سادتهن كي يظهرن جميلات.

وتجد أن الزعماء يتحيزون للجواري أكثر من نساؤهم، خاصة عندما تحتدم الظروف، ذلك لأن الزوجة يمكن استبدالها أو طلاقها، والعادة أن الرجال مزواجين، أما الجارية فليس من طلاق ولا عقد نكاح لهذا ستبقى هكذا إلى ما شاء الله عند سيدها إلى أن تموت، أو يهديها أو يبيعها مرة أخرى ويحدث ذلك نادراً.

١٠

اقترب مبارك من الحاج سعد، سلّم عليه وطمأنه بأنه سيكون بخير، فقد كان جلياً له أن الرجل المسن اكتشف أن المعسكر يتبع لفصائل الحكومة بالأحرى ربما لميلشيات الجنجويد، وهذا خطر علي أي حال.. لا أحد يمكن أن يطمئن في هذه الصحراء القاحلة لهذه الجيوش التي تعشق نزيف الدم.

أدخله إلى الخيمة وأسقاه الماء ثم تركه ليرتاح.

بفعل التعب المتراكم في بدنه المنهك فقد نام، ولم يستيقظ إلا وهو ممدد على ظهر سيارة "بيك آب" عسكرية تحمله بعيداً عن المعسكر، كان يقودها الملازم أول نفسه ومعه اثنان من رفاقه، يبدوان حذراً في التعامل أو الكلام.

كان الطريق قريباً من مدينة ما، لم يتعرف الحاج عليها.

أُوقفت السيارة وطلب منه مبارك أن ينزل، وهو يودّعه ويخبره بأن مهمته قد انتهت، وبعد ذلك سيكون في مأمن من أي مكروه.

أدام مبارك النظرات فيه كثيراً قبل أن تنحدر دمعة من مقلتيه، وبادلها قارسيلا بدموع منه، استعاد معها صوراً لأشتات من المجزرة تتداخل مع ماضي القرية قبل الهجوم المباغت.

١١

رأى الصبية وهم يلعبون عصراً السيجة، يحرّكون الحصى الملون على الأرض في الحفر الصغيرة، يتصّارخون كأن أصواتهم تناديه من وهادٍ عميقة.

رأي امرأة كانت جالسة في السوق تحيك الملابس في ماكينة خياطة عادية وهي تغني أغنية من أغاني الحكّامات[٣] تمجد الرجال الذين لا يخافون في مواجهة المجهول والحروب ويقومون بصناعة ذواتهم بكل شجاعة وأمل.

ورأى امرأة أخرى جميلة رغم تأوهات الألم تلد طفلها للتوّ تحت شجرة، وهم يغسلونه بماء القرب التي كانت مجموعة من البنات الصغيرات قد أحضرّنها من البئر في وسط القرية، وهن يتسابقن بخفة ونشاط يعلنّ عن معنى الحياة الذي سرعان ما انغمس في المجهول مع نهاية اليوم وحلول الفجر التالي.

رأى الدجاج يتقافز ويمرح بين مجموعة من القطاطي المزروبة بالعشب والحصير وهو يلتقط الحب على الأرض، وقد نما عليها نبات متسلق كأنه اللبلاب، أو شجيرات أخرى فقد تداخلت المشاهد في الرأس المشوشة.

كان العالم حيّاً، كذلك مع عربات الكارو التي تتسابق يقودها صبيان، وهي تحمل أثاثاً جديداً وأغراضاً مختلفة، لتلك الأسرة التي تزوج ابنهم قبل أيام وقد اشترى سريرين ومرتبتين وكراسي بلاستيكية يشرف على إدخالها إلى بيته المبني من الجالوص والمكون من غرفة يتيمة، وزوجته صغيرة السن تنظر إليه بحياء وهي تغطي نصف وجهها بالثوب الأزرق اللون الذي يبدو جديداً مُشجّراً بورود صغيرة حمراء وصفراء وبرتقالية، انتهى إنزال هدايا العرس فيما رفع أحد الحصانين في العربة التي جاءت بالأغراض رأسه بشموخ جامح وصهل بصوت عالٍ، كأنه يعلن عن بداية لحياة في عالم آخر، وحيث لا يمكن للإنسان أن يدرك احتمالات الأقدار المفتوحة للغيب.

وآخر المناظر التي وردت لمخيلته وهو يدخل المدينة، فيما ابتعدت عنه سيارة الملازم أول، صورة ثمار القنفر، من الذرة التي كان قد وضعتها إحدى الجدات في نار الحطب لتقدّمها لأحفادها وهم يهرسونها بأسنانهم الصغيرة

٣ - الحكّامات هن نساء ذوات مكانة إعلامية في المجتمع، يضعن قوانين وأسس الأخلاق والكرم والشجاعة والجود، ويثرن الحروب أو يوقفنها من خلال الأشعار والأهازيج والأقوال المرتجلة.

اللامعة البياض مبتهجين للوجود، ومرّ بهم الحاج سعد فنادوه أن يتفضل بأن يأكل واحدة معهم، وقد كان.

ثم ظهر زعيم المهاجمين في الفجر، رآه قارسيلا من بعيد وذهب ليفاوضه، لكن كيف يمكن له أن يتكلم مع رجل ليس له من رحمة ولا ضمير، كأنه مخلوق من طينة أخرى، ففي التراث المتوارث أن بعض البشر العاقين أوجدهم الله من بقايا طين متعفن بقي في الصباح التالي لخلق البشر الأفاضل في جنة الخلد.

١٢

علي أي حال، فالجنة، ليست بعيدة عن هنا، ففي وادى هناك بين الجبال المخضرة إلى وقت قريب وحيث كانت الامطار الغزيرة تهطل على مدار اليوم، كان الإنسان الأول قد بزغ إلى الوجود، ومعه ولدت الحياة في دارفور، في ذلك المكان المبارك.

في طفولته ذهب سعد كثيراً للعب في ذلك الوادي، وكان يرى الملائكة بأعين طفل وهي تصعد إلى السماء مع الشفق الأحمر الذي يلوّن سماء القرى.

كان العادة أن يسافر مع والده إلى هناك ويعودان بعد انتهاء موسم المطر، وربما يصعب عليه أن يستعيد ماذا كانت المهمة التي قاما بها، غير أنه يشعر بفرح يغمر قلبه كما لو أنه ذلك الطفل الأول، أو ذلك الإنسان البديع، المخلوق من طين رائع.

كان ثمة أمهات مع أطفالهن، وتناقلوا خبر غرق طفلين بالأمس، وحذرّه أبوه ألا يذهب للعب بعيداً، وأن يبقى بجواره إلى أن يقابلا رجلاً مهيباً يأتي على ظهر فرس، يبدو بهي الطلة، محترماً، يتكلم بأدب مع والده.

يخرج الفارس من جيبه عملة فضية يدسها في جيب الصبي وهو يمسح على رأسه ويقول له:

"بوركت أيها السلطان الصغير"

ثم ينصرف الرجلان للكلام في شؤون تخصمها..

يسرح الطفل في تتبع منبع الماء الذي ينساب رائقاً، شفافاً، محاطاً بالخضرة وبهاء الحياة في عيني الصغار، يرى فتيات يتسابقن وهن يلعبن بالماء كل منهن ترش الأخرى به، ونساء كبيرات السن يحملن الحطب على رؤوسهن عائدات من رحلة في أعلى الوادي حيث الغابة.

كانت المياه مندفعة كاندفاع الحياة التي مضت سريعاً، لتحل الكارثة؛ اللعنة التي لا يعرف أحد من أين جاءت؛ في حين كان جثة رجل عجوز ترمي بنفسها عند طرف الوادي وثمة من يصيحون أن الرجل غرق وهو يحاول إنقاذ طفلة أمام جريان المياه المندفعة بلا هوادة.

ينطفئ ذلك الوهج الممتزج بألم منظر العجوز الغريق، مع مقاطع بانورامية في الرأس المثقلة، للقتل والدمار والموت والرصاص، عشرات الجثث المحروقة، نساء وأطفال، وعجائز، وحيوانات، وجرحى، وصراخ فتيات يتم اغتصابهن، وتأوهات أناس مجانين، ومشهد رجل ملثم من المغتصبين يحمل ذلك الطفل حديث الولادة يرفع به لأعلى مثل دمية ثم يرمي به في النار؛ تصرخ أمه والرجل القاسي لا يمكن رؤية ملامح وجهه وراء اللثام، يقبض على المرأة يدوسها تحته بالكلاشينكوف بعد أن يكون قد أطلق عدة رصاصات في الفراغ، ثم يمزّق بعنف ثوب المرأة وملابسها الداخلية، يريد أن يفرغ شهوته مثل حيوان مجنون..

"حتى الحيوانات هي أشد رأفة في ممارسة هذا القيء"

كان اثنين من رفاقه يقهقهون غير مبالين بما يجري.

الزعيم يصفع الحاج قارسيلا في وجهه، يرمي به أرضاً ثم يدوسه، يسمع لصوته وهو يتكلم بعنجهية، بلغة تشبه نطق أهل الصحراء غربي دارفور وتشاد..

"لقد دفعوا لهم المال لكي يؤدوا هذه الوقاحات"

يعرف الحاج ذلك، سمع بهذه القصص ولم يكن يتخيل أن الدور سوف يأتي على قريتهم، ربما كان يعلم ذلك ويتغافله، فلا أحد يفكر في مبارحة موطنه بهذه السهولة وإلى أين سيذهب.

لكنه الآن قد ذهب، يدخل المدينة التي تبدو عامرة بالناس والأسواق والمباني والمساجد والكنائس، الكل يسابق نفسه.

وسط هذه الصور ليس بإمكانه إلى اللحظة أن يمحو أصوات تلك الساعة المنزوعة من القدر اللعين، مع بداية شروق الشمس الحزينة، التي كأنها هي الأخرى قد تعرضت للضرب بالسيخ ورأس السلاح الرشاش، وهي تغسل الدم والدموع في التراب، يختلط بنبات الأرض والبشر المحترقين، فقد صدرت الأوامر بحرق القرية بكل ما فيها.

كان شيخ الجنجويد وهو شاب يبدو في الخامسة والثلاثين يصدر أوامره..

"احرقوهم هؤلاء العبيد، لا تتركوا أحد من أطفالهم؛ في الغد سوف يصبحون كباراً ويحاربوننا، هيّا"

كان أحد الرجال قد تقاعس في مهمته بسبب تعثره أمام شجيرات تساقطت حزانى، فصوّب الجنجويدي البندقية ليرديه قتيلاً، وهو يضحك..

صوته لا يزال يسد الأفق القاتم رغم نور الشمس المقهورة.

رابعاً:
الكوماندو لا يحب مكيف الهواء

١

غزو المسلحين أو المتمردين - القادمين من دارفور - كما تطلق عليهم الحكومة، للخرطوم في ليل السبت/ صباح الأحد ١٠، ١١ مايو ٢٠٠٨، كان يوماً لا ينسى لكثير من الذين عاشوا تلك الذكرى، خاصة الذين كانوا في مدينة أمدرمان وشاهدوا جزءاً من الواقعة.

يعتبر ذلك الاجتياح أو الغزو الثالث للعاصمة في تاريخها، الذي يستمر لحوالي القرنين منذ أن أنشئت من قبل السلطات التركية في الربع الأول من القرن الثامن عشر؛ فمنذ أن سقطت الخرطوم على يد الثائر محمد أحمد المهدي في يوم الاثنين ٢٦ يناير ١٨٨٥م الموافق ١٠ ربيع الآخر ١٣٠٢ هـ، محرراً إياها من سلطة الأتراك وأعوانهم الإنجليز في أواخر أيام الدولة العثمانية، إلى أن أخذوا رأس الحاكم الإنجليزي غردون إلى المهدي؛ لم يحدث أن دخلت حملة عسكرية إلى المدينة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض.

ظلت العاصمة بعيدة عن مخاطر الجيوش والحروب التي تدور في أطراف البلاد، تكتفي بصناعة السياسات والخطط الحربية من قصر الحكم الواقع على النيل الأزرق.

حدث ذلك مع حرب الجنوب التي استمرت لأكثر من نصف قرن، منذ أول تمرد وقع في مدينة توريت الجنوبية في ١٨ أغسطس ١٩٥٥ عندما رفضت كتيبة من أبناء الجنوب السفر للشمال، بعد شائعات أنها قد طُلِبت بهدف القضاء عليها في الخرطوم لأهداف عنصرية، كان ذلك قبل الاحتفال باستقلال السودان في يوم الأحد الأول من يناير ١٩٥٦م.

استقلت البلاد على أعتاب دم وحرب، لم تهدأ.

وحدث مزيد من الألم والجراح، لاحقاً مع حروب دارفور وجبال النوبة والنيل الأزرق.

٢

تعرضت الخرطوم للاجتياح مرة ثانية، في صباح يوم الجمعة الثاني من يوليو ١٩٧٦ من قبل من نعتوا باسم (المُرتزقة)، تلك الخلايا المسلحة النائمة، التي أرسلها الصادق المهدي زعيم حزب الأمة من ليبيا، بهدف الإطاحة بنظام النميري، لكنها فشلت، وانتهت بتصفيات جسيمة.

كان الرئيس النميري في رحلة إلى باريس قادماً من واشنطن.

مع عودته في صباح الجمعة بدأت حركة المسلحين الذين تدربوا في ليبيا بدعم القذافي، وقد تمّ إنزالهم منذ أيام على أطراف أمدرمان الغربية قبل أن يتسللوا للعاصمة.

سيطر المرتزقة على مطار الخرطوم وبعض معسكرات الجيش الواقعة بوسط المدينة، في منطقة الشجرة، كما أحكموا قبضتهم على دار الإذاعة على ضفاف النيل بأمدرمان وتمكنوا من قطع البث الإذاعي، ونجحوا في إغلاق الجسور الرئيسية والمداخل بين مدن العاصمة الثلاثة، الخرطوم، والخرطوم بحري شمالا، وأمدرمان غربا، وفي النهاية قطعوا الاتصالات الهاتفية.

جرت معارك ضارية بين الغازين وقوات الشعب المسلحة، كان مسرحها شوارع العاصمة ما أدى لقتل العديد من المدنيين الأبرياء، وحيث أصبحت المدينة ساحة حرب بشعة في حين كان من الصعب التفريق بين الناس العاديين والمسلحين، الذين كانوا يرتدون زياً مدنياً وهم يصوبون بنادقهم باتجاه رجالات الجيش.

بعد ساعات انتهت المعركة بانتصار الجيش السوداني واغتيال عدد من المسلحين واعتقال الكثير منهم، وتواصلت عمليات التنظيف إلى المساء، لتعود الإذاعة السودانية وتبث برامجها المعتادة قبل ظهر الثالث من يوليو.

فرضت السلطات حظر التجوال ليلاً لعدة أيام إلى حين انجلاء الأمور، وتم القبض على قائد العملية العميد محمد نور سعد ومعاونيه وكثيرين من قادة القوات الذين اعدموا فوراً بعد محاكمات عسكرية سريعة.

٣

هذه هي المرة الثالثة التي تتعرض فيها الخرطوم لحالة حرب، دخل المتمردون المدينة، من أمدرمان غرباً في عزّ الظهيرة، وسط ارتباك حسابات الجيش والحكومة.

كان المسلحون قد قطعوا ١٥٠٠ من الكيلومترات في الصحراء الواقعة بين شمال دارفور والخرطوم في رحلة شاقة وقاسية، إذ لم يسبق لجيش أن جرّب هذا الطريق وأقدم على هذه المحاولة غير محمودة العواقب، ورغم أنها انتهت إلى الفشل إلا أنها غيّرت الكثير من معادلات الحرب وفتحت طريقاً للتفاوض بين المسلحين والجيش الحكومي بخصوص الوضع في إقليم دارفور، ونقلت أوضاع التمرد إلى مرحلة جديدة نال فيها الاعتراف من الدول الغربية.

٤

في أيامه الأخيرة بسجن كوبر، كبرى سجون البلاد المخصص في الغالب للسياسيين، وقبل أن يطلق سراحه ضمن مجموعة من الأسرى الذين تم القبض عليهم في اليوم الذي حدث فيه (الغزو) – أي قبل ثلاث سنوات - كان الكوماندو "رحمة عبد الله"، كما يلقبه رفاقه، قد سجّل تلك المذكرات المتعلقة بالحرب مع خلفيات من تاريخ السودان الحديث.

فعل ذلك بنية إصدار كتاب بمجرد خروجه، يروي فيه القصة كلها من الميدان إلى السجن - وهو يواجه حكم الإعدام الذي من المفترض أن ينفذ عليه مع عشرات الزملاء الآخرين - إلى الحرية، وربما المشاركة في الحكومة المقبلة التي ستكون بتقسيم الحصص أو (الكيكة) وفق ما اصطلح عليها السياسيون الذين كانوا يجرون مفاوضاتهم خارج البلاد، متنقلين ما بين عواصم أفريقية وأخرى في دول الخليج العربية.

في البدء كان الوضع مزرياً ولم يكن مسموحاً بأي نوع من الترفيه أو مشاهدة التلفزيون - مثلاً - دعك عن الكتابة أو تدوينات على الورق، وتحسنت الأحوال فقط في الأيام الأخيرة مع تسارع المفاوضات في الخارج.

صدرت الأحكام بشكل سريع في محاكم عسكرية باعتبار أن المقبوض عليهم يقعون تحت طائلة مجرمي الحرب الذين يهددون الأمن القومي، كيف لا وجيشهم قد دخل العاصمة وهي مسألة لا يمكن للحكومة أن تغتفرها، إلاّ أن تحصل تسوية معينة، وهذا ما حدث.

تأخر تنفيذ أحكام الإعدام ليس لأي سبب يتعلق بالعناية الإلهية أو الأقدار، إنما لأن المفاوضات كانت قد بدأت سراً، وكان النظام يعمل على خطين متوازيين من الحفاظ على صورته أمام الرأي العام المحلي بأنه يمتلك زمام القوة والبطش بهؤلاء المجرمين، في الوقت الذي كان فيه يغازل المجتمع الدولي بأن يمضي في لعبة التفاوض، القط والفأر إلى النهاية.

كان كل طرف يتلهف لكي يصل لحل لهذا الجحيم الأرضي، فالمتمردون بعد معركة أمدرمان كانوا منهكين فقدوا كثيراً من قياداتهم وتنظيمهم وعتادهم العسكري، حيث دفعوا بكل ما عندهم في تلك الغزوة التي فشلت لأسباب حرص رحمة على تدوينها بشكل سريع، على أين يعيد صياغتها لاحقا.

في المقابل فإن الحكومة كانت ترغب في التفرغ لملفات أخرى، من تقرير مصير جنوب السودان وصراعاتها مع شركائها في الحكم من الجنوبيين، كذلك تريد من ناحية شكلية لملف دارفور أن يصل لصيغة تُغلق التأزم الحاصل، بعد موافقتها على دخول القوات الأممية مصحوبة بقوات الاتحاد الأفريقي إلى إقليم دارفور، في تطور لم يكن أحد يتوقع حدوثه. يضاف لذلك أيضا، استنزاف مواردها من السلاح والعتاد في السنوات الأخيرة، في ظل وضع اقتصادي سيء. وأخيرا صدور مذكرة من المحكمة الجنائية الدولية ضد رئيس البلاد ومسؤولين كبار بتهم تتعلق بالإبادة الجماعية والتعسف الاثني في الإقليم الغربي.

٥

ظل رحمة يقضي ساعات طويلة من الليل داخل السجن، وهو يرى نفسه يعود لحماسه القديم كطالب درس القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم، قبل أن يصبح اسمها جامعة النيلين، في منتصف التسعينات إثر التأزم في العلاقة بين السودان ومصر، بعد محاولة اغتيال الرئيس المصري الأسبق محمد حسني مبارك في أديس أبابا يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو ١٩٩٥، التي وجهت فيها أصابع الاتهام للأمن السوداني.

في تلك السنوات، كان رحمة متفوقاً في الكتابة السياسية وكانت الساحة تعجّ بالصحف اليومية التي وصل عددها لأكثر من خمسين جريدة يومية تتبع لكافة الأحزاب السياسية، في الفترة التي عرفت بالديمقراطية الثالثة حيث كان رئيس الوزراء السيد الصادق المهدي حفيد محمد أحمد المهدي، قبل أن يأتي انقلاب الثلاثين من يونيو ١٩٨٩ بقيادة العميد البشير، لتختصر كل هذه الصحف في واحدة تصدر في أربع صفحات بالأسود والأبيض، جراء الحصار الاقتصادي على البلاد وتضييق الحريات على الرأي الآخر.

لم يكن رحمة وقتذاك يحمل طموحاً سياسياً محدداً ولم يتوقع أنه سوف يصبح أحد قواد حركة مسلحة تقود تمرداً في دارفور.

يمكن له أن يرجع للماضي فيرى أنه شخصياً كان يشعر بالتهميش الذي كان سبباً في تفجير الأزمة مع مرور الوقت.

في الجامعة، كانت الكوادر الطلابية تتعامل مع بعضها البعض، في الأحزاب المختلفة، يديرون اجتماعات مشتركة قد لا يبدو فيها من أثر للقبيلة أو المنطقة التي جاء منها أحدهم، غير أن ما وراء ذلك كان مؤلماً.

حقيقة الوضع أن ما لا يقال كان أكثر مما يقال. فكم من مرة كان يشعر رحمة بالحرج جراء كلمات جارحة يسمعها تُوجَّه لأناس من بني جنسه، حتى لو لم تكن قد استهدفته مباشرة، كشتم عدد من بائعات الشاي في المدينة اللائي كنّ مثاراً لسخرية البعض وأن هذا العمل ليس من حرف بنات الناس، وهذا

يعني أن هناك قاربين، واحد يحمل من هم أولاد وبنات الناس وقارب آخر يحمل الذين لا هوية لهم، أولئك الذين جاؤوا من بقايا تاريخ الرق والاستعباد سواء في الإقليم الجنوبي أو الغربي أو غيرها من مناطق السودان.

"هذا أمر غير محتمل، يشعر الإنسان مهما حاول تغافل ذلك، بالانزعاج الشديد"

يستغرق في أفكار كهذه ثم ينساها.

مع مرور الأيام كانت الصورة تتضح جيداً، فرحمة الذي كان كادراً إسلامياً حيث تم تجنيده في السنوات الأخيرة له بالجامعة، من قبل بعض أخوته من دارفور، وجد أن سنوات حكم الإسلاميين بعد انقلاب يونيو عملت على تفريق الناس لفسطاطين.

٦

أخذ أهل الشمال أو (الجلابة) كما يسمونهم من "الجبهة الإسلامية" المناصب والوجاهات وتركوا لأبناء الغرب ما سواها من مناصب هامشية، وكان هذا سبباً مباشراً في تفجير الأوضاع شيئاً، فشيئاً وقد خلّف ضغائن ظهرت فيما بعد في شكل نزاعات فردية تطورت لجماعية.

كانت حركة بولاد التي وئدت مبكراً سنة ١٩٩١ وانتهت بإعدامه تحمل طابع التذمر المبكر والانشقاق داخل فصول الإسلاميين أنفسهم، إلى أن ظهر فيما بعد ما يعرف بـ"الكتاب الأسود" مطلع القرن الجديد، الذي كان قد وُزّع بأعداد كبيرة ليكشف الخلل البيني في قسمة السلطة والثروة في البلاد، بناء على معايير عرقية وإثنية بحتة، وكان سبباً في إثارة القلاقل مجدداً في الإقليم الغربي.

جاء "الكتاب الأسود" كوثيقة صاغتها مجموعة سرية لم تُسمِ نفسها، نُسِبت إلى الإسلاميين المهمشين بعد الانفصال الذي حدث بين الرئيس البشير وزعيم الإسلاميين وأبوهم الروحي الدكتور حسن الترابي في يوم الأحد ١٢ ديسمبر ١٩٩٩، الذي سارع إلى تأسيس حزب جديد عرف باسم "المؤتمر

الشعبي"، في مقابل "المؤتمر الوطني" الحاكم، وقد نفي حزب الترابي أنه وراء هذا الكتاب الجدلي.

٧

يسترجع رحمة تلك الأطياف، ويتذكر جيداً كيف أن دعوة وصلته عبر أحد الأصدقاء القدامى في مكتبه بوسط الخرطوم، حيث يعمل في مهنة المحاماة، بعد أن بدأت علاقته بالنظام في الخلل جراء الوضع التهميشي، وقد آثر أن يكون ضمن جماعة الترابي.

كان قد أنهى التدريب على العمل في مهنة القانون، واجتاز ما يعرف بامتحان المعادلة الذي يخضع له المحامون المتدربون ليصبحوا قادرين على تحمل المهام أمام المحاكم كمحترفين.

وصله ذلك الصديق القديم في يوم ساخن من أيام الخرطوم المُغبرة. كان مكيّف الهواء الذي يشتغل بالماء لا يضرب بقوة كعادته، فهو معطل منذ عدة أيام، في المكتب الذي يقع في عمارة قديمة تعرف بعمارة الشاي.

جعل رحمة قميصه مفتوحاً بفعل الحر، وهو يتعرق، ليظهر شعر صدره العاري، الذي كان يثير بعض من النساء العاملات في المبنى، من موظفات لإحدى الشركات التي ظهرت في الآونة الأخيرة مع العشرات ربما المئات مثلها، ليس من أحد متأكد من طبيعة عملها، وهم يجلبون يومياً كميات ضخمة من العملة الورقية المحمولة بواسطة رجال عتاة يقومون بعدّها، قبل أن يضعونها في خزانات محروسة إلى الفجر بواسطة شباب يرتدون الزي المدني، يبدو أنهم يتبعون لجهة حكومية غير مسماة وربما تحديداً لجهاز غير رسمي مرتبط بالنظام الحاكم.

يتذكر أن اثنين من هؤلاء الموظفات حاولن إغوائه، لكي يداعبهن بالغرف المغلقة في واحدة من تلك الشركات، وقد كان حذراً رغم أنه أبدى رغبة في بعض الأحيان لذلك.

السبب أنه شكّ في المسألة برمتها كمؤامرة من جهة معينة تريد أن توجد ذرائع ضد متهمين بكتابة "الكتاب الأسود"، وكان يعرف أنه واحداً منهم؛ أي من الذين يشار إليهم في هذا العمل الذي وصفه الرئيس نفسه بالسخيف، وقال:

"إن الحكومة سوف ترد عليه بـ (الكتاب الأبيض) الذي يصوّر إنجازات الحكومة، وكيف أنها نجحت في التنمية والتوزيع العادل للموارد في البلاد"

مع نفسه كان رحمة يدرك أنه لم يشارك في هذا المشروع ولا يعرف من قام به، فقد ظلّ الأمر مجرد تكهنات، حتى الذين أدّعوا أنهم كتبوا الكتاب، ليس من دليل واحد يمكن تقديمه من قِبلهم على إنجازهم هذا العمل الذي أزعج السلطة كثيراً.

٨

في البداية قامت إحداهن بعرض فكرة الزواج عليه، كحيلة أولية للإيقاع به وبظن أنه يمكن أن ينصاع بسهولة للاقتران بواحدة من بنات الشمال البيض، نقيات العرق، كما أفضحت لاحقاً في لحظة غضب وهي تشتمه، بأنه ليس إلا مجرد عبد في نهاية الأمر، حتى لو أصبح محامياً أو وزيراً للعدل. وأوردت له وهي تستهزئ به وسط مجموعة من النساء والرجال أمام بائعة الشاي تحت العمارة في صباح ماطر، بيت الشعر المشهور للمتنبي:

"العبد عبد وإن طالت عمامته
والكلب كلب وإن ترك النباح"

كانت تعني ذلك الهجاء المقذع الذي واجه به المتنبي، كافور الإخشيدي حاكم مصر السوداني الأصل، الذي لم ينل الشاعر العربي الحظوة عنده رغم تدبيجه عشرات القصائد مادحاً له، ومن ثم أعقبت ببيت الشعر:

"لا تشتري العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد"

ولولا أن رحمة طويل البال، يؤمن بنفسه كثيراً ويعتز بها حتى لو أنه لا يظهر ذلك بتبجح، فربما كانت لديه ردة فعل مختلفة لهذا الهراء النسوي.

كان يمكن أن يصرخ في تلك المرأة التي تبدو في منتصف الثلاثينات والتي كانت تلبس ثوباً أبيضاً وتغطي شعر رأسها بحجاب يظهر نصف خصلات شعرها المصبوغة بالحناء.

يصرخ ليخبرها بوضوح أنها عاهرة وقحبة..

وهو يعرف ذلك، متأكد منه.

يعلم تماما ما الذي يجري وراء تلك الغرف المغلقة في تلك العمارة التي تدور فيها الكثير من الأسرار المغلفة بالألغاز، بعضها ليس مفهوماً له إلى اليوم.

٩

توصل إلى أن الفتنة بالجسد قد تقود أحيانا لغير الحقيقة، لهذا عليه ألا يفكر في الأمر كثيراً، وأن يحاول الإجابة على العرض الذي وصله من هذا الصديق القديم.

هل يترك الخرطوم ومكيف الهواء حتى لو أنه لا يعمل ليغادر الاندماج مع هذا العالم القذر، ويذهب إلى الميدان ليقاتل من أجل المستقبل، حتى لو أنه بدا غامضاً؟

ما هو المستقبل بالضبط؟

يصعب على الذهن تفسير الأمور بوضوح..

فالإنسان آلة معقدة من حيث ابتكار المعاني وفهم الوقائع وإحالة التاريخ إلى قضية يؤمن بها، ويحاول أن يتتبعها ليحقق من خلالها ذاتها..

هل الكائن الثوري يبحث في المقام الأول عن تحقيق الذات أم يريد أن يناضل لأجل هم وطني كبير حتى لو لم يبدو جليا له؟ يتكشف تدريجياً مع الوقت.

قد يكون أمامه الآن إشكاليات شخصية تتعلق بالتهميش الذي تعرض له الإسلاميون من أبناء جلدته وهو واحد منهم، الذين تمّ وضعهم في الرف، بعد أن أصبحت اللعبة تتعلق بالمال وليس بالجنة والنار.

حتى الطريق إلى الفردوس تركوه لهم، قالوا لهم اذهبوا إلى جنوب البلاد لتموتوا شهداء هناك..

حتى الشيخ الكبير، كان يبشّرهم بلقاء الحور العين ويعزي أمهاتهم بأن الملائكة تنتظر ابناءهم على بوابات عدن وعليين.

كيف يتكشف الواقع ليرى المرء أن الحقيقة دائما تخطئ وتذهب إلى مسار آخر لم يكن متاحاً رؤيته في الأمس بفعل القتامة التي تغطي القلب.

فوحده ذلك القابع في القفص الصدري يرى.

أما العقل فهو يجرّد وينظّم ويبتكر الدسائس.

كان ذهنه، مرتبكاً، ليس بمقدوره أن يفرز بدقة، أن يعلنها واضحة ما هي طبيعة الأزمة!

ربما كانت هناك أسباب موضوعية، ولكن وراءها هناك زيف شخصي عليه أن يتمسك به.

أقنع نفسه بذلك، وقال لصديقه:

"لا بأس، أنا قادم"

خامساً:
الذي أحسن كل شيء صنعاً

١

بعد أن قطعت الفتاة مسافة ليست بالقصيرة، لا تعلم طولها تماما. تنفست الصعداء أنها ربما أصبحت بمنجاة عنهم هؤلاء القتلة، وهي لا تفكر كثيراً كم مرة جرى التنكيل بها واغتصابها. حتى لو أن ذلك سُمي زواجاً شرعياً، فهي تعرف أن الزواج كما جرى العُرف في القرية يتم بحضور المأذون ذلك الرجل المتدين الذي يجلس بوقار وهو إمام المسجد في الغالب، يقوم بالتسجيل على الورق أمامه وتلاوة سورة الفاتحة ومن ثم يبارك للطرفين.

لكن ما جرى معها ليس كذلك!!..

لقد أخذوها إلى الزعيم كما يسمونه وتارة الشيخ، بوصفها الهدية التي كان ينتظرها..

وانتهى كل شيء. لكن الحكاية لم تنته.

٢

يعيش شيخ الجنجويد حياة باذخة لا تشبه هذه الصحراء القاحلة، في بيته الفخم، المبني وسط الرمال والمحاط بالحراسة المشددة.

كل شيء سهل وموجود، الستالايت الذي ينقل جميع الفضائيات بما فيها قنوات المجون، والأخبار، وعلى رأسها "قناة الجزيرة" التي يتابعها الشيخ

ليل نهار، وهو يدخن بشراهة ويسخر مما ترويه وسائل الإعلام من قصص مختلقة كان فيها طرفاً في بعض الأحيان، رغم صورته الغامضة التي لا يعرفها من أحد.

في التلفزيون يتكلمون عنه بوصفه رجل معروف ويعرضون صورة معينة له، يظهر تحتها اسمه، غير أن ذلك الشخص لا يشبهه أبداً ولا ينتمي له.

فهل الحقيقة أن الرجل الذي أمامها مزيف؟

ليس الأمر كذلك..

الواقع هو التضليل، ربما المقصود ..

عندما يكون للتلفزة أن تأخذ الثمن وتنفذ أوامر القتلة.

كانت هناك أيضا السلع النادرة، الأثاث العجيب، والفواكه غالية الثمن.

عندما أدخلها أول مرة لغرفة نومه رأتها كأنها من غرف جنة الخلد، رغم أن المقام لا يشبه ذلك المكان الموعود، فهنا هي ضحية.

بكت بلا تردد، انهالت الدموع تذرف بلا نهايات.

كان الشيخ قد أخذها جانباً، وهي تراقب لحيته القصيرة وشاربه المحلوق وعيناه الصارختان، وشعره الأصلع، وهو يبدو في منتصف الأربعينات وربما أقرب لعامه الخمسين.

أخبرها بأنها في مأمن معه، فهي الآن زوجته على سنة الله ورسوله وليست جارية، وأنه كان بمقدوره أن ينال منها وطره ويرمي بها، غير أنه قرر منذ وقت.. إذا وجد تلك المرأة التي يحلم بها فسوف يكافئ من يحضرها له بجائزة كبيرة وأن يبادلها حب قوي، يعرف أنها سوف تقدمه له ولن تبخل عليه، فليس ثمة امرأة أكثر سعادة من تلك التي تعيش في كنفه وهي لا تطلب أي شيء إلا وتجده أمامها.

لم تكن لترد على عباراته التي لا تدرك مغزاها ولا عمقها، فآثار الخوف لم تبرحها، تلك الفجيعة والموت، أن ترى أحب الناس إليك يموتون أمامك.

٣

من بعيد، وهي الآن قد اقتربت من طريق ترابي يشق الجدب، يختلط الماضي بالراهن، ويبدو كل ما حدث كما لو أنه خيال عابر، كما لو أنها تولد الآن على خديعة اسمها الحياة.

هل يمكن لفتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة أن تعلم بكل ذلك؟

أن تصنع فلسفة ومغزى للحياة؟

كان ذلك يسكنها، وليس وليد لحظته..

في اليوم الذي دخلوا فيه القرية وعاثوا فيها فساداً وجرماً، قبلها في المساء نفسه كانت تقرأ نيتشه في كتابه "موت الإله" وتكاد قد حفظت رواية ساراماغو "الإنجيل يكتبه المسيح"، وهي تتصفح العديد من الكتب في مكتبتها الصغيرة القائمة في طرف القطية والمنجورة من الخشب، صنعها لها أخوها رحمة قبل أن يسافر إلى الخرطوم في رحلته الأخيرة، ولم يعد بعدها، والتي شكلت منجاة له من هؤلاء القتلة، فلو كان هنا لقتلوه كما قتلوا والدها ووالدتها واثنين من أخوتها الصغار.

لقد صار رحمة قائداً كبيراً مع المتمردين، شاهدته أكثر من مرة في التلفزيون بقصر الزعيم.

أما البقية الأسرة فلا تعلم مصيرهم.

رأت أختها حليمة وهي تغتصب أمامها، بعد أن قتلوا زوجها وطفلها الذي لم يتجاوز شهره الثامن. كان أحد الرجال الملثمين قد رمى به من أعلى، مثل خرقة تافهة، لا يبالي بأي ضمير إنساني، وهوى الطفل على الأرض يصرخ ثم سكت إلى الأبد.

في لحظات بكاء شقيقتها الكبيرة، كانت كأنها لا ترى سوى الأضغاث، أن ما يحوم حولها ليس إلاّ حلماً مزعجاً، كابوساً، لكنها كانت حقائق.

أغمضت عينيها عندما اقترب منها أحدهم وهو يشمّر ساعديه ويرفع جلبابه ليخرج آلته العصبية، ثم يبدأ في ممارسة قبحه معها مثلما ما فعل مع آخريات من بنات القرية، صراخهن يأتي ويبتعد.

قبل أن يلجها، وقد رفع فستانها الممزق لأعلى، أسرع رجلان للإمساك به ورميه جانباً.

قام أحدهم بتوجيه رصاصة في جبهته فأرداه قتيلاً.

رغم أنها عرفت أنها ستكون بمنجاة عن الموت لحيز مؤقت من الزمن، فقد كانت ترغب في النهاية العاجلة أن تسافر مع أهلها إلى العالم الآخر، فما قيمة الحياة الآن؟

ما معنى أن تكون وحدك في عالم غريب مغمور بالأسى.

ظنت أن أحد الرجلين قد قتل صاحبه لكي يمارس دوره معها، غير أنهما حملاها وأسرعا لوضعها في سيارة مكشوفة، مثل جثة ارتمت على الأرضية.

قاما برشها بالماء لكي تفيق قليلاً، كان أحدهم يبتسم ببلاهة وهو يكلمها:

"لك السمع والطاعة أيتها الجميلة. يا زوجة أمير المؤمنين"

واستمر معها الإحساس بفوضى الوجود، تلك الأضغاث التي لا تعرف معها أين حدود الواقع وأين هي السذاجة والخيال؟

ثم انطلقت السيارة بعد أن عصبوا عينيها.

كم مضى من الزمن؟

لا تعرف طبعا، إلى أن دخلت إلى الزعيم وهو يستقبلها بأسنانه الصفراء من التمباك والدخان ونظراته التي تُركّز في الأشياء بقوة.

نظر إليها من فوق لأعلى وكرر النظرات، وهو يقف من على كرسيه الفاخر، ليربت على كتف الرجل الذي يقف بجواره، قائلاً:

"عظيم جدا أيها السادة.. اليوم لكم أجر كبير.. سأقدم لكل منكم مائة من الإبل ومزرعة ومن يريد فيلا في الخرطوم أو نيامي سوف نمنحها له"

ثم اقترب منها، ليمرر يده على خدها وهي تخفت رأسها، مواصلاً كلامه في وجهة أخرى:

"يا لهذا الجمال البارع، إنه خلق الله، الذي أحسن كل شيء صنعاً"

٤

تعرف خديجة أنها جميلة، لا أحد في قارسيلا إلا ويشير إلى جمالها الذي لا يضاهى.

كانوا يلقبونها بساندريلا التي كانت في قصص الأطفال، ومرات يسمونها ليلى العامرية التي كانت حبيبة قيس بن الملوح، ومرة قالوا لها عبلة التي هام بها عنترة بن شداد، أما والدها فقد كان يقول عنها:

"إن خديجة نعمة من نعم الله، الجمال والعلم والأخلاق الرفيعة"

كان تفوقها في المدرسة باهراً، تحرز الدرجات الكاملة في كل المواد وتبزُّ المدرسين في مدرسة القرية وهي تقارعهم وتأتي بالأقاويل والفلسفات التي تفوق سنها.

كانت تذهب مع أمها إلى أقرب الأسواق في المدن المجاورة التي بها مكتبات، فتعود مُحمَّلة بالكتب والمجلات لتشرع في القراءة. وكان رحمة أيضا لا يقصّر معها وهو يعود إليها من الخرطوم بالكثير جداً مما أوصت به، من كتب لأسماء هو شخصياً لم يسمع بها.

كانت رغم صغر سنها، صريحة مع نفسها، تحب الحياة وتدرك جمالها وتفقه في شؤون الوجود وغموضه وتقارع بلسان مدرك.

وكما يحدث مع الفتيات باهرات الجمال، فقد أسرع الخُطّاب إليها، كل يريد أن يفوز بها زوجة، ومنهم ذلك المسؤول الحكومي الذي أرسل فوجاً من رجالاته إلى قارسيلا، فكان ردّ خديجة الواضح والجريء: أنها لا تفكر في أي حاجة الآن سوى إكمال تعليمها، بعدها سوف تنظر في الأمر بمن سوف تتزوج.

كانت تعلم مع نفسها أنها لن تتزوج إلا الرجل الذي تحب، أما من هو وكيف شكله ورسمه؟

لا تعلم عن ذلك مطلقاً، ولم تكن تفكر في وضع صورة مسبقة، تريد للقصة أن تكتمل في وقتها المناسب وبالشكل الذي يكون منطقياً ومُرضّياً لها شخصياً.

كذلك حدث أنّ بعضهم حاولوا أن ينالوا منها، وقد كانت قوية في البطش بهم، فلم يكن من أحد يقترب منها؛ خوفاً من شخصيتها.

لكن ذلك كله انهزم وانهد مثل جدار يسقط فجأة، يوم جاء القتلة إلى القرية.

كيف تلاشى كل ما امتلكته من جبروت وقوة؟

أين مضى؟

لماذا أصبحت هشة وغير قادرة على المقاومة؟

لماذا لم تقاتل إلى اللحظة الأخيرة وتموت مع أهلها شهيدة، بدلاً من أن تجد نفسها جارية وسط هؤلاء الرعاع؟

وماذا سوف تسمي ذلك بسوى أنها مملوكة لا غير؟

لم تكن لتملك الإجابات، حتى لو أن الزعيم كان يلقبها بزوجته المبجلة، صاحبة الجلالة وأميرة الجنجويد. وكان يفضلها من دون عشرات النساء الأخريات الجميلات اللائي كن مملوكات له يتهامسن في ردهات القصر الصحراوي وهن يتخنثن ويتضاحكن بأصوات خفيضة.

٥

يأخذها الزعيم بجواره، تقاومه لا ترغب فيه أبداً، تعانده فيعضها في شفتيها حتى يتورما، ثم يلقي بها أرضاً يدوسها بشدة.

أحياناً بلا خجل يأمر اثنين أو ثلاثة من رجالاته فيمسكون بها ثم يغتصبها.

أي زواج هذا؟

غير أن الرجال لا يتكلمون ولا يملكون الجرأة قطعا لكي ينقلوا ما يدور بالقصر، وإلا كان مصيرهم القتل طبعا، فالزعيم القاهر لا يرحم، لقد رأته

ذات يوم يقتل اثنين من حرسه مرة واحدة أمامه لأنهما أخطأ في تصويب السهام في الدائرة الموضوعة على جدار مؤقت من الحجر في ساحة أمام القصر.

كانت تلك هوايته التي يقضي بها وقت فراغه، وهو يستلذ برؤية اصطياد الدائرة بالسهام والويل للرامي إن أخطأ في هدفه.

أكثر من مرة فكرت أنها سوف تعانده وسوف تستمر في مقاومته وشتمه حتى يقتلها، فأن تموت أشرف لها من هذه البشاعة.

الغريب أن أكثر من عشرة شهور مضت دون أن تحمل، ويبدو إما أن الرجل عقيم أو أنها - هي - التي لا تنجب، أو ثمة حيلة ما تمنعها من الإنجاب، رغم أنه قال لها في أول مرة وهو يمرر يده على خدها ويحاول أن يلمس فرجها من تحت ثوبها:

"أريد منك صبية جميلة مثلك.. أنا أحب الصبيات"

كان يتكلم لغة عربية فصحى واضحة، ويصعب تحديد بلده هل هو سوداني؟

أم من دول الساحل الأفريقي جنوب الصحراء؟

ليس سهلاً ذلك، ولم يفصح لها ولم تسأله، ولا تهتم بسوى أن يأتي اليوم الذي تغادر فيه هذا الجحيم أو تموت قبلها.

٦

عندما توقفت السيارة التابعة لشرطة القوى الأممية والأفريقية في دارفور المسماة باليوناميد، وأخذتها وهي تقترب من الموت، في حال يرثى لها، كانت تعيش شبه غيبوبة.

وجدوها على مرمى الطريق وحسبوها في البداية ميتة.

حركّوا جسدها قليلاً فتحركت ثم ابتسمت، وطلبت قدح ماء، شربت منه القليل، ثم غفت مجدداً.

كان الشاب الباكستاني الجنسية الذي يعمل ضمن وحدة الشرطة، قد أخذها في حضنه قريباً من صدره وهو يضعها على المقعد الخلفي من السيارة، ذات البابين من كل جانب، ومن ثم صندوق خلفي.

جلس بجوارها يديم النظر فيها، وهو يداعب خصلات شعرها شديد السواد ويعاين لسمرتها التي كانت غير محددة اللون، مثل قهوة صباحية.

في الأمام كان السائق من رواندا يقود السيارة وسط الرمال ويتحاشى الطرق الموحشة، فقد حفظ الطريق جيداً، منذ أن وصلوا هناك قبل أقل من عام.

وصلوا نقطة الشرطة التابعة لليوناميد وأنزل الباكستاني الفتاة بالطريقة نفسها التي كان قد حملها بها.

ارقدها على ظهرها عند أريكة خشبية بالصالة التي كان هواءها بارداً بفعل المكيف المتحرك، وحيث كان صوت موتوره الذي يعمل بالطاقة الشمسية يضرب بقوة في أذني خديجة التي بدأت في اليقظة.

٧

في ١٣ يوليو ٢٠٠٧ قام الاتحاد الأفريقي بمشاركة الأمم المتحدة بإنشاء عملية سلام في دارفور، أشير لها اختصارا باسم اليوناميد، جاءت تبنياً لقرار مجلس الأمن رقم ١٧٦٩ القاضي بأن تأخذ الأمم المتحدة على عاتقها مسؤولية حماية المدنيين كمهمة أساسية وتحقيق الأمن للمساعدات الإنسانية وتأكيد ومراقبة تنفيذ الاتفاقيات والمساعدة في العملية السياسية الشاملة في الإقليم، وغيرها من الأهداف المتعلقة بالمساهمة في تعزيز حقوق الإنسان وسيادة القانون، كذلك المساهمة في خلق بيئة من الأمن مواتية لإعادة بناء الاقتصاد وتنميته وعودة المشردين داخلياً واللاجئين إلى ديارهم بشكل دائم.

٨

جاء "نبي محمد غلام"، الشاب الباكستاني الذي بلغ الثالثة والعشرين من عمره، من بلده إلى دارفور للعمل ضمن وحدات الشرطة المحلية في مخيمات المشردين والنازحين، وكان يحمل رتبة ضابط ملازم أول، بعد أن تخرج في الكلية العسكرية لضباط الشرطة في مدينة لاهور، بدرجة امتياز.

جاء اختياره للمشاركة في القوات الأممية كمكافأة له حيث سيحصل على راتب مجز بالدولار الأمريكي يعادل الكثير بعملة بلده، فإذا كان يتقاضى ألفي دولار فهي تعادل حوالي ٢١٠ ألف روبية باكستانية تكفي لفعل الكثير.

وإذا كان قدر المرء يقوده لأمور قد لا يتوقعها، فقد كان ذلك ما حدث مع نبي، الذي لم يخطر بباله ذات يوم أنه سوف يسافر إلى أفريقيا أو إلى السودان تحديداً.

ذات نهار ناداه المسؤول العسكري الأعلى إلى مكتبه في لاهور، ليخبره بأن ثمة عملية كبيرة تنتظره وهي فرصة عمره، وظنّ في البداية أنها سوف تكون في أطراف أفغانستان لمطاردة المتشددين من بقايا طالبان هناك، أو القاعدة. لم يكن يظن أن العمل سوف يقوده إلى دارفور.

في البداية كان متوجساً خاصة بعد استطلاع بسيط في الانترنت كشف له أن تلك المنطقة معقدة جداً وأن المأساة التي تجري فيها عميقة، بل أن رئيس البلاد مطلوب للعدالة الدولية لمقتل ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف شخص في حرب طاحنة وتشريد الملايين، ولو عاد سالماً ذات يوم فسوف يكون قد كسب أكثر مما سوف يربحه من مال.

حتى لا يخيف والدته التي كانت تكثر الأسئلة حول طبيعة الحياة في دارفور، فقد كان يتحاشى أن يقدم لها إجابات واضحة، برغم أنها عرفت لاحقاً من خلال حرصها من ذلك اليوم الذي كلّمها بنيته في السفر؛ على متابعة التلفزيون لتلاحقها أخبار دارفور كأنها كانت تنتظرها.

حتى لو أبدت ممانعة بعدها، فقد انتهى الأمر واتخذ القرار بحيث يصعب التراجع عنه، فأي محاولة لنبي بالتنازل لن تجعله في وظيفته مستقبلاً، فعصيان أوامر القادة في باكستان يعني النهاية.

كان نبي يعلم أن قائده اختاره لكي يقدّم به نفسه، أنه قادر على تقديم كوادر ناجحة ولاشك أنه سوف يستفيد من وراء ذلك كثيراً.

سادساً:
النسيان والكلام مع الزاحفة

١

معسكر قاقا في شرق تشاد، يضج بالحياة رغم عمق المأساة التي عاشها أهله منذ سنين مع جحيم الحرب في دارفور، جاؤوا إلى هنا باحثين عن فرج مؤقت وهم يحلمون بالعودة إلى ديارهم ذات يوم قريب، الله وحده أعلم متى يكون ذلك اليوم؟

لا يبدو ثمة أمل واضح فالأخبار التي ترد من هناك، سيئة للغاية، القتل مستمر، التشريد والنزوح، والآلاف يصلون بشكل شبه يومي، أكثر من عامين لم تُغيّر من قانون المعادلة المرتبكة.

لون الرعب والهلع والنزيف الأحمر.

في يوم الأحد الثالث من سبتمبر ٢٠٠٦ وصل السيناتور الأمريكي باراك أوباما حاكم ولاية إلينوي بالولايات المتحدة، قابل العديد من الأهالي،

تحدّث إليهم بالإنجليزية عبر مترجم للعربية واستمع لشهادات من النساء اللائي فقدن أزواجهن وأطفالهن، وبعضهن كنّ حاملات أو أنجبن للتوّ من آباء مجهولين، من الجنجويد الذين هاجموا القرى الآمنة المطمئنة فأحالوها إلى جحيم أرضي..

"جحيم لم يكن دانتي ليتصوّره"

كما قال أحد الرجال لأوباما، وهو يرافق أوباما في قاقا.

المعسكر وقتذاك كان سكانه أكثر من ثلاثين ألف نسمة، وقد تحوّل تدريجياً في غضون شهور إلى مدينة متوسطة الحال، خاصة مع دخول المساعدات الإنسانية من منظمات الغرب، ووصول أفواج من البشر، من ممثلين وصحافيين ورجال أعمال وباحثين عن الأضواء، وغيرهم، وهم يحملون أغراضاً متنوعة سواء بهدف إنساني أو استعراضاً مؤقتاً أمام الكاميرات بدافع الشهرة.

ليس لأهل المعسكر أن يفرزوا ما يحدث، فالضحية لا يفكر كثيراً في أسوأ مما حصل معه، مما رأى وعاش، أن تصبح بلا أب ولا أم ولا أخ بين ليلة وضحاها.

٢

وصل أوباما عن طريق تشاد، فقد رفضت حكومة السودان منحه تأشيرة دخول عبر دارفور، وقد استعان برجال الأمم المتحدة وسياراتهم التي حفظت هذه المواقع الوعرة جيداً.

خلال أيام وجيزة من تلك الزيارة تحوّل اسم معسكر قاقا، إلى قارسيلا، وكان الرجل الذي أصبح فيما بعد رئيس أمريكا سبباً في ذلك، فأثناء إلقائه محاضرة مقتضبة وهو داخل خيمة بلاستيكية مُكيّفة نصبتها منظمة تطوعية أمريكية، وقف رجل متقدم السن، عرّف نفسه على أنه سعد، في حين هتف رجل يجلس بجواره مخاطباً أوباما:

"إنه يتواضع سيدي، إنه حفيد السلاطين، إنه الحاج سعد.. نحن نسميه هنا قارسيلا"

تكلم الحاج قارسيلا عن مأساته الشخصية، كيف أنه فقد عائلته كلها ولم يبق من أحد منها على قيد الحياة.

وكاد يحكي عن ضياع قرينه الشخصي.

قبل أن ينطق بذلك، تذكّر أن ذلك سر يجب ألا يقال، إنه تاريخ العائلة المغلف بالأسرار والغموض، الذي يجب أن لا ينقل لأحد، بل يتوارث بينهم، وربما سيكون هو آخر الوارثين، فلا أحد تقريباً الآن تبقى من تلك الأسرة التي صالت وجالت في الإقليم ذات نهارات بعيدة.

كان أوباما يستمع للرجل بدقة، قبل أن يبتسم قليلاً ويواصل سماع آخرين، ولا يُعرف إن كان قد نطق باسم قارسيلا أم لا بعدها، فقد بدأ الناس يتداولون اسماً جديداً لبيت النزوح، معسكرهم.. دون أن يفكروا في ذلك، ككثير من الأشياء التي تحدث هكذا بلا مقدمات.

الذي جرى أن أوباما كان قد قال شيئاً مهماً لا أحد يتذكره اليوم، أشار إلى أن قارسيلا هو أكبر الناس هنا سناً وربما أعمقهم حكمة من خلال ما سمعه منه شخصياً.. "ولهذا فهذا الوطن المؤقت جدير باسمه".

٣

أعقبت زيارة أوباما مئات الزيارات، كانت وسائل الإعلام تنقل اسم المعسكر مرات على أنه قاقا وأحياناً قارسيلا، إلى أن استقر الاسم الأخير.

كل ذلك لم يكن ذي أهمية بالنسبة للحاج سعد الذي كان مشغولاً برحلته إلى هنا ومارس التخفي من أي مقابلات، يفكر فقط:

هل سوف يلتقي قرينه الذي خرج منه في ذلك الفجر الدموي؟

أين ذهب يا رب؟

هل هو حي، أم ميت؟

ولم يسترسل في التفكير، فهو يدرك أن القرين إذا مات لابد أن يموت الآخر، هذا هو المعلوم في الخبرة المتوارثة للعائلة. غير أن القواعد قد تختل، وقد بدأت في الاختلال فعلياً فهو الآن يفتقد لواحدة من تلك الأسس الصارمة المتوارثة، القدرة على التواصل بين القرنين، بين الأصل والصورة.

لماذا لا يحدث ذلك معه؟

إن ما يحصل، من عدم القدرة على الكلام مع قرينه، يزعجه جداً ذلك، ولكن وحده سوف يعاني أزمته ويصبر عليها إلى أن يرى فرجاً، إذا كان له أن يحصل؟ وحيث لا ينفع بث الشكوى إلا لنفسك، لروحك..

"فالآخرون قد يسمعونك، غير أن هذا لن يفيد، إذ أنهم لا يقدمون لك عوناً في أحلك الظروف"

٤

في أيامه الأولى التي وصل فيها هنا، كانت الوقائع حاضرة أمامه يكاد يراها كأنها تحدث الآن، في شريط سينمائي يستعرضه أمام عينيه.

مع مرور الشهور والسنين باتت الأحداث تتقاعس عن الخلود في الذاكرة المهترئة.

لماذا لم يعد ذلك الكائن قوي التذكر؟

لاسيما ذكريات قارسيلا بلدته التي هو في أشدّ الشوق إليها.

ولو عاد إليها ماذا سيجد سوى الرماد، وبقايا الحريق.

رغم ذلك فسوف يعود ذات يوم، يملك إحساساً قوياً وإيماناً كبيراً بذلك، أن ما يراه الآن مجرد أطياف سوف يصبح واقعاً. كما أن الواقع صار خيالاً، فعلى الخيال أن يبادله الود ليصبح واقعاً يوماً ما.

بهذه البساطة يختصر الصورة، ويمضي في البحث عن معنى لحياته في قاقا، حيث لا يظن أن كل هذه المدينة النازحة تُسمي الآن باسمه، وقد يكون الناس الذين اطلقوا الاسم نسوا ذلك، وهذا لا يهمه ولا يثير اهتمامه أبداً، وهو يتحسس الحجاب الحامي من الرصاص، يجده في مكانه، ذلك الذي

كان سبباً في إنقاذه من الموت، حتى لو أنه من ناحية أخرى فرّقه إلى شخصين يبحثان عن بعضهما، هذه القصة التي تبدو له خيالية لا يمكن تصديقها.

يدخل في دوامة من الشك، هل هو شخصين حقيقين في شخص واحد؟ أم هو شخص واحد يتخيل أنه له قرين أو رفيق قد خرج منه في يوم اللعنة، فما جرى أمام عينيه يمكن له أن يجعل الإنسان يجنّ أو يتصوّر أي خرافة خارقة.

٥

كان قد رأى قرينه يهرول في الاتجاه الثاني، الرصاص ينهمر هنا وهناك، مرة باتجاهه ومرة باتجاه القرين، قارسيلا الآخر، قاقا الآخر، ولكن لا أحد فيهما يموت، إنهما يسرعان، يتلاشيان لبعضهما وراء الأفق الممتد، إلى أن يصل إلى تحت شجرة يجد أنه قد فقد القدرة على الجري تماماً أو حتى المشي، يستريح غير آبه بما يمكن أن يحدث.

هو لا يخاف الموت، ولو ضربوه بألف رصاصة وراجمة لن يقتلوه، ما دامت التميمة معه، الخوف أن يجزوه نائماً بسكين حادة أو سيف، وقتها سوف يكون قد فارق الحياة، فالفرصة الوحيدة لكي تقتل من يلبس حجاباً واقياً من الرصاص، أن تضربه بآلة حادة.

دخل الليل وهو نائم لم يستيقظ إلا وفوقه سماء بلا قمر، ليس إلا النجوم التي يحفظ اسمائها منذ الصغر وبإمكانه عبرها أن يحدد الاتجاهات.

قرر أن يسير غرباً إلى حيث يمكن أن ينجو من أي مليشيات قاتلة..

"كلما اتجهت إلى الغرب كان خيراً لك"

قال لنفسه، وتوكل يسير وحيداً مثل كائن بلا ذكرى ولا عنوان سوى اللحظة التي يعيشها، فالصدمة جعلته ينسى أو يتناسى، العقل تعطل تماماً عن التفكير في أي ماضٍ أو مستقبل، كأنه يؤدي صلاة أبدية لله.

عبر بالديار التي جرت فيها معارك قديمة قبل قرن وأكثر، كان أجداده يحكمون هذه البلاد يصولون ويجولون فيها، إلى أن جاءهم رجل ليغزوهم

مدعوماً من الإنجليز فقتلّهم وشرّد بهم، الرجل من تلك الجهات الواقعة بجوار النهر، حيث التاريخ يكرر نفسه الآن. هذه الأرض لن تهدأ.

ويرى أمه تكلمه من بعيد، ثم تمضي لتدخل بين غمامات متناثرة تتحرك بين النجوم الباكية، ثم تتزاحم مشاهد التاريخ السحيق مع الأمس القريب، مع اللحظة التي ليس فيها من أي حدث، سوى الخمول، السكون الذي لا يجلب سوى الوحشة للذات والخوف من المجهول.

ثم كأنه يسمع قرينه الآخر يكلّمه، غير أنه ليس متأكداً من هوية الصوت هل هو يأتي من داخله أم من ذلك الذي كان يسكنه وفرّ عنه؟

ولم يجهد ذاته كثيراً في الغوص بحثاً عن إجابة لسؤال عويص، إذ قرر أن يتبع خطى الصوت، علّه يحصل على نصفه الآخر.

أخبره الصوت..

"إن كل البشر في هذه الحياة يضيّعون نصفهم الآخر ولا يبحثون عنهم أبداً حتى يتلاشون أو يموتون ذات يوم، ووقتها لا لقاء، فالموت تلك النهاية العجولة التي تقتل كل أمل، تجعل الحياة رماداً وبقايا ذكرى في أهوال العالم المنسي، ذلك الذي كان يسكنه الإنسان مثل شبح"

ثم يحاول أن يلملم أطراف من بقايا طفولته البعيدة، ربما قد حدث ذات يوم أن ذلك القرين خرج ثم عاد.

يتخيل ذلك، بل هو قد حصل أمامه ماثلاً للعيان.

عندما روى القصة لأمه حذّرته، بألاّ يحكي ذلك لأحد.. علّمته:

"السرّ يبقى سراً إلى الأبد وإلا فسد بأن يخرج لكائن آخر"

٦

كانت القرية تكاد تستسلم للنوم، عندما وصل من بعيد رجال على ظهور هوادجهم وهم يغنون أو يُنشدون للحياة، كانوا بهجين.

قالوا للأم: "نريد سعد يذهب معنا للمهرجان، كي يفرح ويسعد"

وكانت تخاف عليه أبت، وقالت لهم:

"لا وألف لا"

ثم أنهم أطلقوا عليه النار..

الرصاص وحده كفيل بأن يخرج القرين ليحوم خارج الجسد، يتشكل في هيئة إنسان آخر..

ورأى ما رأى..

وخرج القرين إلى المهرجان ثم عاد، ليستقر في مكانه، يحكي تلك الرحلة لصاحبه كما لو أنها وسوسات شيطان رجيم.

قالت له أمه رابحة:

"الناس لا يصدقون في الغالب، وليس مهماً أن نقدم لهم الإقناع.. الأساس هو روحك وذاتك وشيطانك أنت، إذا أقنعته فقد انتهى الأمر".

مرت سنين، بل عقود لم يتكرر ذلك الحدث القديم الذي تحتضنه الذاكرة.

٧

يستمر في السير ليال متواصلة، يهجع في النهارات، حتى لا يصطاده هؤلاء الرابضون في أطراف الصحراء هنا وهناك، ربما يظهرون فجأة، فهو يعرف حكايتهم جداً وشهوتهم للدماء، سوف يفعلون به أي ما هو غير متوقع إذا ما صادوه مثل غزال بري عجوز، وقد يشوّنوه ثم يأكلون كبده أو لحمه، ليس لهم من ضمير ولا أخلاق.

ما رأى لا يمكن أن يقول غير ذلك، لا يشير لغير رواية واحدة هي القسوة والصلف والغرور البشري، رغبة الناس في التوحش، طوال عمره لم يظن نفسه أنه سوف يعيش هذا الألم المتواصل أن يظل وحيداً يطارد الوهاد والجبال، وليس له من أحد يستأنس له، بعد أن فقد الحبيب والقريب، يعيش مع ذاكرة باتت شبه معطلة لا تقدر على تذكر أهله من هم بالضبط،

الكل يتشوش ويغيب، إلا تلك الأم التي تبدو مثل خيال، وطبعا ذلك القرين الهارب.

٨

في تلك الرحلة وإلى أن وصل قاقا، ليجد أن ثمة مدينة للنازحين بل مدناً تنمو على الحدود، كان قد جرّب قدرات لم يكتشفها من قبل في نفسه، كالقدرة على الكلام مع الزواحف والثعابين، التي كان يخافها في طفولته وصباه، رغم أن ذلك الفكي البعيد الذي يعجز عن القبض عليه في دماغه، كان يقول له:

"أمسك يا سعد الثعبان لا تخاف منه، لن يفعل بك أي مكروه، فهو يحب الشجعان فلا يمسّهم، أما الجبناء فسوف يلدغهم"

ثم شجعته والدته بأن يمسك بالأفعى السامة، فأمسك بها ولاعبها في وسط السوق، ليتجمهر عدد كبير من البشر الراغبين في رؤية حفيد السلاطين وهو يداعب أنثى الثعبان ويراوغها.

تناقلت الحكاية في السوق، ليختم الفكي محمد أحمد بالقول:

"إن ما يفعله الصبي ليس إلا بعض من مدخرات الأجداد الأقوياء والأشاوس والشجعان، أولئك القوم الباهرون الذين كانوا يكلمون الحيوانات والطير ويحيلون الحجر إلى دواهي تتحرك فتصطاد الأعداء صيداً في حروبهم التي خاضوها عبر القرون منذ أن أسسوا ممالكهم هنا في هذه الجبال الخضراء"

شعر الصبي بفرح غامر يعبئ قلبه الصغير الذي بدأ في الاتساع.

رأى أنه بطل بين جمهور يصفق له، وأحب الفكي محمد أحمد لأنه وثق فيه وجعله يُقدّم على هذا الفعل الخارق رغم أن أمه تكرر:

"إن ذلك عادي جداً في ميراث القبيلة"

تبقت له الآن خطوة واحدة أن يفهم لغة هذه الزواحف والحيوانات، وهو الأمر الذي عجز عنه.

همس الفكي لأمه يخبرها:

"ذلك يستدعي توفر شروط أخرى، وللأسف أن القبيلة قد فقدت هذه المتطلبات مع الزمن"

لم يحدد لها ما هو المطلوب؟ وقد كانت رابحة تعرف، تدرك تماماً أن الصبي الذي يجب أن يقوم بذلك لابد أن يكون أغلفاً غير مُطهّر، ولهذا فقد كانت القبيلة تحتفظ بأحد الأبناء دون ختان لهذا السبب، كي يشرّفها ذات يوم بصناعة المجد.

للأسف فإن سعد مختون، وهذا يعطّل الكلام مع الزواحف.

أما اليوم وبعد مرور أكثر من ستين سنة فقد تحقق الحلم، فعندما تحسس الرجل المسن قضيبه وجده يعمل بقوة، رغم أنه لم يهتم به في الفترة السابقة، كان طبيعياً ليس فيه أي أثر للختان من الأمام.

أدام قارسيلا المعاينة أكثر من مرة، غير مصدق، ثم قال لنفسه..

يبدو أن النسخة الأصلية قد ذهبت مع القرين، بالتالي فهذا يعني أن الرجل الذي يكلّم نفسه الآن هو القرين وليس سعد الأصل، لأن الأصل يجب أن يكون مختوناً.

أصيب بالوجوم والحيرة، هل يعني ذلك أن القرين ينسلُ من الأصل، طيباً وجديداً معافى من أي أثر للخدوش والجروح القديمة.

غير أنه لكي يكتشف حقيقة ذلك، قام بتحسس جبينه وقد كانت له خدشة بالسيف في أحد المبارزات التي يجهل تاريخها أو لا يفكر فيه لحظياً، فوجد أن الخدش موجود.

هذا أثاره أكثر، هل يعني أن الأصل والقرين يتقاسمان الجراح، كل يأخذ جزءاً منها؟ ربما لو ألتقيا ذات يوم سوف يفهم السبب! وربما لو أن الزمن تراجع للوراء لفهم من أمه التي كانت مستودع الأسرار الغامضة!

كذلك يمكن أيضا للفكي محمد أحمد أن يدرك هذه الأمور الغيبية.

الخلاصة أنه بات الآن بمقدرته أن يسمع لأحد الزواحف تحته على الأرض، قريباً من حجر كبير ملوّن،

٩

سمعه يقول له..
"يا سعد لا تحزن، أو تدري ما حل بقومنا في هذه الأرض؟"
وسألها:
"وأنتم أيضا لكم حروب ودماء وعنف؟"
ضحكت الدابة الزاحفة الصغيرة، التي خُيّل له أنها تشبه السلحفاة البرية رغم أن لها رأس حصان، وقالت:
"نعم.. لنا كل ما تتصورون وما لا تتصورون، نحن أسرى الناموس الكوني، نظام الفوضى والخراب"
تأمل في كلامها، ثم أغمض عينيه ونام.
كانت الرحلة طويلة، عليه أن يستمع لنصيحة الزاحفة ويسير إلى الغرب قليلاً إلى الشمال، ليصل إلى حيث يمكن له أن يجد من يثرثر معهم ويفهموه، أخبرته بذلك واختفت في الصباح التالي لم يجد من أثر لها.
بدت الأرض بيضاء، مغسولة من الأعشاب ورزاز المطر بالأمس، كما لم يكن ثمة أي أثر لحشرات أو هوام أو زواحف.
كأنها الأرض قد خلقت قبل قليل، وأن الرب قد تفرغ الآن مستريحاً يفكر في خلق بقية المخلوقات، ربما سوف يبدأ بالشجر أو البشر..
لا فرق في ذهن الحاج سعد.

١٠

أحياناً بل في هذه الهنيهة، يحدث أن يشعر الإنسان كما لو أنه عاش تجربة الحياة من قبل.
كما لو أن الحياة مجموعة حيوات يمر بها المرء ثم يدمن تكرارها بملل أو دونه..
لكن ليس ذلك مهماً لأن هناك ما هو أهم.

القدرة على النسيان..

هذه الخاصية البشرية الغريبة التي تجعل الحياة ممكنة وتصنع الفرح في مقابل الأحزان..

يمكن للمرء أن ينسى، لكن بعض الجراح لا تندمل تظل كلما تحسستها تُذكرّك بالألم الذي يجب أن تعيده في ذهنك، فتبدأ في تلاوة سورة الأسى مرة بعد أخرى، مسترجعاً الرعب والهلاك.

لكن خاصية النسيان ليست صفة بشرية فحسب هي تقريباً قانون وناموس الكون.

الكل ينسى ليدمّر نفسه في نهاية الرحلة..

الأشياء كلها تنمو فريدة، ثم تستهلك مع الزمن.

لا ديمومة ولا بقاء أبدي، إلا لذلك الخالق الوهاب الذي زرع النسيان في قلوب البشر، وعلّمهم أن يدخلوا حياة ثانية وربما ثالثة وغيرها.

إن النسيان هو قدرة الذرة والخلية على أن تجهل تاريخها، فتبدأ في الذبول لتنتهي إلى الموت.

سابعاً:
خيانة النجوم.. خيانة القمر

١

لم ينتبه إلى أنه مستغرق في شاطئ الذكريات التي هي أشبه بالغمام الذي يظلله من فوقه، يكاد يلامسه لأن المنطقة التي يجلس عندها وسط التلال

والجبال كانت مرتفعة جداً، وقد لفحة هواء بارد يسمونه هناك في البلد الشمالي بأمشير.

كان الرجل الغريب ما زال بجواره، يُحدّثه عن أهميته كرجل سياسة وحرب في المرحلة المقبلة من تاريخ البلاد.

الأمر هنا يتعلق به هو شخصياً، وليس بذلك المعتوّه عمّار.

يستمع بجدية وهو في نقطة معينة يصعب عليه أن يحدد موضعها هل هي في الشمال أم في الجنوب، لأن القادة يتكلمون عن وطنين مقبلين في الغيب.

فهل هو في البلد الجديد القادم أم القديم الذي يصنع الأزمات؟

ويكاد يضحك مع نفسه، رغم أن عمق الجراح والألم لا يسمح بمثل هذه الترهات، كما أن عليه أن يحترم مُحدّثه.

ثم يجد أنه قد ضحك، لكن هذه المرة كان وحده، فقد أستأذن صاحبه ليتبول وراء شجرة من الأشجار العالية كثيفة الأوراق وهي تكاد تغطي السحب.

ضحكته سمعها الرجل على ما يبدو، وهو يلتفت من بعيد مُظهّراً ابتسامة يصعب نسيانها رغم مرور السنين، معها يرسم حنيّن بالبندقية خطاً على الأرض وهو يقول لنفسه:

"مثل هذا الشريط يفصل بين هنا وهناك.. بين بلدين.. يالها من مأسأة".

يتذكر وهو صغير السن، تقريباً في سنوات المدرسة الأولية. كان يتعامل مع درس الجغرافيا كما لو أنها مادة اعتباطية خيالية، أكثر منها واقعية، خاصة عندما يأخذ المعلم الطباشير ويبدأ في الرسم على السبورة..

"هذه الدولة كذا.. وهذه حدودها..

وهذا خط العرض أو الطول رقم كذا.. الذي يفصل بينها وبين الدولة كذا"

كان كطفل أو صبي يدرك أن ذلك هراء، فالقبلية التي ينتمي لها تتنقل بالإبل بحثاً عن المراعي، دون أن ترى هذه الحدود المرسومة في كتب

المدرسة، فأكثر من مرة ذهب في الإجازات في رحلات مع والده وأشقائه الكبار ما بين تشاد وليبيا، ومرة وصلوا إلى النيجر. فأين هذه الحدود؟ لماذا لا يراها؟

وقف ليسأل المدرس:

"يا أستاذ من رسم هذه الخطوط؟"

إلى ذلك اليوم كان يتخيل أن هذه المستقيمات والمنحنيات على الورق أو السبورة، أو في ذلك الكتاب اللعين ذي الصفحات الطويلة والأوراق الملونة والمسمى بالأطلس، هي واقعية وموجودة على الأرض.

وكان يفكر مع نفسه، أنه لو سافر من جديد مع شقيقه إلى ليبيا عبر الصحراء الممتدة فسوف يرونها؛ ففي مرات سابقة كان ينام أثناء الرحلة وهو على ظهر الجمل، ويستيقظ ليجد أنه في البلد الثاني، لهذا قد يكون فاته رؤية الخطوط الفاصلة، حتماً سوف يراها في المرة المقبلة التي هو في أشد الاشتياق لحصولها سريعاً، ليرى هذا الخط.

ما هي طبيعته؟

هل هو حفرة ممتدة على الأرض أم تلة مستمرة بطول الحدود؟

أم هو رسم بالجير كالذي يصنعونه في ملاعب كرة القدم ليحدد أبعاد الملعب؟!

ردّ عليه المعلم باقتضاب ليقطع عليه تأملاته وأحلامه الصغيرة، وكأن سؤاله غير مهم:

"هذه رسمها الله.. يا ولدي!"

كان معلم الفصل، سيء المزاج، خاصة أنه مشغول بحدود واجبه اليومي ودرسه الذي يحفظه منذ عشرين سنة، ويردده، دون أن يزيد فيه أو ينقص، فلا مجال للأسئلة إذن، كما أنه في الأساس لا يعترف بهؤلاء التلاميذ، في بلد فقدت فيه الثقة بالمستقبل.

كان يراهم حصاد للخيبات وبالتالي "فمضيعة الوقت في البحث عن إجابات لأسئلتهم التي لا معنى له، فهم مثلهم مثل الأجيال التي مضت لن يجرّوا سوى المزيد من الأوجاع، فهذا البلد لا أمل فيه".

٢

الآن.. يرفع البندقية عن الأرض ويلوّح بها في الهواء قليلاً، ثم يقوم بشكل سريع، ومفاجئ، بإطلاق عدة رصاصات سريعات في الفراغ.

كان قد وضع مؤشر الإطلاق الجانبي للكلاشينكوف على الأتوماتيكي، فهذه الآلة ليست غريبة عنه، يحفظها جيداً، قبل أن يخوض أي حرب، فقد تدرّب عليها كراعي إبل يصطاد بها الغزالان البرية في الصحاري في الطريق إلى ليبيا، كم كان لحمها طازجاً وهم يشوونه في النار الموقدة في الليل.

كانت الحياة تبدو كما لو أنها حلم، ولم يكن من أحد يظن أن الأحوال سوف تتغير..

كان يظن أنه سوف يترك المدرسة عاجلاً أم أجلاً ليرعى الإبل أو يتاجر بها إلى أسواق مصر الجنوبية، كما كان أبوه وأعمامه يفعلون، قبل سنوات من مولده، لكن الأحوال بدأت في السوء مباغتة، إذ لا أحد لديه سبب ملموس لما يحدث.

هل هي لعنة ربانية؟

كما تقول الجدات كبيرات السن..

أم أنها الطبيعة تتغير؟

أم أنه القدر الإلهي الذي يجب طاعته؟

لو عاد الزمان، لما ذهب إلى الخرطوم أبداً ولبقي في بلده.

انتبه لدوى الصوت في المكان ..

طق.. طق.. طق.. طقطقطقطققق ..

قبل أن يجلس من جديد سارحاً في ملامح مشتتة من رحلته في هذا العالم، ومصيره.. مصيره - هو - شخصياً.

إلى أين ستمضي به الحياة؟

وهل سوف ينجح ذات يوم في بناء حلمه الكبير الذي لا يعرف عنه أحد سواه، بأن يكون الزعيم المنتظر والمُخلِّص لبلده الأم، أن ينقذ أهله من لعنات الخرطوم، ينتصر لتاريخ مثقل بالأوجاع السيئة.

هذا الحلم الذي بدأ يتشكل الآن واضحاً كالشمس، في هذه اللحظة التي أطلق فيها الرصاص وهو يستعيد مهارة الصبا التي ظن أنه نساها، ثم يفكر أنه لن يكون انفصالياً، سيرمم الجراح وسوف يتجاوز أزمته الشخصية وجرحه الخاص، فالموضوع لا يتعلق به..

إنه بناء وطن جديد، دور يشبه المعجزة.. فهل يتحقق؟

٣

يكاد يرى ذلك الحلم القديم، الآن أمامه، يدنو من الواقع مع اقتراب القافلة من العاصمة، فقد تبقت ثلاث ليال أو ربما اثنتين وسيدخلون المدينة منتصرين.

سوف تسجل له كتب التاريخ أنه صاحب الدور العظيم في لملمة الألم.

أصدر تعليماته لجنوده:

لا تقتلوا المدنيين..

إياكم..

أهدافنا عسكرية فحسب.

لا نريد دماء..

نريدها غزوة بيضاء..

كان يعلم رغم قوله ذلك، أن هذا مستحيل، غير أنه لابد من الخروج بأقل التكاليف ما دام الأمر يتعلق بالحرب.

مضى في مخيلته يرسم لوحة الوطن الذي يحلم به، أن يكون هو كذلك صاحب المجد الكبير بإعادة توحيد البلدين القادمين على الانفصال، الجنوب والشمال، بإعادة لصق التوأمين المفصولين بعملية جراحية خرقاء، يقوم بها ساسة سذج، يرى فيهم رعونة وأنهم ينتمون لماضي سحيق لا علاقة للأجيال الجديدة به.

٤

"فساسة الشمال بالتحديد يعيشون في وهم كبير؛ أنهم خالدون إلى الأبد، وقادرون على امتلاك كل شيء ولأجل اللاشيء وإلى النهاية، حيث لا نهاية مطلقاً في أعرافهم، بظن أنهم يتوالدون إلى يوم البعث.. ناسين أو متناسين أن العالم كله سوف يتدمر نهائياً ذات يوم بصرخة مهولة من صفارة كبيرة اسمها (الصور) يطلقها ملاك عظيم مهول، فيهدم كل بنيان الوجود بما فيه هؤلاء الساسة العميان، ولكن قبل أن يحدث ذلك سوف تكون الخرطوم قد سقطت وانتصر القائد"

٥

مثل هذه الأفكار عن نهاية العالم ونفخة الصُور، التي ترد إلى ذهنه دون سابق إنذار، كانت تعيده إلى صراعه النفسي القديم أيام الدراسة ما بين الإيمان بالغيبيات التي يفرضها دين العشيرة المتوارث، والحلم الكبير بالتحرر من كل، ذلك بالسباحة في أفق مفتوح، يشبه سماء الطفولة في تلك المراعي الممتدة التي أصبحت اليوم جدباً وحريقاً مشتعلاً.

تحت تلك السماء البعيدة المتجددة في أمكنة أخرى، كان يشعر كما لو أن العالم ممتداً بلا حقائق أو بأكثر من حقيقة ومعنى، وأن الحياة بمثلما هي مُسيّرة بالنظام هي محكومة بالفوضى.

وفي المدرسة شبّ في فترة مبكرة من حياته، ليصبح قارئاً نهما للفلسفة ونقد الفكر الديني، وكان ماركسياً بحجم انتمائه للحزب الأحمر - كما يرغب أن يسميه - سراً.

غير أنه إلى اليوم ليس متأكداً من حقيقة ذلك الانتماء القديم، الذي لا يكاد أحد سواه يعرفه، ولم يحدث أن صرّح به ذات مرة في أي من حواراته الصحفية أو التلفزيونية، وهو يُسئل عن خلفياته الفكرية التي انطلق منها لتحرير الإقليم، كقائد ثوري.

٦

يستحضر، ذات مرة، سألته مذيعة قناة الـ (بي بي سي)، وهي تكلّمه من الاستوديو في لندن، وهو في الميدان، عبر كاميرا مشوشة لا تظهر صورته بشكل واضح؛ إن كانت فكرة العدل التي عبّر عنها قبل قليل مأخوذة من ثقافة ماركسية؟!

ضحك وهو يرد عليها..

"لا اعتقد أن ماركس أو أبوذر أو غيرهما يختلفون كثيراً، نحن نهتم بالفكرة وليس بالأشخاص"

هل كان يحب ماركس حقاً أم يكرهه بدرجة مطلقة؟

وهل عندما أنتمى للتيار الإسلامي أيام عذاباتهم، كان يرى فيهم صورة ماركسية مصغرة؟

وليس هذا بغريب، في رأيه..

٧

"فالتيار الإسلامي في السودان أغلب تصوراتهم وفكرهم التنظيمي أخذ عن الشيوعيين، قاموا باستنساخ التجربة تقريباً وتمّ وضع لافتة أخرى لها، كما يفعلون عند شراء الدكانات، حيث يقوم المشتري الجديد باستبدال اللافتة فقط، لقد تحوّلت من لافتة حمراء إلى خضراء.. ورث الإسلاميون إرث

الشيوعيين وسطوتهم بعد أن شرّدهم النميري، وقاموا بميراثهم يطبقونه بحذافيره حتى في صناعة الانقلابات العسكرية"

٨

وسألته المذيعة:

"هل تكره ماركس؟"

لم يفكر في سبب هذه الأسئلة السمجة، من بعض المذيعين والمذيعات غير المخضرمين، وعليه أن يكون سياسياً حتى لو أنه مع نفسه لم يفكر ذات يوم في هذه المسألة: هل هو يكره أم يحب ماركس؟

"ليس هذا موضوعاً جدلياً محورياً"

قال للمذيعة يختصر المقابلة:

"يا أختي لا علاقة لاسم حركتنا المسلحة بماركس إلا في اللافتة، أتفهمين ذلك؟"

٩

انتهت المقابلة بألم نفسي، شعر به، لم يكن يريد أن يخوض في ذكريات عليه أن ينساها، تقلبات حياته المريرة التي لا يمكن أن تعود للوراء، وكيف أن ذلك الرجل الغريب الذي التقاه أعلى الجبال، تحت الغمام، كان يريده أن يخوض الثورة باسم ماركس، وعندما قاطعه بانفعال:

"لكن ماركس مات؟ الماركسية لم تعد قوة خارقة لها قيمة في عالم اليوم"

رد عليه الرجل، بغضب عنيف:

"أنت لا تقرأ الفكر بشكل جيّد، ولا تعرف أن الغربيين باتوا اليوم يعيدون قراءة ماركس لكي يعالجوا به المسائل المستعصية في حياتهم المعاصرة، أن ينقذوا أنفسهم من براثن الرأسمالية المحضة التي هددت الحياة وجنون التفاوت الطبقي الذي يكاد يهدد أوروبا بالتحديد"

سكت الرجل قليلاً، قبل أن ينطق بالكلام الذي جرح قلب حنيّن كثيراً، قال له:

"مشكلتك أنك أضعت سنوات من عمرك مع هؤلاء البلهاء فأنسوك كيف يمكن أن تفكر بشكل جيد، لهذا يتطلب دورك بعض من الوقت على ما يبدو لكي تكون جاهزاً.. سوف تسافر غدا يومين إلى نيروبي ومنها لأوروبا، وهناك سوف تتلقى اللازم"

ولما أن رأى الحزن والوجوم عليه، أخبره وهو يلاطفه ويمسح على رأسه:

"لا تحزن.. نحن نثق فيك ولولا ذلك لما كنت أهلاً من قِبلنا، لهذه المهمة العظيمة.. أنت ستقوم بعمل كبير.. الرب اختارك بنفسه لذلك، كلامي هذا مجرد مزحات على سبيل التذكير.. لا تأخذ كل الأمور بمحمل الجد"

١٠

كان ماركس الذي يسكنه قد فشل أو ضاع منذ أن وطأ أرض الأقداس الجديدة، وصار جندياً في محراب رب التشدد، الذي يعرَفهُ زمرة الإخوان الذين صار تبعاً لهم، والذين كانوا يسبّون ماركس في الليل والنهار..

عداواتهم مع الشيوعيين ليس لها من هوادة.

كل من يقف ضدهم..

كافر وشيوعي وماركسي.

حتى القادة الكبار منهم يقولون ذلك دون، أن يكونوا قد قرأوا ماركس أو فهموه، لا أحد منهم فتح كتاب "رأس المال" ذات يوم.

هم فقط كانوا مقلدين لممارسات الحزب الشيوعي وهي شيء مختلف عن الأفكار الجوهرية لنبيهم - ماركس. وظلوا يتندرون في الندوات العامة، يصرخون، أن ماركس فشل في أن يصنع شيئاً مفيداً في هذا الوجود، لقد ترك وراءه حزباً ديكتاتورياً في الاتحاد السوفيتي.

ثم يقف مجموعة من الشباب الذين يلبسون زي الجيش، الذين سوف يذهبون به إلى الحرب بعد نهاية الندوة؛ بوصفهم انتحاريين جاهزين للقاء الرب، يبدؤون في النشيد:

أمريكا روسيا قد دنا عذابها
عليّ أن لاقيتها ضرابها

ثم يعقبون ذلك بالقصيدة الشهيرة لعبد الله بن أبي رواحة:

يا ربّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام ان لاقينا
ان الذين قد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة أبينا

ثم أعقبونها بـ :

أقسمت يا نفس لتنزلنّه مالي أراك تكرهين الجنّة؟
يا نفس ألا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنّت فقد أعطيت، ان تفعلي فعلهما هديت

يستمر المحاضر وراء الأناشيد، في تدبيج المزيد من السباب لروسيا وأمريكا..

"إنهم ساقطون قريباً لا ريب في ذلك. لقد ظهرت البشائر وبدأت دولة الحق تقام على أرض السودان، فأبشروا يا أخوتي. فإما الدين وإما الدنيئة".

بالنسبة له فقد سقط ماركس. كما سقطت أشياء كثيرة. يمكن أن يحترم ماركس أو غيره. لكنه يحترم فكره الخاص فقط، ما يمكن أن يلهم به الآخرون وهم يسمعونه بكل تقدير واحترام.

لقد دخل التاريخ من أوسع أبوابه، أليس هو الآن حكاية تتناقل في العالم وفي الفضائيات؟

الكل يعرفونه كثائر مسلح، وعصامي، كرجل حارب النظام الذي كان جزءاً منه بعد أن رآه ضليلاً ويقود البلاد إلى الهاوية، هؤلاء الرفاق القدامى أو الأخوان الذين أصبحوا مجرد أشباح ليس إلا.

١١

في طرقات المهجر البعيد، قبل أن يعود للميدان وهو قد التقى زعماء غربيين ورؤساء منظمات دولية ونشطاء حقوق إنسان وممثلين في هوليوود، وقفوا مع قضيته، كان ينظر من بعيد للأمس، بكل ما فيه على أنه انطوى ويجب أن يبدأ زمن آخر.. ذلك لأن أفكار الإنسان تتغير مع مرور الزمن.

صحيح أنه قد يصل إلى نقطة يتوقف عندها جاهلاً للمساحة الفاصلة بين الفكر القديم والجديد في مسيرته، أين هو وأين كان!..

هذا يحدث للكل تقريباً، لكن ليس ضرورياً إذا كان ممكناً اجتيازه..

ولا يحدث ذلك الاجتياز إلا مع الثائرين الكبار، وحيث الأمر يشبه تلك الحدود الفاصلة الوهمية على الأرض التي تُقسِّم البلدان والبشر والقوميات ويسمونها عبطاً بالجغرافية..

فالأفكار في حياة كل إنسان هي بلدان تتداخل شعوبها وتضاريسها، لا نعرف متى دخلنا هنا وكيف خرجنا من هناك.

ينتهي إلى الفكرة الأخيرة، وأنه لهذا السبب فهو ليس حتمياً في معرفة حقيقة معتقداته ليس في الماضي فحسب، بل أيضا في الحاضر وربما المستقبل.

هل هي لعبة الحرب والسياسة حيث القانون يتغير مع المرحلة، وحيث المبادئ لها لبوس آخر؟ هذه المسائل التي كان يجهلها في الماضي.

إنها التجربة تصقل الكائن البشري..

لقد سار في طريق وجد فيه نفسه وعليه أن يُكمّله إلى اللحظة التي تقول له كفى شكراً.

عليه أن يمضي إلى نهاية الرحلة بكل ما فيها من قسوة وخوف أحياناً، خاصة أن النتائج قد لا تبدو واضحة رغم كل الاستعداد.

كان يعني بالتحديد المعركة المقبلة، وأن خصومه لن يتركوا له العاصمة لقمة سائغة؛ لكن عنصر المباغتة هو النقطة الأقوى التي يستند عليها، كما

يراهن على الناس المظلومين من عامة المواطنين الذين سوف يقفون بجواره جيشه وهو يدخل المدينة.

فكم تعذب هذا الشعب كثيراً وليس أبناء إقليمه فحسب!

كما أن حركته ذات طابع قومي..

هو ورجالاته يؤكدون ذلك في وسائل الإعلام..

"لا سبيل لأحد أن يناقض ذلك إلا لعنصرية بغيضة تسكنه، فالكل يعلمون تماما ما تفعله النخبة الحاكمة في الخرطوم كيف أنها ظلت هي المستفيدة، ترسل أبناء المهمشين إلى أماكن القتال كي يموتوا في حين يتربّح التجار في المدينة"

١٢

منذ عدة أشهر جرت التحضيرات بعد أن تم اتخاذ قرار اقتحام العاصمة في المؤتمر السنوي للحركة المسلحة، الذي عقد في الصحراء تحت أشجار السنط والتبلدي المشهورة باختزان الماء في فترة الجفاف، في تلك الأراضي التي أطلق عليها المتمردون البلدان المحررة، كناية عن نزعها من النظام.

كان قَطع مسافة تصل إلى ١٥٠٠ كيلومتراً يبدو مثل حلم مستحيل، لاسيما في مناطق منهكة من العطش والشمس الحارقة والجنون الذي تهبه الصحارى.

طوال قرون لم يعش أحد هنا في هذه البقاع، سوى رعاة متجولون، أو تجار يسافرون إلى مصر شمالاً، نخاسون في الغالب وتجار إبل، يسيرون عبر ما يُسمى بدرب الأربعين، الذي يقال إن اسمه يرجع إلى عدد الليالي التي يقطعها المشاة بالقوافل إلى حدود مصر، والتي تصل إلى أربعين ليلة.

تمّ تجهيز سيارات بلغ عددها أربعمائة سيارة دفع رباعي عنيدة وقوية كالرجال، تستطيع أن تقطع الرمال بسهولة حتى لو أنها تعثرت أحياناً، بحمولاتها الهائلة من المعدات وأغراض الجنود والأكل والشراب والماء.

المحك الأساسي هو الخبرة التي يتمتع بها السائقون من الجنود الذين تلقوا تدريبات مكثفة على ذلك، كذلك خبرات أخرى ضرورية للرحلة مثل التعامل مع جهاز الستالايت لتحديد المواقع، بالإضافة إلى أن المجموعة تضم من يفهمون في لغة النجوم ومواقعها في السماء وهي مهمة جداً في دروب الصحارى.

لاحقاً اتضح أن الخرطوم كانت تعرف بحركة المتمردين، فالجواسيس في كل مكان، لكنها ظنت أنهم في طريقهم لإقليم كردفان المجاور، أو فيما بعد إلى دنقلا في الشمال الأقصى.

استخدمت القوات الحكومية في بعض المرات طائرات الأنتنوف لضرب الرتل، دون جدوى، فالارتفاع شاهق جداً وحركة السيارات سريعة يصعب صيدها، كما أن أي انخفاض للطائرة لأسفل قليلاً سوف يُحوّلها إلى أشلاء متناثرة في الأرض، والجنود يعرّفون جيداً كيف يصطّادون هذا النوع من الطائرات في علوّ معين، والجيش يعلم ذلك تماما، فقد سبق له أن أكتوى به من قبل، حيث أُسقطت عدد من طائراته بأرض المعارك، في حين كان الإعلان الرسمي الذي يظهر في شاشات التلفزة المحلية أن عطلاً فنياً وراء سقوط الطائرة واستشهاد طاقمها.

١٣

كانت الخطة محبوكة بشكل جيّد، وظّف فيها القائد حنيّن خبراته المتراكمة في الحروب طوال السنين الماضية وقبلها في جنوب السودان، بالإضافة إلى الدورات التي تلقاها في أوروبا، لم يذهب من شيء هباءً.

"كل ما تتعلمه يأتي له الوقت المناسب كي تستفيد منه بشكل أو بآخر" ظلّ يؤمن بهذه القاعدة في الحياة.

يوم اتخذوا القرار، جمّع القادة الكبار الملقبين بالكوماندوات أو مُصدِّري الأوامر من "كماند" بالإنجليزية -أي أمر-وأخبرهم بالاستراتيجية العميقة -

كما أطلق عليها-لغزو العاصمة المثلثة، وفق اسمها في الماضي، نسبة إلى مدنها الثلاث، الخرطوم، الخرطوم بحري وأمدرمان.

خطب فيهم بأن النصر قادم..

"غير أن التوقعات مفتوحة، والمهم هو المغامرة في حد ذاتها؛ أي نبادر ونقتحم، كما فعل الرسول في معركة بدر وهو يرسل قومه لكي يهاجموا قوافل تجار قريش، لقد كان النصر"

"المبادرة هي الأساس في النجاح، لولم يحدث أنك بادرت فلا يحق لك أن تتحدث عن هزيمة أو نصر"

جرى كل فِعلٍ كما خُطط له، إلا خيانة واحدة حدثت من جانب القمر في السماء، فتأخير بعض الإجراءات اللوجستية عن موعدها أفقد الغزوة عدداً من الليالي المقمرة المطلوبة للسير، فالحركة تتم ليلاً والسكون نهاراً، تحاشياً للرصد وكذلك الاستفادة من برود الطقس، حيث النهار يكون ساخناً مرتفع درجة الحرارة في شهر مايو.

كان من المستحيلات أن تؤخر العملية لشهر قمري آخر، لأن هذا يعني كشف كل الخطة وتدمير القافلة. لهذا كان لزاماً المضي في العملية والإسراع في اقتحام المدينة، وترتب عن ذلك أن دخل الرتل العاصمة في أطراف النهار، بدلاً من أن يتم ذلك ليلاً ما أفقده الكثير من الحيطة، وربما كان واحداً من أسباب الفشل الرئيسية للغزو، وفق ما تمّ من تقييم لاحقاً من قبل القائد ورجالاته.

١٤

في الليلة قبل الأخيرة وفي الوقت الذي كان فيه الرتل على مقربة من الخرطوم حوالي ١٥٠ كيلومتراً، حلقت طائرات الجيش فوقهم مباشرة، حتى ظن حنيّن أنها النهاية.

أرسل تعليمات سريعة بالتحوط وربما الاستعداد لمعركة بين السماء والأرض قد تكون هي خاتمة المطاف. قائلاً:

"يجب أن نكون مستعدين لكل شيء. علينا أن نكون شجعاناً لمواجهة القدر الإلهي، الموت. لا إله إلا الله"

لم يحدث من شيء.

ومرت المباغتة.. فقد ظن قادة الطائرات من العلو الشاهق في الليل البهيم، وحيث غياب بدر السماء، أن هذه المجموعة الدائرية الشكل ما هي إلا تجمع لأحد معسكرات الرعاة الرحل في الصحراء.

التطور الأخير، أدى إلى إبدال سريع في الخطة بأن تمّ نقل عدد من الجنود في شاحنات كبيرة ماركة فورد تم استأجرها من مهربي البضائع في تلك المناطق، الذين هم مستعدون لفعل ما لا يخطر على البال مقابل المال.

امتطى الجنود ظهور الشاحنات تاركين السيارات الصغيرة في أماكنها، بهدف التمويه أن البدو الرحل باقين في موقعهم، وساروا باتجاه المدينة كما لو أن بضائع سوف توزع في الصباح، وإن كان الوقت قد تأخر إلى قريب من الظهيرة..

ثمة نجمة صغيرة في أفق السماء حجبها ضوء الشمس، كأنها تتحدث بأن الذين يخونون النجوم وهي قادرة على منح دروب الصحارى، سوف يخونهم القمر.

وكان حنيّن يعلم بأنه لو اعتمد على السير بالنجوم وهي خبرة أجداده، لكان أفضل رغم العتمة الشديد.

ثامناً:
المياه الضحلة وبطولات الجد رابـ

١

مهما حاول أن يبدو الإنسان متماسكاً فإن شروخه تظهر وتطفو، ولو أخفاها لعشرات السنين فسوف يأتي اليوم الذي يبقى فيه المنسي ظاهراً في السطح.

هل هذه حقيقتك أم حقيقة شخص آخر؟..

كان الرجل يكلّم نفسه وسط المجموعة التي جلست حول طاولة المفاوضات في العاصمة الكينية، نيروبي.

لم يكن من أحد يمثل وفد الحكومة فالذي يجري حتى الآن هي ما يسمى بعملية قياس النبض بين الطرفين، أن يجسّ كل طرف الآخر ويقدر على تقييم "مويته" كما يقال بالدارجة السودانية.

هل ماؤه ضحل أم مرتفع؟

كيف بالإمكان رؤية الشروخ التي أصبحت مرئية لكل طرف؟

إذ ليس ثمة ما يندس الآن، فقد بات العالم حقيقة واحدة واضحة كل بإمكانه أن يرى الآخر عارياً.

كان الرجل نفسه الذي قاد بدايات حرب التحرير مع جيش حنيّن فوق تلك الجبال ببلاد النوبة في جنوب كردفان، هو المكلف بقياس النبض.

"كيف اختلفت الأوضاع وكسب موقعاً قريباً من الحكومة بحيث صار مصدر ثقة يكلف بالمهام الأولية؟!"

ورد السؤال في ذهن "بركة الخير رابح"، الذي كان يجلسه مقابله، يُعدّد الشروط الممكنة وغير الممكنة.

كان في نواياه البعيدة، يرى أن الحكومة لا ترغب فيهم مثلما هم لا يرغبون فيها، وعليه أن يُحضّر نفسه بأسرع وقت للعودة إلى مُستقره في باريس أو النرويج حيث جاءته فرصة للإقامة المجانية هناك وتوفير كل الخدمات.

أغلقوا الملفات وذهب كل لحال سبيله.

خلال أيام اشتعلت المعارك مجدداً في عدة مناطق بالإقليم..

كسب جيش التحرير بقيادة "بركة الخير" العديد من المعارك بسهولة، مستغلاً الوضع المتضعضع لقوات الحكومة وانشطاراتها بعد تكوين الجيش الجديد الموالي للقوات الأمنية، حيث كانت معركتهم مع الجنجويد الحلفاء السابقين للحكومة بداية استفاد منها جيش بركة في تمديد سلطانه في مناطق جبلية استراتيجية تُشكّل مواردا للمياه، وإذا توفر الماء فإن بقية المهام تصبح أسهل بكثير.

٢

المعادلة البسيطة للحرب هنا، هي السلاح والماء والجيش.

في الأخيرة فالكثير من الأطفال يتمّ الزجّ بهم في المعارك بعض النظر عن أعمارهم ودون مراعاة للقوانين الدولية.

وقد حاول تقرير الأمم المتحدة التي راقبت الأوضاع أكثر من مرة أن يخرج برؤية عادلة عن هذا الموضوع، ولكن ظل دون حياد موضوعي، فقد واجهت فرق التحقيق الدولية، المتمردين بتجنيد الأطفال فردوا..

"إننا لا نستخدمهم في القتال، فقط نقدم لهم الحماية في مخيمات للنازحين تحت حمايتنا"

٣

عاد بركة الخير إلى باريس، ونسي موضوع النرويج، حيث لم يكتمل العرض الهشّ.

كان يعلم بأن حياته باتت صعبة وإمكانياته المادية تضاءلت في السنوات الأخيرة..

"فالداعمون لم يعد لهم وجود، والدول التي كانت تقدم المال يئست من تحقيق انتصارات كبيرة فرضخت في النهاية للعبة السياسة القذرة واكتفت بأن ترمي بثقلها لدى قوات اليوناميد التي هي الأخرى، باعت القضية مع الحكومة"

وهكذا استمر مسلسل الفوضى في الإقليم.

كتب بركة الخير هذه الأفكار في مقالة نشرها بصحيفة الحياة العربية الصادرة من لندن، أن...

"الوضع في دارفور صار في يد مجموعة من العصابات المتصارعة، والأكثر جنوناً هو من يحقق الانتصار النهائي، وما زلنا نحن في موقفنا المبدئي نريد السلام للناس وعودة النازحين إلى ديارهم، كما لابد من محاكمة عادلة عبر المحاكم الدولية للمتسببين في مقتل أكثر من ربع مليون شخص في الإقليم. لن ننسى الضحايا من الأقارب والأطفال والنساء الذين راحوا ضحية العنف الحكومي المُنظّم، بطابعه العرقي، والتفرقة التي اشتغلوا عليها بشتى السبل.. رأينا مؤخراً مزيداً من الفوضى بعد صراع الحكوميين مع بعضهم، هذا إيجابي طبعا غير أن الضحية أيضا هم المواطنون الذين هم

وقود الحرب، فجبال الذهب التي تشكل مصرع صراع جلي الآن، يُستغل فيها أبناء الإقليم كمسترقين يعملون لساعات طويلة ويتعرضون للمواد الزئبقية السامة التي تقضي عليهم، في حين أن المستفيد هم الزعماء المجرمين".

٤

استمر بركة في برنامجه المعتاد، مقابلات تلفزيونية، مقالات صحفية، لقاءات مع زعماء أحزاب سودانية خاسرة يأتون للمنفى في باريس أو لندن، يتكلمون عن مستقبل البلاد المسدود وعن الاقتصاد المتردي والمشاحنات والصراع بين أجهزة الأمن والجيش، وأن الخدمة المدنية انهارت إلى الأبد وأنه ليس من أمل للإصلاح الإداري وأن قيم المجتمع وصلت إلى الحضيض، فالكل تقريبا صار لصوصاً وحرامية طرق، الكل يسرق أو يختبر السرقة، القاموس اللفظي تردي، ارتفعت معدلات جرائم القتل ليس في دارفور بل كل البلاد، موت بالمجاني، اغتصاب للأطفال والنساء، زيادة نسبة مستخدمي المخدرات والبنقو، التضييق على الحريات وصل حدوداً لا تطاق، الصحف تصادر يومياً، الجنون صار هو السمة المميزة للشعب السوداني، حبوب الهلوسة تباع في الصيدليات وبأبخس الأثمان، ربما كانت الحاجة الوحيدة التي عليك أن تجربها دون أن تدفع مقابلها مالاً لتعيش سعادة وهمية على أنك البطل المفرد وأنت لا تملك قوت يومك.

٥

ذات نهار تشاوّر حول تقرير مصير الإقليم بحق الاستفتاء كما حدث مع جنوب السودان، كان ذلك في لقاء مع عدد من رجالات القبائل الذين وفدوا إلى تشاد، حيث تقابلوا في منطقة حدودية هناك، دون علم السلطات.

وصل بركة بطائرة فرنسية في مهمة جعلته يشك في الأمر أن الفرنسيين بعد أن نسوه بدأوا يهتمون به، وهذا يعني أن ثمة مصلحة ما، طلب ما كبير.

عليه كما تعود أن يمضي في اللعبة إلى النهاية، ولم ينس أن يطلب منهم مجموعة من الأشياء أبرزها تسليح كتائبه الرابضة عند جبل مون بغرب دارفور، وأنه لن يسافر إلى هناك ما لم يتم تسليم كل شيء.

تمّ ذلك بأسرع من المتوقع، واستطاع الثوّار أن يتقدموا باتجاه معسكر لجيش الحكومة الرسمي على بعد ثمانين كيلومتراً، استطاعوا أن يبيدوه تماما بمن فيه.

الإحصائية الرسمية في التلفزيون السوداني أعلنت عن مقتل عشرين جندياً وثلاثة من ضباط الصف، غير أن الرقم الحقيقي كان المئات.

وقد صرّح الناطق العسكري باسم "حركة بركة" لراديو دبنقا المعارض، أن قوات حركتهم دمرت المعسكر بالكامل واستولت على عشر عربات لاندكروزر محملة بالمدافع والرشاشات مع عدد كبير من المؤن والذخائر، وبيّن أن الهجوم تمّ في الساعة الرابعة والنصف ظهراً وليس في منتصف الليل كما أُشيع أو أن الظلام حال دون التكافؤ بين الطرفين، ولم ينس الإشارة إلى أنهم فقدوا اثنين، استشهدوا في العملية، من قوات الحركة.

٦

عاد إلى باريس ليعلن في بيان رسمي عن رغبة الحركة في تقرير مصير إقليم دارفور، ارسل الرسائل إلى الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي في بروكسل وكل المفوضيات المعنية بهذه الأمر، بما في ذلك الاتحاد الأفريقي الذي كان له يقين بأنه يميل لطرف الحكومة، خاصة بعد تدخل رئيس جنوب أفريقيا السابق ثامبو أمبيكي كوسيط من القارة في قضايا السودان، الذي كان بركة يراه على أنه مجرد منتفع ومرتش يمرر أجندة الحكومة في سبيل أن يستفيد هو شخصياً.

"فأفريقيا معقل الرشاوي والفساد أينما ذهبت، خذ أي قائد أو زعيم أو مدير وأدفع له المبلغ المحدد وسوف يقوم بالواجب، المطلوب منه بالضبط"

ومضت أيام لم يرد من أحد..

الأمم المتحدة كانت قد بدأت في تجاهل الرسائل التي تصلها من المسلحين المتمردين، بل دعمت أناساً من الإقليم لا يعرف لهم أي تاريخ مسجل في النضال، قاموا بالترتيب لهم وزجّوا بهم في مفاوضات سريعة مع الحكومة، بعد فشل التفاوض مع حنيّن وحركته عقب الغزوة الخاسرة للخرطوم، ومن ثم عملية "جسّ النبض" بنيروبي مع بركة.

قدمت الأمم المتحدة المجموعة الجديدة على أنهم البديل الإنساني والتكنوقراطي لحكم الإقليم ورسم خرائط السلام، استأجرت لهم الفنادق خمسة نجوم في مدن المفاوضات ووفرت لهم زجاجات العرق وحفلات الليل، ولم يبخل الوسطاء بالدولار وكل ما يلمع، لتمرير السلام المستصنع.

لم تمض سوى أيام قليلة إلا وتربعوا في كراسي الحكم بالخرطوم، يجلسون في الصفوف الأولى من البرلمان واحتفالات القصر وأهازيج الانتصارات المزعومة للجيش في جبال النوبة أرض المعركة الجديدة؛ ويقودون الحشود في طواف الرئيس وأركانه في ربوع دارفور، في المناطق التي أعلنوا تحريرها من المتمردين.

هذا كله، لم يُنهِ الأزمة ولم ينشر الأمن.

ظل السطو مستمراً والقتل المجاني..

والنازحون لم يعودوا لديارهم لأنه لا استقرار ملموس.

وبدا بركة الخير، يشعر بفقدان الأمل..

"فالمجتمع الدولي اليوم بات يعمل وفق مصالحه، بل كل العالم هو على هذا السياق، لا أحد يحب أحداً، الكلّ يكرهك، إلاّ أن يجد له ملجأ فيك، مصلحة معينة يمررها"

في هذا الليل الباريسي كان وحيداً، شرب كثيراً حتى الثمالة وما بعدها. ورأى سنوات متفرقة من عمره كأنها ضاعت هباءً ولم يتحقق من هدف، وحيث كان يعتقد أن مجرد وقت وجيز كافٍ بأن يستولى على كل الإقليم ويصبح الرجل الأول؛ سوف يعود ذات يوم عبر مطار الفاشر وسوف يستقبله الملايين هناك مثلما استقبلوا الخميني وهو عائد من باريس نفسها يرسم ثورته

الإسلامية في الجمهورية الإيرانية سنة ١٩٧٩، الاختلاف أن الأول إسلامي وهو علماني لا يؤمن بالشريعة ولا القوانين السماوية؛ يريد لقانون الأرض أن يُنفّذ.

لكن هل وثق في شرائع الأرض؟

فهاهم مشروعو الأرض يصبحون مجرمين وقتلة!

فالأمم المتحدة وأذيالها يشعلون النار من بلد لآخر.

حتى إسرائيل التي كان يرى فيها عوناً له مرات، كانت قد التفتت بعيداً عنه، تبحث عن قائد جديد يمكن أن يحقق لها مصالحها في الإقليم.

لم يعد هو الورقة الرابحة..

"والحكومة نفسها باتت تلاعب وتلاطف تل أبيب إنها ترغب في السلام والتطبيع، ما هذه المهزلة؟"

قالها بصوت مرتفع وقذف بالزجاجة وما تبقى فيها من عرق، على الحائط أمامه حيث ارتدت متشظّية لأكثر من جزء، وتدفق السائل على البلاط.

تراجع سريعاً وراء الطاولة التي يجلس أمامها، يكتب أشياءً على الكمبيوتر المحمول، لا يعرف ماذا كان تكون وسط غمرة سكرته.

كانت الشظية الكبيرة من الزجاج، قد عبرت فوق جمجمته بقليل لتسقط من عند النافذة المفتوحة على الفراغ، ربما أصابت عابراً في الشارع أسفل البناية، وربما لا يوجد أحد في هذه الوقت المتأخر من الليل يعبر بالمكان، في حي شبه منسي من المدينة.

٧

نام ولم يستيقظ إلا في وقت متأخر من نهار جديد على خبر أحزنه كثيراً، رغم أنه لا يتفق مع الضحية في كل الأهداف، عدا حمل السلاح وقتال نظام الخرطوم العنصري..

لقد قتلوا حنيّن!

اغتالوه في عملية تبدو غامضة.

نقلت الأنباء أن رتله العسكري الذي شِيّع أنه يتحرك مجدداً باتجاه الخرطوم قد غيّر المسار إلى الجنوب، ومن ثم جاء الخبر المؤلم، تمّ ضربه ورجالاته بالطائرات وقضوا عليهم، وهم الآن في التلفزيونات المحلية يحتفلون بهذه المناسبة بالتزامن مع أعياد ميلاد المسيح.

وشاهد بركة الناطق الرسمي يخرج في فضائية الشروق السودانية، ليعلن متبجحاً..

"أن واحدة من أكبر العمليات قد تمت اليوم وأن زعيم التمرد الدارفوري قد تمّ القضاء عليه، وعدد من أعوانه وعلى رأسهم الكوماندو رحمة عبد الله".

فكّر بركة الخير أن ذلك سوف يزيد الطين بلة، فالأحوال سوف تتعقد مع هذه الحادثة، هذا سيحقق المزيد من المكاسب للحكومة وسوف يعمل على توحيد جيوشها المتناثرة، وسوف يجعل الدم يرتفع من جديد في الإقليم ليعلو الرُكب.

ماذا ستكون خطته القادمة والداعمين لا يستجيبون؟!

قرر أن يسافر إلى تل أبيب علَ أملاً جديداً يبزغ وراء الأفق، لقد كانت ثمة وعود في الماضي يأمل أن تتحقق، رغم علمه بأنه ربما لم يعد الورقة الرابحة.

٨

في تل أبيب، هناك.. التقى الجنرال "يائير يعقوب" المكلف بملف دارفور.

كان الرجل قد قدّم استقالته قبل يومين من وصول بركة، وتبقت له أيام يُسلِّم خلالها الملف لخَلَفه إن وجد.

لم يكن قد وضع أي اعتبار لبركة ليخبره أنه سوف يُقدِّم على هذه الخطوة عندما هاتفه من باريس وأنه قادم إليهم.

رد عليه وقتها ولكن ببرود:

"إسرائيل ترحب بالأصدقاء في أي وقت.. أنت ضيف عزيز"

جلسا لساعة واحدة فهم خلالها القائد الثائر، بالتفصيل، أن الإسرائيليين ليسوا على الاستعداد التام كما في الأمس القريب للمضي باللعب إلى ما لانهاية، فهناك قضايا أخرى في المنطقة أكثر إلحاحاً تنتظرهم وتهدد أمنهم الداخلي، ولا يمكن أن يبددوا أموالهم في الفراغ.

قال له يائير:

"إن أقصى ما يمكن أن نقدمه لك إن رغبت.. أن تأخذ منا شقة مؤثثة تقيم فيها ونتكفل بتوفير ثمة معيشتك واثنين من عائلتك في حيفا".

وجد أن العرض مستفز.

كيف تخلوا عنه بهذه السهولة؟

وهل بات الموضوع برمته لم يعد يهمهم؟

هم يعلنون له ذلك بوضوح، عبر الرجل الذي كان في الماضي متحمساً لتقديم ما لا حصر له من المساعدات والأفكار.

شعر بأن الأفق ينسد والأحلام تتضاءل، ولكن هذا لا يعني بالنسبة له فقدان الأمل.

٩

في الليل قابل مجموعة من الشباب السودانيين اللاجئين في تل أبيب وأغلبهم من دارفور، حكوا له عن طموحاتهم، وكيف أن الجيش الإسرائيلي ساعدهم في العبور إلى بلدهم من مصر، ولم يقتلهم بالرصاص كما يفعل حرس الحدود المصري..

"لكن ذلك لا يعني أن الحياة جيدة هنا، فالمشاكل تتناسل، هناك قلق بشأن المستقبل وعنصرية تحاصرنا بعض الأحيان من متطرفين.."

"التهميش موجود في كل مكان، ليست إسرائيل بالجنة الموعودة سيدي" قالها أحد الشباب.

كانوا يجلسون في غرفة ضيقة مليئة برائحة الدخان والخمور..
"لا شيء يقتل الفراغ هنا سوى أن تعيش مُغيّباً عن العالم"
قالها أحدهم..

من النافذة باتجاه ميدان عام شاهد بركة بنفسه في الليل، أحد الشباب من بلده وهو يحمل زجاجة عرق يترنح بها غير حافل بنفسه ولا أحلامه وهو يترنم بأغاني الضياع؛ إنه واحد من أولئك الذين كانوا معه في السهرة قبل أن يبارحوا الفندق، وهم يتركونه على موسيقى كردفان وإيقاع المردوم، حيث كان ينبعث صوت المغنية الإسرائيلية إميليا كاسترو، بأنوثتها الطاغية من مسجل عتيق:

القمر بيضوى وانا شن بلانى بي النجوم
غنوا يا سلام سعادة لينا تدوم
ام زومة يا ناس كية للما بيها
ام زومة خضار كل الضفاف واديها
ام جبيناً بيضوى انا شوقي ليك حزين
زولي البريدو الليلة قيّل وين
عشان ام زومة باسافر الاتنين
عشان ام زوم انا باسكن الخرطوم

١٠

مع كلمات الأغنية والإيقاع، لم يكن لبركة الخير غير الغوص بعيداً في ذكريات الأمس، تاريخ لم يعشه لكنه سمع عنه وقرأه في الكتب، رغم أن مجلدات التاريخ السوداني تروي ذلك عن استيحاء.

"كأنه لا يُشرّف أهل السودان ولا يحق للأجيال أن تتعلمه في المدارس"

تاريخ جده الكبير "رابح الزبير" أو "رابح فضل الله" الذي نجح في تأسيس مملكة قوية في تشاد واستطاع أن يقاوم جيوش الغزاة الفرنسيين،

ورغم أنه ولد في حلفاية الملوك شمال الخرطوم بحري، إلاّ أن قدره ساقه لغرب السودان، حيث عمل مع جيش الزبير باشا في عام ١٨٧١م.

كان والده مقاتلاً ورث عنه حُبّ الجندية؛ اشتغل مع جيش الخديوي إسماعيل الحاكم التركي.

أخلص رابح للزبير وابنه سليمان، ولما هُزِم الأخير على يد الإنجليز أخذ "رابح الكبير" - جد بركة - بعض من أتباعه وفرّ بهم غرباً ليبني عالماً جديداً.

كأن إيقاع الزمن هو، ولكن ليس للإنسان أن يكون ابن التاريخ فحسب، لأن الحاضر له موضوعه الذي يجب الالتزام به.

كان بركة الخير يفكّر بهذا الشكل وهو شبه مدوّخ بالخمرة والعذابات، يريد أن يفارق جسده إلى أي مكان آخر في هذا العالم.

بين الأضغاث والصحو والمنام يرى جده رابح، يصول ويجول ويقتل الأعداء بكل شجاعة. كيف أن الرقيق والعبيد صاروا ملوكاً، وكيف أنه انتصر للسوء الذي سكن هذه الأرض لقرون طويلة، واستطاع أن يقتل أعظم قادة الفرنسيين السيد "بول كرامبل" في سنة ١٨٩٠م ليبني مجده الخاص.

فأين مجدك يا رابح الجديد؟

لقد مات جدك شهيداً لم يستسلم، كان بطل الميدان وأنت بطل الأحزان والمنافي!

هاهو رابح يقتل القائد الفرنسي الكافر لامي، كذلك، في معركة كوسيري، برصاصة تخترق صدره.

عندما رأى الفرنسيون رأس رابح لم يصدقوا، أن هذا الرجل الذي أتعبهم طوال عقدين من الزمان في حروب مدوخة.

كيف استطاع أن يفعل ذلك وخارج بلده، حتى أصبح أسطورة في كل المنطقة برمتها وليس في دارفور أو تشاد فحسب؟!

ومثلما أطلق الإنجليز اسم غردون الذي قتله رجال المهدي بعد فتح الخرطوم ١٨٨٥م، على كبرى جامعات البلاد، فقد أطلق الفرنسيون اسم

لامي على عاصمة تشاد لتصبح "فورت لامي"، في حين ظلّ اسمها الآخر الأقوى "أنجمّينا" الذي أطلقه رابح وقومه، خالداً إلى اليوم، والتي تعني "لقد استجممنا" أي استرحنا هنا وتم لنا الاستقرار.

كان ذلك على ضفاف نهر شاري العجيب.

١١

استغرق تلك الليلة إلى الصباح، يُدوّن في ذهنه دون حاجة لورقة، أطيافاً من حياته..

المرة الأولى التي جاء فيها هنا، إلى تل أبيب..

عشقه اللامتناهي لتشاد وبحيرة شاري..

ذكرى جده الذي يحلم بأن يكون واحداً من جنوده الأشاوس..

هل يعيد التاريخ نفسه فيدخل بجيوشه الخرطوم فاتحاً؟!

لكن حنيّن فعلها وهُزِم، رغم أنه أقلق مضاجع الحكوميين..

في ذلك اليوم الذي دخلت فيه قواته العاصمة، كانت الطائرات في المطار تنقل المسؤولين إلى دبي وخارج البلاد، بحثاً عن ملاذات جديدة آمنة، وكلٌ منهم يحتضن حقيبته المعبأة بالذهب والدولارات؛ ربما في انتظار رصاصة الرحمة حتى لو جاءت عجولة.

قيل إن طائرة الرئيس كانت على أهبة الطيران على بعد مئات الأميال من العاصمة في مدينة كوستي، إلى حين أنجلى الوضع وطلبوا منه العودة.

مات خلق كثيرون تم السكوت عنهم..

مورست مجازر بحق المدنيين الأبرياء من أبناء دارفور..

كل من حمل سحنة الإقليم الغربي قاموا بسحله على أنه مشارك في الغزوة يتدثر مُندّساً بثياب مدنية؛ الجلباب أو العراقي؛ ليخفي هويته..

لم يتركوا لهم فرصة لكي يروا قصصهم ومآسيهم.

ككثير من مجازر هذه البلاد وحكايات الموت المجانية فيها، فقد انتهت الحكاية بصمت.

١٢

أخيراً استسلم لنوم عميق، كأنه قرن. مع تضاريس عام ميلادي جديد، يحلم فيه بأن تتغير الأوضاع.

غداً سوف يسافر إلى باريس، وبعدها واشنطن، محاضراً في معهد دبلوماسي هناك حول القضية، سوف يلوم الأمريكيين أنهم باعوا السودان، وسوف يوّجه لهم أسئلة مباشرة، أين أوباما ووعده؟ ألم يزر الإقليم في أيام الأسى العميق، ثم نسي بمجرد أن أصبح رئيس أمريكا؟

هل استجاب للضغوط، ولكن من يضغط لأجل من؟..

وتعمّق في صورة ما يحدث في السودان، ليعثر عليه.

فهم الصورة بسهولة..

بلد يضم أكبر سفارة لأمريكا في القارة الأفريقية، بحجم غابة كبيرة وبعد ذلك هو البلد الأول المحاصر اقتصادياً من قبل أمريكا نفسها!

كيف يمكن فهم ذلك؟

كيف يمكن استيعاب أن هناك مطار خاص داخل مبنى السفارة الأمريكية الضخم؟

فسّر المشهد بعبارة واحدة..

"عالم قذر ترسمه المصالح الفاسدة"

وبصق على البلاط دون اعتبار لنظافته أو اتساخه..

فالوسخ يسكن في قلوب الآدميين، الكل يلبس غير لباسه..

تلك هي الصورة التي رآها منذ أن كان يتسكع في شوارع الخرطوم دون قدرة على إقناع أحد أنه حفيد السلاطين.

مضت السنين ليجد نفسه محشوراً في الغابة، يقاتل مع أناس لا يعرف عنهم سوى أنهم يحملون سحنته فحسب، تركوه وأخوته وصنعوا وطناً لحالهم، وكان عليه أن يمضي في قضيته أن يصبح رابح الآخر، يحرر البلد

من كهنوت جديد، فالغزاة يأتون بأكثر من شكل وصورة، وقد يكونون ممن يسمون أنفسهم أبناء هذه البلاد.

١٣

يرى نفسه قبل دخول الليل أو مغيب الشمس بقليل، وهو يتمشى في منطقة جبلية، حيث الشفق الأحمر يرسم لوحات يمكن أن يلمح فيها الإنسان ما شاء من المشاهد التي يُصوّرها ذهنه، يعتمد ذلك على خياله.

من تحته، كانت الأرض خضراء معشوشبة، وهناك من يكلمه من رفاقه بأن المعركة الفاصلة قادمة..

"غدا سوف ننتصر يا بركة الخير"

إلى ذلك اليوم لم يكن قد أخبر ذلك الرفيق، بأنه حفيد الرجل الشجاع الذي أقلق الفرنسيين.

السبب؛ لأنه لن يصدقه..

الناس في العادة لا تصدق ولا ترغب في تصديق الأمجاد التاريخية، تريد أن تراك بطلاً في معارك اليوم.

وجد نفسه يخبره؛ بوصفه أكثر الناس المقربين له، وكانت ردة الفعل مؤسفة جداً..

"إنه الحقد البشري، يحسدونك حتى على تاريخ لم تعد تمسك به"

بالنسبة له، كان ذلك إيجابياً جداً، حفزّه لكي ينهض بقوة، يضرب على الأرض، وهو يصرخ:

"سأكون. سأكون"

أخذ البندقية صوبّها نحو رأس رفيقه الذي لم يستطع أن يقاومه، قال له: "مت أيها المنافق.. مستر لامي"

شعر بكراهية فائقة باتجاه شبه الجثة المرمية أمامه.. إن هؤلاء الملونين الذين لا هم بيض ولا هم سود، لا هم عرب ولا هم زنوج، أخطر الناس، إنهم زناة التاريخ والزيف الذي يجب التخلص منه ومنهم.

نظر إليه وهو يشخر يلفظ أنفاسه الأخيرة، قبل أن يركله بحذائه الضخم، ويدوس عليه ويمضي. منذ ذلك اليوم فهم أن الحرب ليست ألعوبة، وأن القضية لا توصف فقط عبر المحاضرات والدورات التدريبية التي يقيمها لهم الأوروبيون في نيروبي وجوهانسبرج، بل عبر التجريب الحي.. أن تقتل، وأن تتدرب بشكل مستمر على أن تنزع الضمير. أن تتعرى أمام ذاتك.

١٤

وهو يتذكر ذلك اليوم بين اليقظة والنوم..أحس بألم كبير على أنه قتل صديقه في تلك الأيام الأولى من لعنته المستمرة.

كيف له أن يحرر وطناً وهو الذي لم يحرر صديقه من غله؟

لماذا لم يعكف على مداواته ويغسل له روحه بدلاً من تخليصه نهائياً من

تاسعاً:
المعنى أثناء الرحلة

١

مضت السنوات سريعة، ومعها كانت المدن والذكريات والسنين نفسها تصبح أحوالاً متخيلة أكثر من كونها حقائق، ربما هي الحياة برمتها على هذه الشاكلة، هي تلك الظنون الغريبة والعابرة التي يصعب الإمساك بها أو إخضاعها لقانون المنطق.

عندما جلس مع القائد في الميدان لأول مرة، سمع العبارة التي جعلته يهتدي إلى نصف الطريق..

"مرات بل غالباً فإننا نختار الدرب، ثم نقرر لاحقاً المبررات أو الأهداف، فالحياة ليست خيارات مسبقة بإصرار قوي على أن لكل شيء معناه منذ البداية، فالمعنى يتضح أثناء الرحلة، بل أن الطريق نفسه هو المعنى"..

رأى أمامه فيلسوفاً، يعرف كيف يُشرّح الحياة ببساطة، يفلسف فعل الثورة ويجعل من قضايا التهميش وغيرها مرتكزات ساذجة، فثمة ما هو أعمق من ذلك.

"إن الإنسان يكتشف روحه من خلال قضية وإصرار وأمل، وهذا الاكتشاف يتعلق بشيء غامض اسمه التراب والأجداد والهوية، إذا استطعت أن تربط بين هذه المعاني والمفردات بقاموس شخصي واضح وعملي سوف تضع؛ أين تكون أنت، ولن تصبح أي إنسان آخر، بقية الخيوط مثل الدين أو القيم أو التاريخ المتوارث ليست إلا تنويعات على القضية نفسها، على الهدف"

٢

كان رفاقه ينادونه الكوماندو رحمة..

الأصوات تتعالى من حوله..

يصدر الأوامر..

صار بارعاً في إطلاق الرصاصات السريعة من الرشاش، كأنه ليس هو.

إنسان آخر غير الذي كان يعرفه في الماضي القريب.

يسيران معا هو والقائد الذي يفضل أن يسمّيه باسمه المحبب له (حنيّن) ومرات يناديه باسم "هلال"، حيث لا فرق غير منطوق الكلام بلغتهم.

يحكي له حنيّن عن تفاصيل لا يمكن أن يُسمِّعها شخص ثانٍ سواه، فقد كان يثق فيه كثيراً ويراه الرجل الثاني في خريطة المستقبل.

أرسله بديلاً عنه أو ممثلاً له، إلى العديد من المؤتمرات الخارجية يشارك باسمه؛ في لندن وبرلين وباريس وغيرها من عواصم أوروبا، وهم يُسوّقون للحركة التي سوف تصنع التحرر للإقليم ومن ثم باقي البلاد.

"لقد توسعت الفكرة لم يعد الأمل مختصراً على معنى جغرافي، أصبح معنى إنسانياً لأن قضايا التهميش والعزلة الإنسانية والاستعباد هي مسائل عامة ليست لها قوانين خاصة تعزلها في جغرافية بعينها"

مع القائد فهم ذلك بعمق، تشبع بفلسفته وحكمته في هذه المسائل، وأن "الكتاب الأسود" ليس إلا استعارة للظلم..

"السواد هنا ليس مقصوداً لحاله، ولا يعني سواد البشرة، إنما يقصد به ذلك العمى، غياب البصيرة، الذي يمنع الناس أن ترى مستقبلها، يعني أن تشعر بأنك غير قادر على الفعل والتغيير والانطلاق، بأن تفكّر في حياتك بشكل جديد، وتبدأ في اختراع التاريخ البديل الذي يُقرّبك من معناك الذي لم تشعر به في الماضي".

٣

قرر أنه سوف يكتب ذات يوم عن كل ذلك، عن فلسفة القائد، وكيف أنه ليس نادماً على تاريخه ومسيرته في السنوات التي خلت.

لقد خاض تجاربَ عديدة وشارك في النظام والآن يحاربه.

هناك من ينظرون إليه على أنه كان يبحث عن مصلحة شخصية لهذا عندما لم يجدها قرر أن يتمرد..

هكذا يمكن اختصار الفكرة عند بعضهم.

"غير أن الواقع غير ذلك، أن تجربة الإنسان لا تفهم بهذا الاختصار المخل، الحياة أكثر تعقيداً من تقسيمها لضد أو مع، لي أو لك"

من يفهم؟

الوضع نفسه ينطبق عليه وليس على القائد فحسب، وعبارته الأخيرة عن الواقع والتعقيد والمعركة.

سأل روحه وهو يتنفس في ذلك الصباح عندما أُطلق سراحه وسط رفاقه من المحكوم عليهم بالإعدام، وهم يغادرون بوابة سجن كوبر أمام شارع اكتظ بالبشر القادمين للتهنئة أو الشماتة..

ليس من فرق!!

هل كانت تلك السنوات ليس إلا حلماً أو كابوساً والآن سوف يجني الحصاد بأن يصبح وزيراً عمّا قريب؟!

ثم أقنع نفسه؛ أن ذلك الشيطان الذي يُسكن الجزء المظلم من الإنسان هو الذي يوحي بهذه الأفكار الشريرة.

قال ذلك لنفسه، لأنه يعلم أنه لم يكن ذات يوم يفكّر في سلطة أو جاه، فما يشغله هو التحرر الذاتي..

تلك الكلمة التي يحتاج إلى قاموس معقد جداً ليفككها ويشرحها..

إنها البحث عن ما وراء كل المظاهر والوقائع المشاهدة لوجود الإنسان وأفعاله، عن ذلك المعنى الخفي والمستتر، الذي يسمى بسر الحياة.

٤

بحث عن شخص يعرفه وسط الجموع المحتشدة، كانت هناك هتافات ترتفع باسمه، بعضها كفيل بأن يزج به إلى السجن مجدداً..

ما هذه الورطة؟

وقف وهو يحمل ملفه الورقي، الذي سجّل فيه ذكرياته وخواطره، يشكر الله أنهم لم يصادروه منه..

وبدأ يلقي خطبة انفعالية لم يرتب لها.

أخبر الجموع من أبناء جلدته الذين حضروا هذا اليوم التاريخي - كما اسماه -:

"إن السلام قادم وإن المفاوضات في طريقها إلى النهاية خلال ساعات"

وقال لنفسه سراً:

هل كان يكذّب عليهم أم يقول الحقيقة؟

قد تكون لديه معلومات، لكنها ليست كافية أو دقيقة لتمنحه الجرأة بأن يُصرّح بذلك.

كالعادة، الصحفيون يأخذون ذلك بمحمل الجد، يبحثون عمّا يمكن أن يُسوّدون به الصحف الكالحة المصفّرة، التي خرجت بالفعل في الصباح التالي بمانشيتات عرضية باللون الأحمر أعلى الصفحات الأولى..

الكوماندو رحمة حراً ويعد بسلام ومشاركة في التعمير..

نائب قائد الحركة المسلحة في دارفور يعلن التوصل لاتفاق سلام..

وغيرها من العناوين.

٥

كالعادة خضع كل ذلك لغربلة الأجهزة الأمنية، فما من جريدة إلا وبها ضابط من جهاز المخابرات الوطني يقوم بدوره المناط بوصفه رئيس التحرير الحقيقي..

يشطب ويعدّل..

يرمي بالمواد في سلة المهملات..

يقرر "ممنوع من النشر".

لا أحد يعترض، أو يقول لا..

على الصحف أن تصدر والصحفيون صاروا كتبة عرائض؛ قياسها ما تطلبه السلطة ورجال الأمن، دون أن يقف طالب العريضة ليعلن عن شكواه أو يبكي ألمه.

ومن جهة أخرى فإن مُلاك الصحف هم شياطين همّها:
الثراء والمال..
يدفعون أبخس الرواتب للصحفيين ويحتقرونهم..
في الوقت ذاته يكنزون الأرباح..
يدّعون أن سوق الجرائد كاسد ولا تربح.
ملاك الصحف هم ضباط الأمن أنفسهم.

٦

وسط الجموع، استطاع أن يرى حليمة، ومعها رحاب، خلال ثلاث سنوات، كبرت الطفلة صارت صبية يانعة مثل وردة برية بلونها الممتزج بالبياض، وهي تقترب من عامها الثامن.
لونها الذي يحكي عن قصتها..
عن مأساة الاغتصاب التي تعرضت لها أمها.
عن الخديعة والاقتراب من الموت.
عن فسيفاء هذه البلاد، القائمة على العنف أبد التاريخ.
رحلات العبيد القديمة، القتل والسطوة والاغتيال..
الجراح ودروب الألم؛ بلا نهاية.
أن هذه الأرض هي أسود وأبيض.
خلاصتها في تمازج اللونين.
ابتسمت له وهي تناديه، من بعيد:
"خالي. خالي"
أسرع لاحتضانها..
تحدرت دمعة كبيرة من مقلته اليمنى..
كانت اليسرى قد تعطلت منذ السنة الأولى في الحرب، كأنه قد اكتشف للتوّ أنه بعين واحدة.

فقدها منذ تلك الأيام عندما اخترقت شظية طائشة العين وحوّلتها لمغارة، ومن يومها صار يلبس النظارة السوداء؛ يندر أن يخلعها، حدث ذلك في البدايات، في معركة مطار الفاشر الشهيرة في أبريل ٢٠٠٣م، وقتها لم يكن قد وصل لموقع نائب القائد، كان ثوّرياً فحسب، مجرد رجل يتبع الحركة، جاء ليؤازر القضية.

هجموا على الطائرات الرابضة في المطار مع حلول الفجر.

استبسلوا مع قائدهم الكوماندو "عبدالكريم تشولّوي" الذي أصيب في تلك العملية وهو يراهن على المباغتة وزعزعة النظام، وظل يوّجه جنوده إلى أن أُغمي عليه، ليتبرع "رحمة" طواعية، بنفسه، ويستلم الموقع، ويصبح بطلاً.

كان عملاً مدوياً ومباغتاً أربك حسابات الحكومة وجعل من اسم دارفور يسطع في كل الدنيا ولكن مع الأسى، قبلها لم يكن بذلك الوضوح.

منذ ذلك اليوم تدفقت الجموع من كل حدب وصوب من بقاع العالم إلى الإقليم المنكوب، الذي سوف يصبح مسرحاً للتجريب والفوضى، الفقر والثراء، والضحية هم الناس البسطاء الذين هم رحى هذه الحرب.

فكّر بكل ذلك في لمحة سريعة، وهو يحمل رحاب يرفعها لأعلى يُقدَّمها على أنها واحدة من الضحايا، دون أن يخبرهم أن والدها مجهول، لا يعرف من يكون بالضبط من بين أولئك الرجال الذين تناوبوا على اغتصاب حليمة في ذلك الفجر الدموي، الذي يبدو لها إلى اللحظة، مثل يوم لا وجود له في عالم آخر؛ لم يخلق بعد.

٧

أخذتهم سيارة تابعة لأحد أجهزة الحكومة التي لا حصر لها، لم تكن تحمل أي لوحة تدل على هويتها ولا رقم.

"هذا مباح ومتاح للسلطة، أليس هم السادة؟!"

قال رحمة لنفسه، وتناسى الموضوع. فالسلطة التي حاربها قد يكون شريكاً فيها خلال أيام وجيزة.

هل تورطوا؟

يعني هو تورط هو شخصياً؟

أين مقولات العدل والمساواة والغزوة الكبيرة التي تبددت أحلامها؟

واستمر يتساءل مع نفسه طوال الطريق:

هل كان الهدف أن نجلس معهم؛ هؤلاء القتلة؛ في قاعة واحدة يسمونها مجلس الوزراء، ثم نبدأ في تلاوة بيانات مُطوّلة حول حال الإقليم وإمكانيات التعايش السلمي، والصلح بين القبائل، ونُدبّج ذلك باستهلالات ومقدمات طويلة حول طبيعة الإقليم والجغرافية المدارية وتحولات المناخ، ونشرح كيف أن التصحر كظاهرة كونية هو نتاج الاحتباس الحراري، وأن الدول الكبرى بالتالي وهي تتمادى في الصناعات وتلويث الجوّ بأول أكسيد الكربون هي التي خلقت مشكلة دارفور، وهي التي أوجدت ذلك كهدف تجاري بحت.

"يمكن دائما إيجاد عشرات المبررات للسياسي، فهو يجيد لعبته ويعرف أين هدفه ومن أين تؤكل الكتوف"

٨

وصلوا إلى فندق قريباً من شاطئ النيل الأزرق، يشبه منتجعاً صغيراً، بُني على شكل قطاطي برؤوس مخروطية، ذكّرته بالقرى في دارفور.

نزلت رحاب أولاً بخفة طفلة يتيمة؛ وهي تذرع النجيلة المبتلة برشاش خرطوم الماء، الذي كان يتدلى ويرتفع من يد رجل متقدم السن سحنته تكشف أنه من أبناء الأزمة، من أولاد العم.

حيّاهُ رحمة من بعيد، وقد عرّفه الرجل فأسرع لاحتضانه بزهوٍ، قائلاً:

"القائد رحمة، الكوماندو العظيم"

الكل يعرفونه، فمنذ صباح اليوم ظهرت صورته في التلفزيون المحلي والتلفزيونات الخارجية، عشرات المرات؛ في نشرات الأخبار وأناشيد تمّ

تأليفها في ليلة واحدة، مع إضافة اللحن الموسيقي نفسه، الذي يعزفون به منذ أن تم تأليف أغنية (عازة في هواك) التي صارت مرتبطة بالجيش والتسلط، وكانت في البداية قد قصد بها - عازة - رمز للوطن والأمومة والفخر.

فأين مضى كل ذلك؟ وأين ألحان الأقاليم الأخرى من البلاد؟ حتى الموسيقى جعلوها تعيش الأزمة والتهميش كواحدة من ضحايا الحروب.

لم يسترسل رحمة في أفكاره، حيث أسرع عدد من رجال الأمن يحيطون بجمع من الناس لا يعرف رحمة من أين ظهروا فجأة، أزاحوهم جانباً، وأخذوه مع شقيقته حليمة ورحاب إلى صالة ببهو كبير في الفندق، يموّج بحركة دائبة لأناس من مختلف الجنسيات، من الفلبين والصين وكوريا وإيران ومصر ودول الخليج وأوروبا والهند..

"ماذا تفعل كل هذه الجموع في هذا البلد الفقير والمحاصر؟"

"وإذا كان ثمة عمل واقتصاد واستثمارات، فأين تذهب هذه الأموال، وقد وصل التضخم لمعدلات خرافية، وأصبح الجنيه السوداني ورقة لا تساوي قيمة الورق الذي تطبع عليه؟!"

٩

ظلت المشاعر المتفاوتة تحاصره ما بين الترقب للمقبل من الأيام، وخوفه من مجهول وغموض..

هل ستسير الاتفاقية التي لا يعرف تفاصيلها جيداً إلى الآن، ولم يسمع عنها إلا وهم يخبرونه بأن عفواً رئيسياً صدر من رئيس الجمهورية وسوف يطلق سراحهم سريعاً؟! أم سوف تُدفن في الرمال، كشأن العديد من اتفاقيات السلام في هذا البلد؟

ما أن يجلس الطرفان في القاعة المعلومة، حتى يبدأ الخلاف وتشتعل النيران مجدداً.

توقف عن التساؤل مع صوت رجل طالما كان يشتّمُه في أجهزة الإعلام، إنه الناطق الرسمي باسم الجيش الوطني كما يلقبونه. عَرِفه على الفور، فهو

من كبار الكذابين، يتحدث أن الجيش حقق وانتصر وسحق في حين أن الجنود يكونون في تلك اللحظات قد ماتوا بالمئات ذبحاً من قبل المتمردين..

يخرج ليعلن أن القرى التي أُحرقت بالأمس، كان التمرد سبباً فيها..

"يفعلون ذلك لكي يتم توجيه أصابع الاتهام دائما إلى الحكومة على أنها المسؤول عن المحرقة"..

يتكلم بلا أدنى حياء..

"هؤلاء المتمردون السفلة، إنهم يحرقون آباءهم وأمهاتهم وأولادهم لكي يعيشوا خالدين من أجل نعمة فانية"

هل سيصافح هذا المداهن والمتملق؟

لكن لا بأس!

وفكّر: "إنها السياسة، اللعبة القذرة، ما دام القائد سُيوّقع اتفاق السلام في الخليج هناك، فماذا سوف يفعل الكوماندو رحمة.. هل يهرب ليبدأ تمرداً جديداً، الكثيرون فعلوها من قبل، لن يكون هو استثناء أبدا؟"

ضرب على كتف الشاب طويل القامة، هزيل البنية، هزّه شديداً كأنه يقول له بشكل غير مباشر.. "أعرف أنك كذّاب"

حفظ لسانه عن الكلام، إلى أن سمع الناطق الرسمي يُكلّمه: "الحمد لله الأمور بخير، غداً سوف يوقعون الاتفاق.. لقد جهّزنا لك تذكرة السفر لكي تغادر عصر اليوم لتلحق بالحفل المقام على شرف هذا الحدث التاريخي.. القائد حنيّن طلبك شخصياً لتنوب عنه في التوقيع على هذا السلام الأبدي.."..

لم يفكر بعدها رحمة، كأنه ألجم.. مضى بعين واحدة وراء نظارته السوداء، يتأمل النهر الهادئ ما قبل خريف ساخن على ما يبدو..

يرى أشكالاً غريبة لملامح من خيالات تتشكل وراء الأفق.

الله وحده يعلم بما يخبئه القدر.

عاشراً:
قلب الأمّ قد يُخطئ

١

لولا النسيان لكان الحاج سعد قد فهم الآن أن بعض التاريخ الشخصي كان سوف يُسلّيه لبضع من الوقت في رحلته إلى قاقا، لرأى نفسه على سبيل المثال ذلك الطفل الذي يُغرّد طيراً في الجنة في تلك الليلة التي حلمت فيها أمه أنه مات.

ففي الأعراف المتوارثة أن الطفل إذا رحل عن هذه الدنيا الفانية، أي إذا نساه العَالم، فسوف يُصبح طائراً غرّيداً شجيّاً في فراديس الرب العلية.

في تلك الأيام البعيدة، ذهب إلى الوادي، الذي يسمونه بوادي الرب، الواقع قريباً من القرية.

شاهد المياه المنسابة والصبيان الذي يتقافزون ببشاشة وهم يسبحون في المياه الفوّارة، التي تنهمر مثل شلال ترفرف بجواره الملائكة، رآها، وشاهد عدداً من أطفال القرية الذين راحوا ذات يوم، في غمضة عين، غرقاً.

يتذكر واحداً منهم؛ صديقه الذي طالما صحبه في رحلات صيد الجراد في مواسم ما قبل الحصاد، حيث يأتي الجراد من جهة غرب أفريقيا في أسراب كبيرة؛ يقضي على كل المحاصيل، في سنابلها، الذرة والسمسم والدخن..

لا يبقى من شيء، سوى الأمل بأن تكون المواسم القادمة بلا جراد.

كانا وصديقه يقبضان على الجرادة، ينزعان عنها الرأس ثم يقضمان الجسد الأصفر الهشّ بلذة متناهية، ثم يفسخان البطن الأخضر من الداخل، حيث تحتفظ بالخضار كما هو، يزيحان الأخضر ويقضيّان على الباقي.

هذا الصديق لم يعد سوى واحداً من تلك الطيور التي تُحلِّق أمامه الآن، بل هاهو يتحدث معه..

"يا سعد، يا سعد"

يناديه.

وسعد يسمعه دون أن يقدر على استرجاع الصدى لصوته الذي يزوي في الماء، ويصبح نسياً مع السنوات.

٢

مع تذكر ذلك الصبي الذي كان اسمه منير، يستعيد سعد ذكريات كثيرة أخرى.

تبدأ ذاكرة القرين أمْ الرجل الأصل، في العمل، لتزيل الغبار عن النسيان، وتبتدئ دورة جديدة من الزمن.. فمنير، كان رفيقاً طيباً، لم يكن قد كدّرته اغواءات الكبار الساذجة.

كان والده يعمل معلماً متنقلاً في بقاع البلاد، جاؤوا به الإنجليز مع عدد من الأساتذة في المدرسة التي تم افتتاحها قريباً من الوادي، ولم يكن فيها سوى عدد قليل من الطلبة.

كان منير وسعد يجلسان طوال اليوم، بجوار بعضهما البعض.

منير الأبيض اللون وسعد الداكن..

منير الذي يتكلم العربية بفصاحة، وسعد الذي يُلكن في بعض الكلمات ويتكلم لهجة أخرى خاصة بقبليته، يراها منير على أنها من لغات السحرة الذين سمع بعض من قصصهم من والدته، وهي تروي له قبل النوم، قصة عن الساحر الذي يتكلم أكثر من لغة، بما في ذلك القدرة على الحديث بطلاقة مع الحيوانات والأسماك.

يعيد منير قصّ كل ذلك لصديقه، لا يخفي من شيء، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي غاب فيه ببطن الوادي، وأصبح من طيور الجنة.

٣

مع صورة ذلك الطير الجميل، القادم من وراء النهر حيث بلاد الجلابة، الطير الذي اسمه منير؛ وحيث ذلك المعلم فارغ الطول، الذي كان يُنشد

للتلاميذ أناشيداً يؤلفها بنفسه عن حب التراب الذي عاد مجرد خاطرة إلا لدى قلة، تطلُّ صورة لشاب آخر طويل فارع الطول، أطول من المعلم، والد منير.

إنه شقيقه بشارة الذي اختطفه النسيان..

يعيده قارسيلا صورته، مثل طيف عابر، كأنه لم يكن جزءاً من تفاصيل الحياة ذات يوم.

كيف نساه، طوال العقود الماضية؟

حتى عندما كان يواجه نيران الجنجويد مع الأقارب، لم يتذكر أن له شقيق كان يحبه شديداً، مات فداءً للعائلة، يوفر لها الرزق الذي تعثر.

في سنوات مبكرة من عمره تدرّب بشارة على مهارات معينة في العمل اليومي الشاق، جرّب كل الأعمال تقريباً ومن ثم قرر السفر إلى الخرطوم ليعمل هناك، كان ذلك ربما مع الاستقلال في مطلع ١٩٥٦م، والقصة تتعلق بالحظ.

٤

وصل وفد من رجال الحكومة إلى زالنجي، ومن ثم ساروا بعربات اللاندروفر إلى قارسيلا، كانوا يبحثون عن شباب أشداء لكي ينضموا إلى ما يعرف بالحرس الجمهوري الجديد، الذي عملت الدولة على إنشائه.

جنود مهمتهم الأساسية حراسة القصر الجمهوري والرئاسة.

انتشر الخبر؛ أنهم يريدون؛ شباباً طوال القامة؛ وسوف يدفعون لهم مرتبات مجزية، كما سيأخذونهم إلى دورة تدريبية لعدة أشهر في بريطانيا العظمى..

"فيالسعد من يفوز بذلك!"

كان الأهالي يرددون.

اختير بشارة ضمن المجموعة، كان الوحيد من قارسيلا ربما عموم الإقليم.

قال الضابط الذي قام بمهمة الاختيار:

"إنه ذكي ولمّاح وفدائي أصيل، يمكن له أن يرمي بوجهه في النار من أجل الزعيم"

ركب معهم الشاب، ابن الثانية والعشرين في السيارة، في حين كانت القرية تُودّعه، لم يكن من أحد يعلم الغيب، أنه الوداع الأخير.

الرجال في المقدمة والنساء وراءهم، كانوا يبكين عويلاً على هذا المغوار، الذي سيذهب إلى القصر الكبير الذي تدار منه شؤون البلاد..

"فياللحظ!"

كل واحدة من النسوة الأمهات، كانت بقدر ما تبكي؛ تشعر بالحسرة أن ذلك لم يكن من نصيب ابنها.

فيما بعد، عندما مضت قرابة ثلاث سنوات، كان بشارة يرسل فيها الأموال بانتظام لأهله، حدث أن وقع المكروه، الذي جعل أغلب الناس ترى المسألة من باب..

"وعسى أن تحبوا شيئا وهو شراً لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون"

في ذلك العصر الحزين، وصل الخبر، عبر برقية عاجلة في مكتب بريد زالنجي، أبرقها رجل مجهول من الخرطوم.

علم الأهل بالأمر صباح اليوم التالي وشرعوا البكاء، حتى لو لم يتيقنوا من الخبر.

كانت الحياة قد أظلمت أمام عيني سعد..

رأى الموت يتكرر من جديد، وهذه المرة من المستحيل أن يخاطب شقيقه كطير يمكن أن يحلق في الوادي مع موسم الخريف..

"فقد تجاوز بشارة السن المسموح به لكي يصبح طيراً في الجنة"

سمع ذلك من أمه، التي رضيت بقسمة الربّ وهي تلعن اليوم الذي جاء فيه هؤلاء الضباط من الخرطوم، ليصنعوا هذه الفجيعة.

أصرت أن يدفن ابنها في القرية، غير أن البرقية الثانية التي أكدت الموت، والتي كانت قد أُرسلت عبر التلغراف السريع هذه المرة، أفادت بأن الدفن قد

تمّ مسبقاً، وأن جسد الشاب قد تفرق لأكثر من عضو، بحيث يصعب جمعه أصلاً، وقد دفنه مع اثنين من رفاقه حراس القصر في قبر واحد..

٥

كان ثلاثتهم ضحايا لليلة دموية في الخرطوم، عندما استولى ضابط على الحكم، لم يترك للحكومة الديمقراطية حديثة الانتخاب بعد الاستقلال أن تُعمّر سوى أقل من ثلاث سنوات، في ذلك اليوم الذي عُرّف بانقلاب ١٧ من نوفمبر ١٩٥٨ عندما أطلّ الفريق ابراهيم عبود ليتكلم في التلفزيون..

"عمّا وصلت إليه البلاد من سوء وفوضى، وسوء استقرار للفرد والمجموعة"

وجد بعدها تأييد قادة سياسيين ودينيين، أبرزهم علي الميرغني زعيم طائفة الختمية، وعبد الرحمن المهدي زعيم كيان الأنصار.

رُوِّج أن الانقلاب تمّ بدعم من الحكومة الديمقراطية، التي سلمت السلطة لضباط الجيش، حتى تُنقذ البلاد من مشروع يقضي بتبعيتها لمصر في نظام اتحادي واحد.

تلك الليلة لم تُذكر إلا وهي مشرقة من غير سوء لا دم فيه، في حين أن الحاج سعد يتذكر الآن كل شيء..

يسترجع بألم فظيع تلك الذكريات المروّعة، فقد ضاع في ذلك اليوم شقيقه، ومنها بدأت اللعنات المتلاحقة.

٦

بعد موت بشارة، صار هو ورابحة في مواجهة الأقدار..

"اللعنات التي سوف ترسم الكثير من التفاصيل المهمة، في حين أن أغلب المهم سوف يصبح مع الوقت منسياً ويفقد أهميته"

"حيث يكون على آلة الزمن الدائرية أن تؤدي دورها بلا توقف"

"وحيث لا يُحترم الإنسان من قبل نواميس الكون"

ثم في سن متأخرة من عمره، وقبل أن تأتي الكارثة الأكبر، فقد سعد والدته التي هي حُبّه العميق في هذا العالم.

كان قد سافر ككثيرين، ممن جرّبوا السفر، وقتذاك، إلى ليبيا المجاورة، كانوا يتحدثون عن بلد جديد توفرت فيه الوظائف مثل التراب، وأنّ ما يُدفع يوازي ذهباً.

ذات نهار قرر وأخبرها، فبكت كثيراً، كأنها تعلم أنه سوف يكون الوداع الأخير.

يقال إن قلب الأم لا يخطئ.

كان غاية طموح ابن السلاطين، أن يعود ليبني حوشاً متوسط الحال فيه قطية خاصة بأمه كبيرة السن، وأخرى له..

سيكون خلال عام أو عامين، قد جمع المال الكافي من مهنة البنائيين التي تدرّب عليها واكتسب مهارتها، غير أنها لا تؤكل عيشاً في قارسيلا.

ذات نهارٌ ركب اللوري ينهب الرمال، تغوص إطارته ثم تخرج، ثم تستمر الرحلة، والرجال قد فقدوا واحداً منهم من شدة الحرّ، إلى أن وصلوا واحة يكاد فيها الماء ينبع من الأرض، وثمة حشائش خضراء ولدت للتوّ.

بدأت نسمات جميلة تلفح الجميع لتغير المزاج السيء.

سرعان ما نسوا رفيقهم الذي مات.

دفنوه في تلك الواحة واستمروا في السفر فدخلوا ليبيا.

عمل سعد هناك وقبل أن يكمل عامه الأول وصله الخبر المزعج، فعاد للعزاء ولم يقرر بعدها السفر مجدداً، لقد أصابه ضجر من ذكرى بنغازي التي عمل فيها حمّالاً بالميناء، فمهارة البناء في "الجماهيرية" تتطلب عمالاً لهم درجة مختلفة من التأهيل والمهارة في تشييد المباني متعددة الطوابق، وهو ما لا يجيده، حيث ظنّ الأمر مجرد قطاطي وأكواخ من الطين والقش.

٧

عند قبر رابحة، بكاها ليلاً..

ذهب دون أن يراه أحد أو يخبره بموقع القبر..

اتخذ قلبه دليلاً، فقد كانت توصي بأن تدفن جوار الحاج سعد الكبير، وقد كان.

وقف بجوار قبر والده، نظر تحت القمر المتواري وراء الغمام للتراب المبتل للتوّ بماء المطر الرزاز، وارتوى خداه بالدموع المتثاقلة، في يوم بدا له كأنه لا يشبه أيام الأرض.

كرّه نفسه واليوم الذي سافر فيه..

لماذا لم يتعلم من حكمة تقال: إن الرزق يأتي لبني آدم في أرضه؟

لماذا أراد السفر والهلاك؟

لماذا لم يعد، عندما رأى رفيقهم يموت أثناء الرحلة؟

أين كان قلبه ساعة كانت أمه تبكي وتقول " لا، لا"؟

تكررها..ثم أخيراً قالت:

"اذهب يا سعد والله سوف يسعدك؟"

فأين مضى هذا السعد؟

تحسس الأموال التي جمعها في الشهور التي قضاها في ليبيا، كانت رزمة متوسطة الحال في جيب العراقي المتسخ من رحلة السفر، لم يغيّره بعد وهو يستقبل المعزّين طوال اليوم.

قام برمي الرزمة على الأرض، وأخرج عود ثقاب من الكبريت التي كان يحملها، ودخّن بها عدة سيجارات في سفره، رغم أنه لم يكن مدخناً من قبل، كان أحد المسافرين بجواره قد رآه بوجه مرسوم بالأسى فقدم له سيجارة فأخرى، فكبريت وعلبة دخان كاملة.

خلال ثوان اشتعلت الرزمة..

رأى العملة الورقية تصير رماداً وهو يكلم والديه بأنه، قد استنفد دينه وكفى، وبكي كثيراً عند القبرين قبل أن يعود لينام متعباً، يرى في ليلته أضغاث لشهور من الرهق الطويل في بنغازي.

٨

"هل انتهت الرحلة يا سعد؟"

ذلك الصوت يعود ليكلّمه من جديد..

هذه المرة من مسافة أقرب من ذي قبل..

"هل اقترب ذلك القرين الضائع وعاد ليسكن الجسد، بيته؟"

إنها الوحدة والتوحش الذاتي والسير في التضاريس العسيرة وحدك، يجعلك كالمجنون، أسير الذكريات والمرارة، وعندها ينسكب التاريخ كله، مرة واحدة في إناء مثقوب، لا يسمح لك بأن تحفظ حتى الأشياء السيئة..

إنه النسيان يطلُّ من جديد، مثل تلك البومة التي كان قد رآها في ميناء بنغازي، وشعر وقتذاك بأن ثمة خطر قادم.

كان الطائر ينهم بصوت عالٍ، وسعد يخرج من بيته في أول المساء، بعد أن انتهى نهار شاق مع العمل في نقل البضائع؛ العَالم الذي يغتني على ظهور الآخرين، والرزق الذي يُوزّعه الربّ كيفما شاء.

كانت تراوده أفكار مشتتة عن عدالة السماء، ثم يستغفر الله ويتذكر..

"إن كل شيء لابد مقسوم، ولابد من نهار سعيد سوف تُحلُّ فيه كل المشكلات ان شاء الله"

استمر في تأمل الطائر يغادر العتمة، إلى الضوء، ثم يختبئ وراء عمود خرساني.

كان يعلم أن ظهور البوم، دليل على أن روح الميت تحلق في المكان، فبعض أرواح الموتى تظهر في شكل بومة تنتحب.

ثم تغافل ما رأى، إلى أن حلّ الصباح، فوصله الخبر الحزين من أحد الشباب القادمين من البلد البعيد، فقبل أسبوعين على الأقل رحلت رابحة.

إلى يومها الأخير، ظلت شديدة، تنقل الماء بنفسها مع نساء الحي رغم كبر سنها، دون أن تستعين بالفتيات الصغيرات، كما تفعل بعض النساء

العجائز، تقف عند البئر وتنزل الدلو، تملأه وتعبئ القِربة، ثم تمضي إلى قطيتها، وكذا تحضر حطب طعامها من الغابة الصغيرة المجاورة للقرية..
الغابة التي بدأت تفقد خضارها بسبب الجفاف الذي خيّم على الأرض.

٩

هل سيمضي في تجريب النسيان وهو يقترب من قاقا، التي كان ما يعرف اسمها ولا رسمها؟!
في البداية وربما لضعف البصر، ومن بعيد ظنّ المكان غابة، خاف أن يقابل فيها حيواناً مفترساً، وهو ليس ذلك الذي يمكنه أن يصارع الوحوش، كما كان ممكناً في الماضي أم يتخيل ذلك؟!
ليس سهلا أن يعرف الحقيقة!.
سيحاول وسيجرب، إذن.
أن ينسى رابحة وبشارة ووالده الذي تبقى ذكرى رحيله غامضة جدا، كأنه لم يكن جزءاً من عالمه ذات يوم.
هل كان موجودا حقا؟
كيف مات؟
يصعب تجميع ما حدث.
إنها لعنة النسيان تطلّ من جديد، حتى أخواته الكبار أين هم؟
هل راحوا في تلك الليلة التي احترق فيها كل شيء مع مطلع الشمس الحارقة القاتلة، التي بدت له تشبه رؤوس الشياطين، أولئك الذين جاؤوا وغيّروا تاريخ المكان وغرسوا الهلع في الأرض، بذوره مثل أشجارٍ شوكية بائسة لا نفع لها، تدمّر الحشائش الطيبة.

١٠

يقترب من قاقا، يلمح من بعيد رجلاً يشبه واحداً من أخوته الذي يظنّ أنه ذهب إلى مكة ولم يعد.

بعضهم قال: إنه رآه هناك يجاوّر بيت الله الحرام مثلما يفعل من يزهدون في الدنيا، أملاً في حياة أخرى يكون فيها النعيم الدائم، حيث الجنان والرحمة الواسعة عند المليك المقتدر.

سافر "أحمدون"، وترك العائلة تعيش آخر أيام الرخاء.

أخذ معه ما تبقى من المال، لكي يجاور الربّ والرسول.

لم يعترض أحد.

أخرجت رابحة ما جمعته من مبلغ على مدى سنين طويلة، حيث تعودت على ادخار القطع النقدية في علبة صغيرة حفظتها تحت سريرها في حفرة بالأرض.

قدمت المدخر لابنها الذي كانت تحبه جدا، لكي يكمل حلمه بالسفر إلى الأرض المقدسة، وهي تبكي أنه أصبح درويشاً بدلاً من أن ينفعهم، غير أنها كانت تردد وهي تذرف الدموع..

"إنها إرادة الله ماذا نفعل مع مشيئته، هو الذي يقرر ما يشاء"

أحياناً تأتي قصص متناثرة لا يعلم أحد مدى مصداقيتها أن أحمدون شوهد في جنوب السودان مقاتلاً مع جيش التحرير الجنوبي وقائده جون قرنق، يقولون إنه بات مُقرّباً منه وأصبح كذلك مسيحياً وترك مِلة محمد.

كان يصعب على أهل قارسيلا تصديق هذه الرواية لأن الدرويش أحمدون العارف لله ربّ المسلمين، لا يمكن أن يصبح غير عاشق النبي العربي، وهم يتذكرون صوته الطروب والشجي، سادراً في دروب الحِلل والقرى وهو ينشد للجميع بلا مقابل، يضرب على الطبل وهو يتغنى بحب النبي وصحبه وآله. يبيت الليالي بعيداً عن الديار هائماً، ثم يعود إلى أهله.

كان أبوه يقول:

"أحمدون من أهل الله فلا أحد سوف يسأله أين كان وأين ذهب؟"

١١

يسلّم على الرجل، ثم يحتضنه، يشتمُ فيه رائحة ثياب أحمدون التي كان نادراً ما يُبدّلها، ورغم ذلك ظلت ذكية وفوّاحة بعنبر خالص.

يسميّه باسم شقيقه؛ يستغرب الرجل لكنه لا يُبدي انزعاجاً من شيخ كبير السن، طيب القلب، فهو يعلم حق العلم أن أكثر الناس هنا يبحثون عمّن يشبهون أهلهم الذين فقدوهم في المحارق والهولوكوست الذي نجوا منه، لكي يُطيّبوا بهم الخاطر ويسترجعون الأحلام الموءودة، يبددون الشقاوة ويعيدون ذكرياتهم طرية، حتى على الأقل يُكفِّرون عن بعض من الذنوب التي عاشوها.

"مع الرحيل والموت يبدأ الناس، أغلب الأحيان، في ترميم الجراح ونسيان الخلافات والشقاق، يكونون أكثر رحمة ورأفة، ويعيدون السيرة الحسنة. هذا هو المتعارف عليه. خاصة مع ألمّ كبير عمّ الجميع وبدّل حياتهم إلى أسى عميق لا يمكن تحديد غوره"

يفكّ قارسيلا الرجل، يبكيان سويا..

كلٌ يبكي الذين فقدهم.

كان يصغره بحوالي ثلاثين سنة، يعني في الأربعين تقريباً..

يسلكان دربهما باتجاه القرية النامية، يجلسان على الأرض، كل يفكر في شيء معين غير محدد حتى له، ثم يسمعان من يناديهما بأن يستجيبا لدعوة الطعام، فالناس كرماء هنا، رغم الشحّ والفقر.

"الحياة يجب أن تمضي"

صوت من الغيب يسمع له الحاج سعد..

كما لو أن روح بشارة هي التي تتكلم أو شقيقه الأكبر أحمدون، الذي يتجسد في صورة الرجل الذي يجلس بجواره، أو ربما هو قرين حقيقي لشقيقه.

حادي عشر:
الأيام الأخيرة في قصر الزعيم

١

هبطت به الطائرة مع زملائه في مطار الفاشر كبرى مدن الإقليم الغربي، تبدو من مشهد خارجي، مثل مدينة في حالة حرب أو هي كذلك.

طائرات تابعة لمنظمات دولية، في الغالب تلك التي تعمل في مجال المساعدات ونقل الإغاثة، وأخرى تحمل علامة الاتحاد الافريقي والقوات الاممية، وسيارات دفع رباعي متعددة الماركات حديثة التصنيع مصطفة في أماكن متفرقة من المطار الذي يظهر مبناه تعيساً ومتواضعاً لا يليق بسمعته.

ربما هي الحرب وربما هو النسيان، فقد عُرِف أن هذا الإقليم لم يكن له ذكر ملموس في ملفات التنمية.

أخذوهم إلى سكن مؤقت، حيث تم توزيعهم بعدها على المهام.

كُلِّف بإدارة وحدة مركز شرطة قريبة من زالنجي، لمعسكر نازحين كان يتكوّن في تلك الأيام، غير أن المخيمات كانت سرعان ما تقوم وتختفي لأن الحكومة وعصاباتها لا تتوقف عن مهاجمة المدنيين، حتى داخل المعسكرات ما يضطر الناس إلى الهروب إلى الغرب ودخول الجارة تشاد أو الفرار جنوباً في حالات نادرة.

الآن بات الوضع أكثر اضطرابا مع وصول اليوناميد، ظهرت مافيات مسلحة تخطف كل شيء، تقطع الطرق على السيارات واللواري والعابرين بالجمال، وتأخذ ما عندهم ثم تهرب.

عمّت الفوضى..

باتت دارفور عالماً للجنون والموت بشتى السبل..

إن لم تقتلك رصاصة فسوف يذبحك متهورون من عصابة ترغب في الربح السريع..

أناس متعددي الجنسيات جاؤوا من أفريقيا ومن الصومال والقرن الأفريقي ليعملوا في السرقة والنهب المسلح، واتسعت دائرة اللانظام..

كان تحدي العمل يصبح أكثر صعوبة.

ظهر كذلك اختطاف الأجانب لاسيما الأوروبيين مقابل الفدية، يأخذونهم رهائن ولا يطلقون سراحهم إلا بعد دفع مبلغ محدد من المال لا يقل عن خمسين ألف دولار، وأغلب هؤلاء كانوا من الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء وبعضهم من موظفي الإغاثة الدولية.

٢

لم يمر من وقت طويل، حتى اكتشف الشاب الباكستاني (نبي محمد) أن اليوناميد بات عاجزاً تماما عن فعل أي دور، رغم الإمكانيات الكبيرة المتاحة له، ففي الإقليم توجد أكبر قاعدة أممية في العالم، مكونة من بعثة الأمم المتحدة والاتحاد الافريقي متعددة الجنسيات.

وهي حسب قرار مجلس الأمن تضم ١٩٥٥٥ أفراد من العسكريين منهم ٣٦٠ مراقباً عسكرياً وضابط اتصال وعنصراً ملائماً من المدنيين.

يشمل العدد ٣٧٧٢ من الشرطة و١٩ وحدة شرطة مُشكّل كل منها من ١٤٠ فرداً، لاحقا تم رفع عدد الشرطة ليصل ٦٤٣٢ من الأفراد، قبل أن يتم تقليصهم لاحقاً.

تشمل قائمة الدول المشاركة في القوات العسكرية: الأردن، ألمانيا، إندونيسيا، إثيوبيا، إكوادور، إيران، بابوا غينيا الجديدة، باكستان، بنغلاديش، بوركينا فاسو، بوروندي، بيرو، توغو، تايلند، جمهورية مالي، جمهورية تنزانيا المتحدة، جمهورية كوريا، جنوب أفريقيا، جيبوتي، رواندا، زامبيا، زمبابوي، السنغال، سيراليون، الصين، غامبيا، غانا، قيرغستان، كينيا، كمبوديا، ليسوتو، ماليزيا، مصر، منغوليا، ناميبيا، نيبال، نيجيريا واليمن. أما قوات الشرطة فيساهم في أفرادها، كل من اثيوبيا، الأردن، ألمانيا، أندونيسيا، باكستان، بنغلاديش، بوتان، بوروندي، بوركينا فاسو، تركيا، توغو، تونس، جامايكا، جمهورية تنزانيا المتحدة، جيبوتي، رواندا، زامبيا، وزيمبابوي، ساموا، السنغال، سيراليون، غامبيا، غانا، فيجي، قيرغيزستان، الكاميرون، ماليزيا، مدغشقر، مصر، ملاوي، ناميبيا، نيبال، نيجيريا، اليمن.

٣

عجز اليوناميد لم يكن بسبب التجهيز المادي ولا اللوجستي إنه باختصار، كما رآه وعاشه "محمد نبي" بأم عينيه الفساد، كما يسميه القادة "كوربشن".. تلك القدرة على الاستفادة للصالح الخاص.. فميزانية اليوناميد السنوية تصل إلى مليار ونصف المليار دولار وهي نصف ميزانية جمهورية السودان كلها، فأين تذهب هذه المبالغ؟

يعرف نبي أنها تصبّ في جيوب الجنرالات الكبار وكان معظمهم من الأفارقة الذين يجلسون مع القتلة في الخرطوم فيتقاسمون المبالغ، ثم يعودون

إلى دارفور؛ ليمثلوا دور حماة المساكين والبؤساء، وهم يعيشون في بذخ؛ يأتون لهم بالطعام ساخناً من لندن بالطائرات وأفخر الخمور والسجائر.

الخمور التي كان محرماً بيعها في المدن وفي العاصمة هي حلال لقادة اليوناميد.

كان نبي يرى كل ذلك، ويسمع عنه ويتغافله، لأنه جاء لمهمة محددة عليه أن يُنجزها ويمضي، فقد كان أمر الحرب أهون عليه من هذا القرف البشري المسمى المصالح الشخصية.

لاحقاً اكتشف أن مُرتّبه الحقيقي أكبر مما يأخذه وأن النصف الثاني يمضي للضابط الذي رشحه؛ الجالس هناك في مكتبه بمدينة لاهور..

"لكن الله أحياناً يُقدِّر أموراً جيدة تُذهّب الحنق عن المرء"

خلال أيام من معرفته بأنه يتعرض للغش والابتزاز من مديره الأعلى، نُقلت الأخبار عن هجوم انتحاري كبير بالقنابل، تعرضت له كلية الشرطة في لاهور من قبل متشددين راح ضحيته عدد من الأبرياء وضباط يدرسون بالكلية، وذهب معهم المدير الفاسد إلى لقاء حرسة الجحيم.

بقدر ما شعر نبي بالسرور، إلا أن ذلك لم يستمر لأن التعهدات نفسها استمرت مع المدير الجديد الذي تم تعيينه..

"إنه قدر الأشقياء لا ينقطع حبله، يظل يطاردهم إلى الأبد"

٤

في أسواق الفاشر يمكن أن تحصل على ما تريد، وقد تستغرب للسبب، كيف لهذه المدينة المقطوعة عن العالم والتي توصف بأنها في حالة حصار وحرب؛ أن تصبح سوقاً عامرة لعبور السلع إلى أفريقيا ووسط السودان وعلى رأسها العاصمة الخرطوم؟!

غير أنه ليس من تفسير أوضح من تلك الطائرات العسكرية التي تهبط وترتفع على مدار اليوم، فلقد حوّلت اليوناميد العمل هنا إلى مهمة تجارية بدلا من عسكرية، مهمة للثراء السريع والتربح الفاحش، وتحول ضباط

الجيش الأممي إلى تجار متكرشين يتقاسمون الأرباح من وزراء السودان، في حين يسبُّ كل منهما الآخر في وسائل الإعلام.

على رأس السلع التي لا تباع في الأسواق وإنما تُوزّع بناء على تعهدات مسبقة، وأبرزها، العتاد الحربي؛ فقد باتت دارفور معبراً للسلاح إلى جماعات البوكرحرام المتشددين في منطقة بحيرة تشاد ونيجيريا والكاميرون، حيث يقوم سماسرة بتوصيل البنادق الرشاشة والراجمات الصغيرة و"الآر بي جي" وغيرها.. ومرة نقلوا دبابات روسية الصنع إلى هناك.

كانت الأسلحة التي دخلت ليبيا لاحقاً أثناء الانتفاضة ضد القذافي قد جاء معظمها عبر دارفور..

كذلك صار الإقليم من أكبر المنافذ لتهريب المخدرات بشتى أنواعها إلى داخل البلاد وبلدان أخرى مجاورة، الكل يساهم في ذلك بلا استثناء، متربحون من الأوروبيين والآسيويين الصينيين - بوجه خاص - والأفارقة في المقدمة بتاريخهم الكبير مع الفساد والابتزاز.

ولم يمض من زمن وجيز إلا وأصبحت الكثير من حركات التمرد لشتى الدول المجاورة، تتخذ من الإقليم مسرحاً للتدريب والانطلاق بعدها.

كان هناك متمردو تشاد ضد الرئيس ديبي، والمتمردون ضد القذافي، وجماعات الصحراء الغربية، ومسلحو مالي المتطرفين، ومتشددو بوكوحرام، وجيش الرب الذي يحارب نظام موسفيني في يوغندا، ومتمردون مدعومون من الخرطوم يحاربون النظام في جنوب السودان.

منطقة قارسيلا الأم نفسها في دارفور، شهدت في يوليو ٢٠١٠ القبض على أربعة متهمين من المتشددين، المحكوم عليهم بالإعدام في جريمة قتل الدبلوماسي الأمريكي جون مايكل غرانفيل وسائقه السوداني عبدالرحمن عباس، بالخرطوم في فجر الثلاثاء الأول من يناير ٢٠٠٨م بوسط الخرطوم، أثناء عودتهما من احتفالات رأس السنة بأحد نوادي الخرطوم الراقية.

أحد القتلة كان نجل واحد من كبار زعماء اليمين الديني المتشدد في البلاد؛ وكان السؤال: كيف وصل هؤلاء القتلة إلى دارفور، أو كيف بالأحرى هربوا من سجن كوبر في العاصمة الخرطوم؟!

وسط هذه الغوغاء كان البحث عن حركات التمرد الدارفورية أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش – وفق التشبيه الدارج - لقد تضعضعت تلك المجموعات المسلحة، تقريباً وسط المجموع خاصة بعد فشل عملية غزو الخرطوم في مايو ٢٠٠٨، ولم تبق سوى حركتان فقط؛ واحدة مما تبقى من غزاة الخرطوم الذين عادوا للتمرد من جديد بعد فشل اتفاق الخليج؛ والثانية حركة ذات طابع علماني كانت تقوم على المحور السياسي أكثر من العمل العسكري بتوصيف الإعلام الحكومي، رغم أن معاركهم موجعة بعض المرات.

٥

أول ما فكّرت خديجة وهي ترى الرجل الواقف بجوارها؛ الضابط الشاب الباكستاني؛ أنها قد نجت من الجنجويد.

"ولكن ربما هناك مؤامرة ما!"

فهي لن تثق في أي جهة مسلحة بدارفور..

"كلهم مجرمون يتلاعبون باسم المصلحة".. فرحمة شقيقها يتحدث في التلفزيون بلغة غير تلك التي كانت تعرّفها عنه..

هل تغيّر وأصبح إنساناً آخر؟

هل بدلّته الحرب والسياسة؟

بعقلها القادر على فهم الأمور بشكل جيد، كانت تجد الإجابات واضحة أمامها دون عناء كبير.

وهذا الشاب الغريب، يمسك الآن بيدها، بشكل لا يليق بضابط محترم، هل يريد أن يقوم بعمل لاأخلاقي هو الآخر؟ كأن يغتصبها بطريقة سلسة،

بأن يمارس إغواءه عبر وسامته، فهو يبدو وجيهاً يشبه ممثلي الأفلام في بوليوود، الذين تعرفهم جيداً قبل أن تأتي الكارثة والمجزرة.

كان في بيتهم تلفزيون صغير أسود وأبيض يشاهدون فيه الأفلام والمسلسلات الهندية، وحتى لو كانت الصورة غير مكتملة لأنها غير ملونة، فهذا الشاب الملون الآن هو امتداد لتلك الوجوه التي تُغنّي للحب والحياة والانسانية، وثمة فارق بين السينما والواقع..

تدرك ذلك تماما.

كلّمها بلغة عربية مكسّرة، ولما عرف أنها تفهم الإنجليزية بشكل جيّد واصل معها، بها.

تدريجياً وهي تحادثه شعرت ببعض من الراحة.

ليس ما دار بذهنها هو الحقيقة، فالشاب كان إنسانياً ورحيماً، إنه لا يشبه هذا الطقس السيء الذي يحاصر الناس في هذه الأيام أينما حلوا بالإقليم.

قصّت له حكايتها منذ أن فكرت في الهرب إلى أن جاءت الفرصة المناسبة، وقبلها كيف أنها أُخذت عنوة من القرية بعد حرقها؛ على أنها يمكن أن تكون أروع هدية لزعيم المليشيات القاتلة.

٦

كان الليل مدلهماً في المكان، الذي ليس بمقدورها أن تحدد مساحته، ولا حجمه، فهي تقضي أغلب الوقت في القصر، ولا ترى في الغالب، سوى الزعيم الذي يصدر أوامره بالهاتف النقال ماركة الثريا وهواتف أخرى.

لديه العشرات من الهواتف بمختلف الماركات..

لديه ألبسة فاخرة ومطرزة بالحرير..

وحديقة صغيرة مصاحبة للقصر بها العديد من الطيور النادرة..

ويلبس ساعة ذهبية مطرزة، اشترى لها واحدة مثلها من سوق نيامي كما يقول.

كان قد سافر لعدة أيام وعاد، وهي مسجونة في غرفتها لا أحد يكلمها سوى بعض الجواري اللائي يتغزلن بجمالها..

"يبدو أنهن سحاقيات، ومظهرهن لا يعكس أنهن أفريقيات، فمن أين جاؤوا بهن، كأنهن من آسيا أو روسيا"

كانت هي الأفريقية، السودانية الوحيدة، المفضلة لسيد القصر.

تروي خديجة قصتها، كأنها تكلّم نفسها أو تحكي حكاية للغيب.

يبدو الشاب نبي أمامها مثل شبح يظهر ويتلاشى، هلامات من عالم غير موجود في الأساس، لهذا فهي تقصّ دون ترتيب..

للساعة أن تأتي بعد الحديقة وللحرير أن يسبق الطيور النادرة، فالعالم يفتقد للنظام. إنه عالم الفوضى بلا شك.

٧

في سنوات القصر جربت أشياء لم تكن تعرفها من قبل، كانوا يقدمون لها أطعمة غريبة عليها تناولها، وشراب مسكر، وعليها أن تجرّب.

ماذا سوف تخسر في معركة هي منتهية بلا نصر؟

لا يبدو من أمل يلوح وراء الأفق، فالزعيم وجنوده سوف يحكمون الإقليم إلى الأبد على ما يبدو، وهذه التلفزيونات البلهاء تساعدهم في تمديد مهامهم، فهم يدفعون لها كي تُسوّق لجرائمهم.

لقد صار هذا الرأس حقلاً لتجريب كل المُسكّرات والمخدرات، على ما يبدو، ليس عندها من فكرة، ولا تريد أن تسترسل في حكاية ذلك. ما يهمها الوصول إلى اليوم الذي صار بإمكانها أن تفرُّ فيه.

وسط تلك الهلامات ترى عدداً من المسؤولين من رجالات الحكم في الخرطوم يأتون للاجتماع مع القائد الجنجويدي ورجالاته، يقهقهون بلا أدب لساعات ويسخرون من كل شيء بما في ذلك الخالق، وقبلها من أمريكا وأوروبا والصين وروسيا، والبنتاجون والكرملين، وأنهم قادرون على خداع كل الدنيا لأجل أن يحققوا مصالحهم، بما في ذلك هذا الشيء الغامض الذي

يسمونه "الشعب" الذي هو مطيّة لتحقيق مصالحهم.. يتحدثون عن أرصدتهم في البنوك الأوروبية السويسرية والماليزية وعن شركاتهم لغسل الأموال في لاغوس، وعن العقارات الفاخرة التي اشتروها في الجزر الاصطناعية بدبي، يتفاخرون بأن أولادهم يدرسون في أعرق جامعات العالم في كامبردج وكورنيل وجورج واشنطن، وينالون الدرجات العليا في أعقد التخصصات.

ينتهي الاجتماع قبيل الفجر، يكونوا قد سكروا تماما، يفيقون قبل الظهيرة بقليل، يصعدون في المروحيات الصغيرة التي تحملهم إلى الخرطوم، تراها خديجة من نافذة صغيرة في غرفتها وهي تحس بوخز في قلبها كأنها ستموت في اللحظة نفسها من المضَاضة والألم القوي.

٨

في اليوم التالي يُصدّر الزعيم الذي ينادونه بعدد من الاسماء، بالاستيلاء على جبل الذهب الكبير بالإقليم..

"الحكومة إذا بدأت الخداع فسوف نخدعهم، يريدون خدمتنا بلا مقابل"

كيف ضحكوا بالليل معاً وخانوا بعضهم في الصباح؟!

كان الجنجويدي غاضباً في تلك الظهيرة كغير عادته، وهو يستقبل منتصف النهار بأن يرشف بعضاً من المريسة المحلية المُشبِّعة والمسكرة، ثم يقوم بأخذ جاريته إلى الغرفة..

تلك الزوجة، الجارية، التي أصبحت خائرة غير قادرة على المقاومة.

ترقد على السرير مثل حيوان ذبيح، تتركه يفرغ ما عنده وتظل نائمة في مكانها إلى الظهيرة، لا توقظها إلا أصوات أولئك العاهرات في الخارج وهنّ يتكلمن لغات غير مفهومة.

يكون الزعيم قد أتى مرة ثانية لتكرار فعله قبيل حلول المساء.

٩

اليوم تأخر الزعيم عن برنامجه المعتاد، وهو في أشد الهيجان، بعد أن نقلوا له خبر استيلاء مليشيات جديدة كوّنتها الحكومة من موالين لها على منطقة الذهب.

عُرِف ذلك الجيش لاحقا باسم (قوات دفاع النظام)، دعامته شباب متهورون من السذج وشذاذ الآفاق الذين يمكن لهم أن يهبوا حياتهم بأبخس ثمن في مقابل الولاء للحزب والنظام؛ ما زالوا يفكرون في الأمر على أنه عقيدة إلهية يجب أن تطاع، يأتون لهم وسط الصحراء بمحاضرين يكلمونهم عن وعد الله الحق والجنة وأن الانتصار للحقيقة هو انتصارهم، هم لا غير، وأن الكفار يريدون أن يستأثروا بدارفور لهم وحدهم ويسرقون خيراتها من ذهب ونفط ويورانيوم، مثلما سرقوه من قبل؛ يشيرون لهم إلى قصة اليورانيوم الذي تمّ تهريبه أيام النميري عبر طائرات شركات التنقيب عن النفط لشركة شيفرون الأمريكية، التي لم تستخرج نفطاً بل أخذت المادة المشعة المستفاد منها في صناعة القنابل النووية وهربت.

أما قادة هذه القوات فهم أنفسهم الذين كانوا من قبل قادة في حروب الجنوب ودارفور؛ ليس من جديد؛ يتم تدوير المتبقين منهم ممن لم يتم اغتيالهم للمعلومات المثقلة التي يحملونها.

تسمع خديجة هذه الحكايات في أحاديث الزعيم مع أناسه..

"إذا أرادت الخرطوم أن تزيحنا جانباً وتستبدلنا بهؤلاء الصُيّع، فسوف نقاتلهم، مثلما جاؤوا بنا فسوف نقهرهم، لأننا نحن الذين صنعنا قوتهم"

يقول الشيخ ذلك ويضرب بقوة على الأرض بحذائه المطاطي المبتل بالماء، وهو خارج من الحمام، يرمي فقط بفوطة حول منتصف جسده الأبيض، غير حافل بالجالسين في الصالة بانتظار قراره من رجالاته.

١٠

لم تمض سوى أيام قليلة، ربما شهر أو شهرين، فالزمن ليس مهماً.

لم يعد الزمن له من قيمة في ذاكرتها؛ في هذا المكان المغلق؛ وحيث السجن هو سجن الذات مع هذا الحصار النفسي الشديد وسط مجرمين قبيحين.

كيف للإنسان أن يكتشف أنّ الزمن له وجود؟!

كانوا يتناقلون الأخبار للزعيم عن أن كتيبة من الجيش الجديد قد اقتربت من معسكرهم ومن قصره بالتحديد، وأن معركة كبيرة تلوح وراء الأفق، وأن قائد المجموعة ضابط أمن متقاعد له خبرات واسعة في إقليم دارفور جاؤوا به بعد أن أصيب بالزهايمر، انتشلوه من بيته في قريته المهجورة بشمال البلاد، وأنه بمجرد أن اشتم رائحة الدولارات استعاد وعيه وذاكرته، وحلف أمام الرئيس والوزراء أنه سوف يعود منتصراً.

أقسم لهم أنه سوف يبيد الجنجويد إلى الأبد.

كان مساعد قائد الجيش الجديد يصيح بغضب:

"لقد خلقناهم هؤلاء الجنجويد، واليوم يريدون أن يقتلونا، لن نسمح لهم"

١١

سرعان ما بدأت المعركة، كان الرصاص يضرب في كل الأنحاء..

الراجمات تعصف بشدة..

الحوائط تنهار في القصر..

طائرات الأنتنوف الروسية تحلق من علٍ على ارتفاع ليس شاهق، قريب من الأرض وترمي بالقنابل، ثلاث قنابل من كل طائرة على الأقل.

هناك أيضا طائرات مروحية مسلحة، وأخرى ماركة ميج..

كان الدخان يتصاعد والنيران تشتعل بالرياح التي أثارتها الطائرات والمعركة السريعة بين الطرفين.

رأت خديجة عشرات بل مئات الضحايا من الطرفين..

عمليات ذبح وقتل وطعن ورمي بالأسلحة الأتوماتيكية.

واختفى الزعيم وحرسه، لم يعد لهم من أثر في المكان وسط الانقاض والدمار والنيران والجثث.

الجواري تساقطن على الأرض فائرات في دمائهن بعضهن تعرض للاغتصاب من رجالات جيش "قوات دفاع النظام"، وبعضهن اغتصبن من رجالات الزعيم الذين كان بعضهم يحلمون بهن، دون أن يقدروا وقتذاك على المساس بهن أو إلقاء مجرد نظرة عابرة في وجود الزعيم القوي.

لم تر خديجة سوى نفسها تجري سريعاً..

تقف ثم تواصل الهرولة، وهي قد فقدت روحها تماما، تظن أنها سوف تموت عما قريب، إلى أن وجدت نفسها هنا..

هنا..

تروي قصتها لـ "نبي محمد".

ثاني عشر:
دم الأشجار وبقايا الولائم القديمة

١

بدت له السماء ملونة بالأحمر، بالدم القاني، ارتحل إلى حيث كان أول لقاء له مع مجموعة من الداعمين الغربيين، في أنجمينا.

كان الرئيس التشادي غاضباً من نظام الخرطوم ودعمه للمتمردين وقرر أن يرد الصاع بصاعين، قال لهم:

"مثلما كان رابح ذات يوم هنا يحتل أرضنا ويقيم فيها مملكته، فسوف نسمح لأحفاده أن يقيموا مملكتهم في بلاد السودان عند ملتقى النهرين"

يعني النيلين الأزرق والأبيض..

"يا للغباء حتى الأنهار قسّموها لأزرق وأبيض، الزرقة التي هي السواد"

كان ديبي يصرخ، وهو يتجاهل نصفه الآخر في السودان، حيث يصعب فصل تشاد ودارفور.

أغلق بركة الخير بوابات التفكير، ينظر ذلك اللقاء كأنه يحدث اليوم، يعيش تفاصيله.. يرى الجالسين..

المبعوث الأمريكي، ورجل متقدم السن يرتدي زياً عسكرياً هزلياً قيل إنه جيء به من حروب العصابات في كوبا، وأنه يمكن أن يخدم في تدريب مليشيات المقاتلين في الجبال.

آخر من فرنسا، هو الذي سوف يكون بعدها من أكثر أصدقائه ويقدم له العون الأعظم، في مستقره النهائي ومقبرته بباريس، يهودي الأصل من مواليد السودان، هاجرت أسرته في النصف الأول من القرن العشرين إلى فرنسا.

٢

قبل أن يدخل المساء حثيثاً مع رائحة الموت، الخديعة، أن يموت الأصدقاء، لأنهم الكابوس والجحيم، كان المطر قد هطل بقوة كأنه يريد أن يعلن للأرض أن العذاب يجب أن ينتهي، ولابد من غسل درن الشياطين الآدمية.

اتجه بركة للرب، صلى كثيراً وهو يبكي.

غير أن ذلك لم يُغيّر وجهته بأن لا حل سوى المعارك؛ وهو يشتّمُ رائحة التراب مع انتعاش قوي يذكّره بالديار والأهل والطفولة..

"أين أنت الآن؟!"

يسأل نفسه، ولا يعرف حدود الأمس من اليوم.

يستمر في مناجاة المجهول، الإله الذي يسكن في مجاهيل الكون القريبة وفي حنايا القلوب البعيدة، يشعر بحالة انقباض شديد عليه أن يغادرها.

ثم يسلك طريقه تحت الغمام الليلي الممتزج بدكنة الأشياء من حوله، وهو يتدلى قريباً من الأرض كأنه يُقبّلها بحنوٍ بالغ، إلى أن يصل كوخ صغيرة مبنية من القش والأخشاب المرتبة بشكل دقيق، المأخوذة من الأشجار في الغابة القريبة إلى الجنوب الغربي من هنا، ذلك المكان الذي يحملهُ في ذاكرته ولن ينساه أبداً.

في تلك النقطة بالذات على بعد كيلومترين من هنا، كان هناك شاب في عنفوانه.. محتفلاً بدخول العقد الثالث من عمره، دون اكتراث..

كان في انتظار أحد الرفاق الجدد الذي سيسير معه إلى داخل الغابة البعيدة.. الأخرى، التي سوف يتلقى فيها تدريباته العسكرية الأولى كجندي في جيش التحرير، وحيث كانت الأحلام كبيرة، وحيث كان معنى التحرير هلامياً، لا حدود له.

لم يطل الانتظار في منطقة محفوفة بالمخاطر، فقد وصل الأخ.

سلّم عليه بحفاوة كأنه يعرفه جيداً من قبل، ومن ثم صعدا سويّا في سيارة ماركة لاندروفر يقودها الرفيق، تقطع مساحات من الأرض متنوعة

التضاريس، بين تلال ووديان، في حين كان المطر رزازاً منعشا، ليس كأمطار الخرطوم المغبّرة والمشوبة بالحذر من مجهول غامض.

كان الوقت تقريباً كهذا العصر في تل أبيب.

ثم دخل الليل عليهما.

وكان عليهما إجباراً أن يتوقفا للمبيت، ومن ثم مواصلة الرحلة في الفجر الباكر، مع أول شعاعات الشمس الجديدة، فقد أخبره مُرشده..

"إن التحرك في الظلام ليس محبذاً"

وأردف:

"صحيح أن الأوضاع ليست بهذا السوء.. ليست ثمة معارك تدور في هذه الأيام.. لكنها الحرب لا تعرف القوانين، ففي أي لحظة قد تتحول إضاءة السيارة الكاشفة إلى هدف لطلق ناري يُدشن شوطاً جديداً من الحرب"

٣

يحمل رفيقه رتبة ملازم في جيش التحرير، وهو من أبناء القبائل الكبيرة في الجنوب، أخبره بذلك، وأن الزعيم القائد الكبير جون قرنق الملقب بجيفارا الأفريقي من أقاربه.

حكى لبركة الخير كثيراً عن الأوجاع المستمرة منذ عقود، وأن الجميع يكاد وصل لقناعة..

"أن الراحة هنا لا مكان لها، فقد حُكِم على هذه البقعة من الأرض أن تظل معذبة وأن تعيش أعشابها وخضارها على الدماء"

أخبره كذلك:

"نصف الأشجار التي تراها أمامك مسقية بالدم والدموع أكثر من الماء"

وأكد عليه في إيماءة تدلُّ بأن عليه أن يتأملها بشدة:

"إنها مختلفة عن أي أشجار يمكن أن تكون قد رأيتها من قبل في حياتك.. داخل كل شجرة هنا يوجد نبض قلب حزين وجراح لا تندمل.. توجد ذكريات مؤلمة ومتاعب طويلة الأمد.. كأن الرب لا يرضى عنا أو يختبرنا"

يقول ذلك، وهو يمطّ شفتيه الصغيرتين بقوة ويدعك على رقبته المُتعرقة، في حين كان صوت السيارة يدوي في دماغ بركة، كأنه داخل فيلم سينمائي من إنتاج هوليوود..

كان مشوشاً لجزء من الوقت استمر لساعات الليل الثاني.

كأنه في حلم أو في غابة مطيرة يتخيلها في طفولته..

فأحياناً، وقد ننتبه أو لا، فإن كثيراً من وقائع وجودنا تبدو معادة لنا.. ربما عشناها في حياة سابقة أو سنعيشها مرة أخرى في حياة لاحقة.

"كما لو أن هذه الحياة سبقت بتمرين عليها..

لقد فعلنا كل شيء من قبل وعلينا أن نتبع الخطى نفسها"

حتى يكون عليه أن يخرج من الفيلم إلى الواقع، إلى المكان كثيف الأشجار، وحيث رائحة المانجو تكاد تكون هي المسيطرة، فقد وجب عليه أن ينتفض فجأة ويقفز بقوة من السيارة ليقع منبطحاً على الأرض، بناء على تعليمات رفيقه، ومن ثم عليهما أن يستمرا في الزحف أرضاً بعيداً عن اللاندروفر، ثم مضت دقائق لم يتأكد ما الذي يحدث بالضبط!

بعدها مع صوت الرصاص القوي فهم أنه دخل منطقة الخطر، خاصة عندما سمع صوت رفيقه يأتي هامساً على أذنيه وهما منبطحان.. يخبره.. بأن عليهما أن يتركا السيارة ويواصلان الرحلة سيراً على الأقدام وقبل ذلك عليهما أن يستمرا الزحف..

"إلى متى؟"

"الرب أعلم!"

ثم سمعه، هامساً:

"ستتضح الأمور ساعة يتوقف الرصاص"

ذلك الرفيق الذي سوف يُوجِّه رصاصة الرحمة إليه، يقتله على غله وحسده، وهو يقول لنفسه:

"هل كان يريد أن يجبرني على دفع ثمن تحرري، له؟"

٤

في ذلك العصر، وهو يستعد لدخول مطار بن جوريون حيث ظهر اللافتة أمامه باللغة العبرية التي يعرف أن يقرأها بدرجة متوسطة..

נְמַל הַתְּעוּפָה בֶּן גּוּרְיוֹן

كانت رحلة العودة تتويجاً لألم وذكريات خاملة، طفت إلى السطح بقوة، لم يكن لها من تبرير واضح لديه سوى الإحساس بخيبة الأمل والخذلان، فعندما ينسد الأفق أمامك سوف تديم التحديق في الأرض أسفلك.

في صالة الانتظار بالمطار فتح حقيبته، أخرج منها ديوان للشاعر محمد علي شمس الدين، كان قد اشتراه من مكتبة بالمطار نفسه، وهي ليست المرة الأولى التي يشتري فيها دواوين وكتب من مطار بن جوريون، ففي مرات سابقة اشترى كتباً لمحمود درويش ورواية "رجال في الشمس" لغسان كنفاني، وديوان نزار قباني. كلها تباع هنا.

فتح صفحة عشوائية ليقرأ:

ولكن هذا الشتاء الذي أثقلته السحائب
لم يستطع غسل حزني
ولم يستطع غسل كل الدماء التي في زوايا
الشوارع أو في زوايا القلوب
وهذي العواصف لم تستطع محو تنهيدتي في الهواء

للصدفة الغريبة أم القدر المسطّر كان اسم القصيدة "نقطة من دم المحارب الحزين".

قرأ العنوان ليستغرق في تفكير عميق، حول جدلية الحظ والقدر، الغيب والحقيقة، أين هي حدود الإكراه ونهاية الإرادة؟

لماذا قتل صديقه الذي حرره حقاً؟
هل هو حقد عرقي؟
ومن كان منهما لا يعترف بالآخر؟

أغلق الكتاب، وضعه بعيداً على طاولة مجاورة.
كانت سيدة عربية يهودية من أصول عراقية تتلصص على العنوان، يبدو أنها مغرمة بالشعر.
أمسك بدفتره الورقي، لا يحبذ الكتابة على الأجهزة اللوحية في المطارات ولا الكمبيوتر المحمول، وسطّر خربشات لم يقرأها حتى فرغ منها..

٥

على حافة الرصيف في الخرطوم، قريباً من الأشجار التي فقدت اخضرارها، كان الجالسون كثر.. وكنت واحداً منهم..
هل تتذكر ذلك تماما؟
أتعلم أنك كنت هناك ذات يوم؟
كنت أنت لا غير، وكان الشتاء يزرع خطواته بثقل في الأجساد الجائعة..
كانت أشياء كثيرة تتموج في قلب كالنهر، لم يعد فياضاً..
لم يعد ذلك النهر القديم القادر على الجريان واختراع الجداول والسنابل، ولا تلك الوديان التي تركتها حيث المرابيع الخالدة، وحيث التاريخ المنسي.
ثم أنك تستفيق من غفلتك أو أحلام يقظتك المدمرة، فتبصر الشارع أمامك، يكاد يخلو من العابرين بعد مظاهرة مدوية، فالساعة قد تجاوزت ما بعد الواحدة من صباح اليوم الجديد.
بداية أخرى، ولا جديد سوى الأحزان وبقايا الحجارة المتناثرة من معارك الشدّ والجذب بين الشرطة والطلبة وهم يهتفون..
جراحات قلب دمرته السنوات القاحلة..
البحث عن إجابة لسؤال غير محدد..
المضي في متاهات كونية معلقة، في فراغ لا هوية له.
ثم تتذكر أنك في آخر الليل، كنت تحمل دفتراً ورقياً كهذا..
دفتر مُسطّر قديم..

وأنت تفتح صفحة ما، تبدأ في قراءة ما سجلّته على الورق باهت اللون:
"أيها الوجع، أيها القلب، أيتها الظنون المتوارثة لعنك الله، لعنك الله"..

٦

أغلق الدفتر بعد أن قرأ ما كتب، شعر بأنها محنة سنوات قاتلة وضياع شخصي لا يشعر به من أحد سواه.

كيف يتاح للإنسان أن يُعبّر بوضوح عما يعتمل في صدره؟

يبدو ذلك من أصعب الأمور في العالم.

هل كان يكتب عن الضياع في الخرطوم وأيام الجامعة عندما كان يدرس هناك؟

أم يكتب عن طفولته في دارفور والبؤس الذي عاناه مع عائلته وهم يعاندون شظف آخر أيام الرخاء مع تحول الأشجار الخضراء إلى شوكية؟

أم أنه يبكي حاضره وضياعه الذاتي؟!

٧

من ثم دلف إلى بار في المطار، طلب زجاجة بحجم متوسط من الكونياك، أفرغ الكأس الأولى فالثانية، مع الثالثة.

شعر برأسه يدور..

أنه يصبح أكثر من إنسان وأكثر من تاريخ.

لعن السياسة والأقدار، وهو يسمع المضيفة تنادي الجميع بالاستعداد لصعود الطائرة.

رآها من بعيد إسرائيلية فارعة الطول، باهرة الجمال، تشبه تلك المغنية التي تمنى لو تزوجها، وإن كانت أنحف منها قليلاً.

ثم ضحك مع نفسه بحياء، وهو يديم التحليق في عالمه الخاص، يعيد التفكير في تجربته مع الكتابة الأدبية على أنها ساذجة لا معنى لها، فطريقه الوحيد وحلمه هي السياسة لا غير.

"فالطريق هو الذي يقودنا إليه، وعلى الإنسان أن يطيع نواميس القدر"
غريب أن يعتقد إنسان علماني بهذا الشيء، لأن المنطق يقول..
يجب أن يؤمن بالنظام والاستراتيجيات والخطط، تلك التي تقال في المؤتمرات والندوات.
"لكن عالمنا اليوم أكبر من أي خطة أو نظام"

٨

اتجه للطائرة مع بقية الركاب، المضيفة الباهية تُبادله الابتسامات.
بمجرد أن جلس عند الجزء الأمامي من الطائرة المخصص لرجال الأعمال، كان قد أحس بالنعاس يحاصره ورغبة في مزيد من الشراب.
أشار للشابة اللطيفة كما توقع أولاً، بأن تُحضِّر له قائمة المشروبات الكحولية، وهو يطالعها في كتالوج ملوّن، مرخياً الكرسي للوراء قليلاً، في حين أظهرت الوقائع الآن أنه أمام كائن عنيد وقاس القلب، ليس لطيفاً وهشاً كما كان يرغب، إنها عصبية وغريبة. يبدو أن لديها عقدة من الجنس الأسود، فبعد دقائق كان تلاطف رجلاً أبيض البشرة.
تنساها، يحاول أن يجمع بعضاً من تفاصيل ما خرج به من رحلته لإسرائيل، هل حققت أي اختراق جديد؟
ليس من أمر مهم تقريباً على الصعيد السياسي، سوى ذلك الشاب الذي أعلن أنه سوف يتبرع بقيمة حفل مسرحي يقيمه لصالح النازحين، يقولون إن له شعبية هنا في تل أبيب، كوّنها من خلال مسرحياته التي يدعو فيها إلى لفت الانتباه لما يجري في دارفور.
سكب الشراب دون أن ينتبه للنوع الذي كان قد طلبه، غفا وهو يغلق الحزام مع ارتفاع الطائرة.
كان ذهنه شبه معطل مشغول بنوع من الحنين الجارف لمجهول غريب، غموض، لا يمكن الإمساك به؛ مساحة ما بين الخسارة والألم والحرمان.

٩

في هذه اللحظات تذكّر والده الذي مات وهو لم يتجاوز وقتها العاشرة من عمره، ما اضطره لكي يبدأ سباقاً محموماً ضد الحياة، ولصالحها، في عالم متعثر وقاس.

إنها التجربة صقلته من وقت مبكر، إلى أن حقق معجزة لنفسه بأن يدخل جامعة الخرطوم ويدرس مجالاً قد يراه الناس لا قيمة له؛ العلوم السياسية.

"فالسودانيون يعتقدون أن السياسة فعل تلقائي وأن الكل يفهم فيها، ومع ذلك فهم أفشل الشعوب في الممارسة السياسية، الأحزاب كاسدة ولا تخلق زعماء ولا أفكار والتكلس أصبح سمة الحياة السياسية في البلاد، وحيث لا مجال للتفكير في مناخ مفتوح مشبع بالأمل"

١٠

لم تكن الرحلة سهلة على أي حال، كانت السنين تسير مرات مسرعة وأحياناً تبطئ كثيراً، وكان العثور على المال من أصعب المهام على صبي أو شاب يريد أن يثبت أنه حفيد سلطان وحاكم قديم.

"في الأمس القريب كان المجد التاريخي يشفع للكثيرين أو القبيلة؛ الآن توجد قبائل جديدة هي: المصالح المادية المعلنة، الولاءات باسم الحكومة والأجهزة النافذة والقمعية، هؤلاء هم الذين يديرون البلاد ويمتلكون مفاصلها، هم السياسيون الفعليون، ومعهم تغيّر مفهوم السياسة في حد ذاته صار مختلفاً، على الكتب أن يعاد كتابتها من جديد لكي يفهم الناس ما هي السياسة في هذا البلد؟ "

"حتى لو استخدموا القبيلة الآن فهي وسيلة لتمرير المصلحة، إنهم لا يحبون أقاربهم"

في تلك الأزمنة كنت ما زلت ذلك الطالب اليافع بالجامعة..

كان ضوء الفوانيس القديمة قد أنطفأ.. ودخلت وحدك مدينة الإضاءة الاصطناعية.. لتجد نفسك جالساً تحت عمود الإنارة الطويل، في الشارع الذي كان ذات يوم يستقبل اللورد الإنجليزي كتشنر وهو يتقدم ليفتتح المدرسة الجديدة.

١١

ها هو اللورد المحترم ببزته العسكرية، في عينيه لون الانتصار، وقلبه ينبض سريعاً..

كان قد أنهى مطالعة الصالات العالية ذات السقوف المقببة، والحجرات المستطيلة المجهزة؛ كما لو أنها في أكسفورد.

ثم قال بعد أن اختتم جولته في المبنى، وبعد أن حيّا الطلبة الذي لبسوا قمصان بأكمام قصيرة وأردية أقصر:

"نريدكم أن تكون خير من يصنعون المستقبل لبلدكم.. فرق بين أن تكون متعلماً وأن تكون جاهلاً"

تأفف اللورد بطريقة مزعجة، وخطا خطوات عسكرية منتظمة حتى وقف بجوار أول طالب في الصف، وسأله: "

أخبرني من أي قبيلة أنت؟"

وردّ قائلاً: "

"الـ.... "

قبل أن ينطق بها.. صفعه اللورد على خده، لكنه لم يطح به على الأرض.. فقد كان الطالب قوي البنية، ضخماً كثور.

عاد كتشنر إلى الوراء... ضحك هيستيرياً.. هائماً في أحلام لم يطلع عليها أحد غيره قبل أن يخاطب الطلبة مجدداً: "

لا قبيلة بعد اليوم.. هل فهمتم؟"

١٢

منذ ذلك اليوم بدأت لعبة السياسة، زجّوا بهم في هذا المبنى لكي يجهزونهم حتى يصبحوا صنّاع المستقبل في البلاد، أرادوا لهم أن يكونوا دُمى على طريقتهم؛ أولئك الغزاة؛ لهذا ناضل السلطان علي دينار في دارفور إلى الرمق الأخير؛ إلى معركة برنجية في ٢٢ مايو ١٩١٦ التي فقد فيها اثنين من قواده وهما "رمضان بره" و"سليمان علي دلال" مع مئات المجاهدين.

في يوم ٢٣ مايو أغارت الطائرات على قصر علي دينار في مدينة الفاشر ولأول مرة استخدمت مدافع المكسيم في معارك الإنجليز.

استبسل الرجل القوي بأن أصاب الطيّار الذي كان يرمي القنابل من علٍ في فخذه، برصاصة صوبّها بمهارة فائقة، كقدراته في نظم الشعر ومدح المصطفى عليه السلام.

ومن ثم خرج السلطان إلى منطقة مجاورة (بئر طويل)، حيث ظلّ الغاصبون يطاردونه لينتقموا منه، إذ كيف يتركونه، وقد حرمهم النوم لأكثر من خمسة عشر عاماً خلت، محتفظاً بسطوته في الإقليم الغربي؟!

دارت المعركة الأخيرة في ٦ نوفمبر، حيث تم تبادل الطلقات النارية بين الجيش الغازي والسلطان ورجالاته وراء إحدى التلال، إلى أن وقع القدر المحتوم، سقط علي دينار شهيداً، وجهاً جليلاً وقوياً انثقب في الوسط عند الجبهة، وكان نجله "محمد الفضل" بجواره وقد جُرِح في قدمه، في حين بقي الابنان الآخران حسين وسيف الدين ومعهما "حسن سبيل" حاجب بلاط السلطان، يقفون جميعهم بشجاعة ورزانة في مواجهة قدر الله.

تعود صورة مقابر الشهداء الذي يُقدّر عددهم بأربعة آلاف شهيد لبركة الخير، وقد زارها في أيام مبكرة من حياته، بمنطقة سيلي شمال الفاشر.

تتمازج الصورة القديمة مع كتشنر المتبختر، وهو يكلّمه من وراء ما يقارب ثمانين عاماً؛ بأن لا شيء تغير في هذه البلاد، وبعدها بسنوات وجيزة عمل الحكم العسكري على رسم كل الأشياء بطريقة مزعجة، لم يعد ذلك الوطن على عهده الأول.

تبخرت أحلام الرجال، علي دينار والذين على شاكلته، لم يعد لهذه البلاد من وجيع سوى الاستمرار في البكاء والنواح.

١٣

لطالب يُجرّب حظه في الخرطوم لأول مرة، كان عليه أن يفهم التاريخ بشكل مختلف..

"لأن السياسة هي أن تفهم ما حدث، لتتوقع ما سيحدث"

"السياسة هي ذكاء فطري تقوم بصقله، وليس مجرد حكم نقرأها في الكتب والمجلدات ونظريات فلسفية"

ترى نفسك من بوابة السنين، وقد دخلت المبنى الذي شُيّد قبل أكثر من تسعين سنة.

تطالع الأقواس المقببة في السقف..

وبوصفك مهووس بعبقرية المكان؛ كما تسميها؛ فقد حاولت بذهنك الغوص بعيداً في الزمن، تحاول استرجاع الطريقة التي تمت بها عملية البناء.

١٤

ثمة رجال سود البشرة، جيء بهم من بقايا الأسرى الذين حاولوا الهروب في معارك الإنجليز ضد السودانيين، من كرري بتاريخ ٢ سبتمبر ١٨٩٨ ومناوشات أخرى بعد المعركة الفاصلة التي انتهت بهزيمة رجالات المهدية، في أم دبيكرات التي وقعت في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ جنوبي الخرطوم.

وقف كتشنر يخاطبهم، وهم مُقيدي الأيادي بلغة فجة، ونبرة غضب.. قائلاً:

"الآن بإمكانكم أن تقولوا أننا ساهمنا في بناء بلدنا.. الذخيرة التي أضعتموها في المعارك الخاسرة كانت من الممكن أن تُشيّد عدة حجرات للدراسة، في هذا المبنى"

أراد أحد الأسرى أن يُظهِر مهاراته في المعارضة، الصراخ ضد المستعمر.. المغتصب.. قال بصوت مسموع للجميع:

"صه أيها الكافر الملعون"

لم يعره كتشنر أي اهتمام، واصل خطابه الذي أنهاه بقوله:

"كل من يريد أن يعود إلى أهله سالماً، عليه أن يرفع ألف طوبة على الأقل لكي يثبت أنه وطني"

ومضى الليل يتلوه النهار، فأيام تعاقبت، وبعد ستة أشهر كان المبنى قد ارتفع مهيباً على نمط العمار الفيكتورية العتيقة في بريطانيا، ليجلس اللورد كتشنر في أول الظهر يُملي على مساعده من الجنود، رسالة إلى الملكة فيكتوريا:

"هانحن قد أنجزنا أول صرح يُطهِّر هؤلاء النجس من دنسهم.. المبنى رائع بجد، ولمن يتأمله من ذوي البصيرة سيفهم أنه سيظل محافظاً على هيئته ومتانته لمئات السنين.. بريطانيا لا تلعب.. إنها تفكر في المستقبل"

وواصل:

"الذين سيتخرجون من (كلية غردون التذكارية).. وهو الاسم الذي اقترحتموه وعملنا به بناء على توجيهكم.. هؤلاء السعداء سوف يحررون ذواتهم أولاً، من براثن الجهل، وسيساعدوننا في مهمتنا القادمة.. أمامنا مشاريع لابد أن تنجز، ولكن هذه هي الخطوة الأولى"

"نأمل من جلالتكم أن تمنوا علينا بالرضا، وأن تسمحوا للمتميّزين الذين سيتخرجون من الكلية بإكمال الدراسة في لندن.. هذا ضروري كما تعلمون، وكما فعلنا في مستعمرات أخرى، لابد من تطويع الحديد بالمزيد من السخونة.. حرارة العلم لا يوجد مثلها"

١٥

راح يتخيل أن هؤلاء الأسرى، لو أنهم بدلاً من الهزيمة كانوا قد انتصروا في المعارك، لو أنهم جرجروا عساكر الإنجليز جرجرة ورموا بهم

في خنادق حفرت بعمق ثلاثة أمتار على الأقل، ليموت (الكفار) وهم أحياء.. ما الذي كان سيحدث؟

ثم قال بركة الخير لنفسه: إن المشهد يتطلب منه تخيلاً عميقاً، يتطلب تحرير الخيال..

"فنحن نتخيل بناء على الوقائع، ما نرى وما نعرف، ما نفهم وما نعتقد.. وما حدث.. لكن أفضل الطرق لفهم التاريخ وصناعة سياسة جديدة هي أنه يجب علينا أن نتخيل بشكل جديد، معكوس، لكي نفهم التاريخ على نحو أفضل"..

وهذا ما لا يحصل للأسف.

رغم ذلك سوف يستمر بركة، في التخيل، الذي حدث أن جنود الخليفة عبد الله التعايشي، كانوا قد انتصروا على الجيش الغازي، وأبادوه عن بكرة أبيه، والذين لم يبادوا رموا بهم في الخنادق المستعرة ناراً.

قاد الخليفة يقود المعارك باستبسال شديد.. لا تشكيك في ذلك..

أليس هو خليفة المسلمين، خليفة المهدي المنتظر؟!

ألم يكن كل الخلفاء على "شاكلته" يقودون الجيوش وينتصرون في المعارك؟

ثم أمر الخليفة جنوده بأن يرفعوا الرايات، الحمراء، الزرقاء، الصفراء، كل الألوان..

ثم خطب فيهم خطبته المشهورة:

"اليوم أتم الله كلمته بالانتصار على جيوش الإمبراطورية العظمى، ألم تروا كيف أن كيدهم ولى، وتضليلهم قد ذهب إلى سقر"

وأردف:

"افرحوا يا ورثة الله في الأرض.. افرحوا يا أهل آخر الزمان.. قبل أن يأتي المسيخ الدجال حاملاً ناره وجنته.. وقبل أن تعم الفتنة على وجه البسيطة"

وختم خطبته في المجاهدين أهل الله:

"إنه السودان الأرض الموعودة التي جاء فيها مهدي الله.. وجئت أنا خليفته أُدين بدين الحق، وأرمي بالسهم كل من يريد للصراط المستقيم أن يعوج"

ثم جلس الخليفة على (الكركر)، وهو يسبّح بمسبحة اللالوب الطويلة..

"قدوس رب الملائكة والشياطين"

ثم إذا سمع بعض من رجاله كلمة الشياطين، تخرج من فم رطب.. قالوا بصوت واحد:

"إنا نستعيذ بك من كل شيطان مارد"

لم ينته الأمر إلا بصلاة الفجر، حين جاء رجل يدعى "حسن ولد الأزرق" ليخبر الخليفة، بأن جثة كتشنر جاهزة للإفطار:

"سيدي خليفة رسول الله، لقد رتبنا المائدة.. ووضعنا التوابل التي تحبها، من حبشية وهندية.. وزيّنا الطاولات بورود صناعية وطبيعية"

وسأله الخليفة:

"ومن أين لكم بالورد؟"

فأجاب:

"سيدي خليفة رسول الله.. أنسيت أننا قطعنا دابرهم؟ وألسنتهم؟ وجنينا ما عندهم من خير وشر وشوك وورد؟".

نظر الخليفة فرأى الورد.

نعم كان الغزاة قد جاؤوا ومعهم كل مستلزمات بهجة الحياة، بما فيها الورود التي سوف يزرعوها في الأرض الجديدة.

أرخى بركة الخير رأسه في مقعد الطائرة، صبّ كأساً أخرى، رأى رجلاً يناديه الخليفة بعيسى ولد الحلو، وهو أحد خلفاء المهدي.

كان الحلو قد أبدى حماساً لتناول الوجبة الجاهزة، فقد سال لعابه وهو من عشاق الأكل، بغض النظر عن نوعية اللحم، وما دام الخليفة قد قال حلالاً طيباً فسوف يأكل، ليس من مشكلة عنده.

سمع عيسى الخليفة يُشمّر متكلماً يدعو الجميع للوليمة، وهو يتمتم:

"بسم الله.. سموا الله حتى يبارك سبحانه في الطعام الذي هيأه لنا"

١٦

ذلك الصباح هبطت الطائرة في باريس، التي استيقظت للتوّ من أعمال إرهابية جديدة، يبدو العالم مضرجاً بالدماء والدموع ومتاريس الأمن لا حدود لها.

تختلط في رأسه المشوش، صورة علي دينار مع الخليفة عبد الله مع كتشنر مع عمر البشير والأرجنتيني "لويس مورينو أوكامبو" مدعي المحكمة الجنائية الدولية عن جرائم دارفور.

أخذ سيارة أجرة في طريقه إلى مستقره، لا يحفل بسوى الأوجاع التي غزت رأسه، وهو يشعر بألم عميق لا يمكن فهم سببه، لم يحس بمثله من قبل، كأنها ضربات في القلب.

وأمسك بقوة على المكان المخيف، الذي إذا تعطل كانت النهاية.

رأى أمامه أطياف حياته في شريط مصوّر وسريع، ولم يكن ليستبين حقيقة ومعنى وجوده في العالم، هل هو في باريس؟

أم ذلك الطفل الصغير الذي يتجول بجوار الوادي برفقة أمه يحضران حطب الطهي؟

كيف تسرّب الزمن بهذه العجالة؟

هل صحيح أنك كنت في الخرطوم وبعدها ذهبت إلى المعارك، إلى أن أصبحت الزعيم المسلح، ثم سافرت إلى أوروبا لتصبح نجماً سينمائياً واستعراضياً ممثلاً مدفوع الأجر ، في حروب بلا نهايات.

ثالث عشر:
التوقع الأخير لا يحدث

١

في يوم الخميس الأول من أبريل ٢٠٠٤ حدث كل شيء.

توقف الزمن لبرهة.

كما لو أن كوناً جديداً سوف يجري خلقه في تلك اللحظات الهاربة خارج تلافيف الغيب.

انتهت المحرقة، المجزرة، الهولكوست بأي لغة فسّرت.

سمع رحمة الله بالخبر وهو يقوم بتنظيف بندقيته في معسكر التدريب التابع لقوات المسلحين المتمردين، الذين انضم لهم قبل أيام وجيزة.

كان الخبر مفزعاً، فهل يا ترى تبقى من أحد من أهله، أم ماتوا جميعهم؟ خاصة أن الأرقام غير واضحة ولا يمكن التنبؤ بها، حتى لو أنك داخل هذا الجحيم.

راح يتذكر أخته خديجة الفيلسوفة والعالمة الصغيرة، كما يلقبها.

هذه الفتاة الرائعة التي لا تشبه تكوينات القبح الذي صنعته سنوات الحروب.

ثم يرى أمامه حليمة وهي تحمل أطفالها، وزوجها طاهر ذلك الرجل المُكّد الذي ترك تعليمه لكي يُربّي أخوانه الصغار اليتامى، علِم قبل شهور أنها أنجبت طفلها الأول واسمته عليه "رحمة"، فالعادة أن يُسمى الابن الأول على أحد أخواله المفضلين لأمه، وهو نوع من الوفاء الذي يطربه.

٢

لم يلتق رحمة بحليمة إلا في ذلك اليوم الذي دخلت فيه القوات المتمردة الخرطوم من جهة أمدرمان.

دارت معارك ومناوشات كثيفة، بعض المسلحين وصلوا إلى الجسر الفاصل بين غرب الخرطوم وأمدرمان؛ بحيث يمكن العبور إلى القصر الجمهوري؛ حيث يدار الحكم؛ في الجهة الثانية.

لكن المعركة انتهت بخسارة المسلحين، تم التنكيل بهم وقُبِض على المئات منهم، ليزجوا في السجون، وحُوكم الزعماء بالإعدام.

قبلها في ذلك النهار، عندما كانت حليمة تحتضن ابنتها رحاب الخائفة، فوجئت برجل يقف أمامها.

عرفته، وإن كانت قد حَكّت عينيها أكثر من مرة للتأكد، وهي تزيح غبش الرؤية..

هل هذا هو أم شخص آخر؟

رحمة شقيقها الذي غاب، منذ أن قال لهم إنني مهاجر إلى الجبل لأشارك في الكفاح المسلح، وبكت العائلة، فالذين يذهبون إلى هناك في الغالب لا يرجعون مرة أخرى إلى الديار، فهم إما يموتون في المعارك مع الجيش الحكومي؛ أو يسافرون إلى أوروبا فلا يعود لهم من ذكر.

مضى رحمة ولم يعد سوى ذكرى.

في تلك الليلة وفجرها، يوم المحرقة، وحيث جرى ما جرى، كان من الصعب للإنسان أن يتذكر أي شيء سوى الأحلام الهاربة، في زمن لا يمكن

العثور عليه إلا في الخيال البشري؛ الذي يتضاعف دوره في لحظة الألم فيُركّب عشرات المشاهد ويختصر الحياة في شريط سينمائي عميق الأثر.

رأته حليمة وهو يهرب من النار ولم يهتم بهم، كأنها تريد تقول له..

"لقد تركتنا يا شقيقي"

لم يكن ذلك قد حدث كانت تخيلات الفزع الأكبر.

٣

احتضنها بقوة، وهي تذرف الدموع.. وهي تبكي.. ورحاب بينهما.

لم يكن له أي خبر بهذه الطفلة من قبل..

أوضحت له حليمة:

"ابنتي منهم هؤلاء المجرمين؟"

أردفت بدمع غزير:

"ماذا أفعل سوى أن أحبها إنها لحمي ودمي.."

لم تنتبه إلى أن البنت تسمع وتفهم ما يدور.

لم يسبق لها أن قالت ذلك أمامها، وهناك من يعرفون القصة في الحي، لكن قلة تتحدث به، فالناس مشغولة بأحوال أخرى، وربما كان هناك الكثيرون على شاكلة رحاب في الحي من بنات وأولاد الجنجويد في تلك الليالي الغاضبة.

جلس رحمة على طرف العنقريب، يُكلّمها كيف أنه وصل إلى هنا..

..هارباً..

لم يقل الكلمة بالمعنى الدقيق، لأن الحديث عن الفرار من المعركة للرجل الثاني في جيش المتمردين عار لاشك فيه.

اختصر الحكاية، بأن جيشهم قد هُزِم، والآن هو هنا، بعد أن عرف أن قارسيلا هو الحي الذي يُضم القادمين من تلك المنطقة البعيدة ذات يوم يبدو كذاكرة غائبة، لا وجود لها في حيز الواقع.

جاء إلى هنا فقط بالأمل، لأن أخته قد تكون ماتت؛ طبعا؛ مع الآخرين.

جاء فقط ليبحث عن رائحة التراب والأهل في مدينة الغرباء، الخرطوم، وهو لا يحتمل وجود حي باسم قارسيلا في هذا المكان..

"فثمة قارسيلا واحدة في العالم جديرة بالاحترام والحب"

٤

ما أن وصل أطراف الحي وهو يلبس زيه العسكري، فقد أسرع إليه رجل تعرّف عليه فوراً، كان من بقايا أصدقاء ذلك الزمن القديم، رغم أن رحمة لم يتذكره، لقد تلوث عقله بكيمياء المعارك والحروب، وربما لأن الكوماندو معروف في شاشات التلفزة فيسهل على الناس معرفته.

أدخله الرجل إلى غرفة بيته، حلف عليه بأن يشرب عصير ليمون حار، فلا كهرباء هنا لتبرد الشراب، ومن ثم قدّم له عراقي، لبسه سريعاً فوق البانطلون العسكري، ولم يخلع البوت الكبير.

أخبره الرجل؛ الذي أدرك أن رحمة يجهله؛ بأنه ذلك الفتى الذي صحبه في صباه الملقب بـ "شاشي" أسوة بـ "شاشي كابور" بطل السينما الهندية لفتوته الخارقة.

احتضنه بقوة هذه المرة، وتذكر اسمه يناديه..

"أخوي رحمة"

كان اسمه كذلك رحمة. وربما لهذا السبب لم ينسَ الرجل لتشابه الاسماء بينهما.

وسأله إن كان من أحد من أقاربه على قيد الحياة على حسب علمه، في أي موقع من العالم.

أخبره بأن أخته حليمة هنا.

قالها بتحفظ شديد، وعدم رضا، لم يفهمه رحمة إلا لاحقا.

قاده في دورب الحي الوعرة في شمس ساخنة، إلى أن وصلا البيت المحدد، طرقا باب الزنك وسط ضجيج الرشاشات والمدافع من قوات الجيش التي بدأت في محاصرة الحي، يبدو أن المعركة قد خُسِرت إلى الأبد.

مع ارتفاع صوت الرصاص ودوي الراجمات، سارع رحمة الآخر للجري ينقذ نفسه، في حين كان الكوماندو في حضن أخته غير حافلين بأصوات النار..

بشكل مختصر كانت قد قدمت له سيرتها في تلك السنين الماضية.

٥

"هجموا علينا لم أعرف أين أنا بالضبط، في الجنة أم النار، كنت اعتقد أنني مت يا رحمة"

هكذا بدأت قصتها، تريد أن تروي حكاية طويلة والوقت لا يسمح، فالرصاص يرتفع حماقة، والجنود خبطهم يتضح وهم يصيحون..

"الله أكبر"

ورجال الأمن المزيّفين بالألبسة المدنية ينتشرون في الحي..

قالت له:

"يجب أن تسرع بالفرار سوف يقبضون عليك إن لم يقتلوك"

تلفت في البيت، لا يوجد مكان يمكن الاختباء به، فالموقع مكشوف وصغير، والحي كله بات ملغماً الآن.

لا منجاة منهم.

فضّل قصاد هذا الاستنزاف الذهني أن يسمع لها وهي تخبره، أنها فعلت أشياء كثيرة خاطئة، باعت ضميرها، وهي الآن حزينة لا تعرّف كيف تُكفّر ذنبها، لكن ذلك حدث.

٦

قبل أن يسمع منها بقية المرويات، ما الذي جرى معها، كان أحد الجنود يضرب ببوته على الباب الخارجي بعنف، حتى رماه على الأرض، كأنه عاصفة شديدة في يوم مُستّلٍ من غضب إلهي.

عرفه الجندي فوراً..

"إنه الرجل رقم اثنين في قائمة المطلوبين، بل هناك مكافأة مخصصة للقبض عليه، لقد نشروا صوره في التلفزيون منذ ربع ساعة"

الجندي قبل أن يفعل أي شيء وبتلقائية، ودون أن يتحسب إلى أن الرجل كان يحمل بندقية كانت معلقة في ثيابه من قبل وهي الآن مركونة إلى برميل الماء البلاستيكي؛ أخرج ورقة من جيبه ليتأكد من مطابقة الوجه الذي أمامه للصورة.

نعم رآه في التلفزيون كثيراً، لكن هل معقول أن هذا هو؟!

هل يمكن العثور على الصيد بهذه السهولة؟!

راح يفكر ما الذي سوف يفعله بالجائزة الكبيرة مليار جنيه سوداني..

سوف يشتري بيتاً وسيارة وزوجة..

وصوّب بندقيته باتجاه رحمة، صائحاً:

"مكانك"

تحرك الكوماندو المدرّب قافزاً لسقف الغرفة، كان قد أمسك بالبندقية الرشاش، لم يطلق منها رصاصة، بل هوى بها على رأس الجندي الشاب، ليريده طريحاً على الأرض.

تأمله فإذا به من بني سحنته..

"هذا الجبان المرتزقة!"

بصق على وجهه، قال له:

"لن أقتلك أيها الوسخ، هيّا إلى أسيادك"

ثم قفز من عند الحائط، وهو يُكلّم حليمة من بعيد:

"مع السلامة يا أختي.. سوف نلتقي إن كان في العمر بقية"

٧

في البداية اعتقد أنه قد هرب من المعركة الخاسرة، وهنا يقتضي التكتيك العسكري.. الانسحاب.. لا يسمى باللغة العظيمة للعساكر هروباً.. ثم الالتجاء

إلى أقرب نقطة آمنة، ومن ثم التحرك إلى الموقع الذي يتيح لك أن تدخل أرض المقاومة من جديد، حيث يبدأ برنامج عمل حقيقي لمعارك قادمة.

لكن الأشياء قد ارتبكت، تلك الخيانة التي ارتكبها القمر، كان يفكر في تلك الأغنية التي كان القائد حنيّن يرددها في الطريق إلى الخرطوم، في ليل مقمر..

القمر بيضوى وانا شن بلانى بي النجوم
غنوا يا سلام سعادة لينا تدوم
عشان ام زومة باسافر الاتنين
عشان ام زوم انا باسكن الخرطوم
عشان أم زومة انا بغزو لي الخرطوم

"لكن القمر مارس خيانته علينا، وقف في صف الحكومة والخونة، كان بالإمكان الاكتفاء بضوء النجوم، فهي تستطيع أن تنير الدرب لمن أراد، اعتمدنا على القمر فخاننا ومن ثم خانتنا النجوم ولم تحفل بنا"

ظل رحمة يكلم نفسه، لا يعرف إن كانت المعركة قد بدأت من جديد أم انتهت.

سمع جلبة من الناس، أصواتهم تبتعد وتقترب، يتناقلون قصصاً عن القبض على زعيم المتمردين، وأنه تمّ عرض صورته مجنزراً في التلفزيون، وبعضهم يتحدث عن المكافآت المالية المرصودة للإدلاء بأي معلومات عن القادة العسكريين.

كان وجهه مغطياً تماماً بالثوب الأسود، وهو يحاول أن يسلك أزقة بعيداً عن الأعين، لكن كيف له أن ينجو في هذا النهار؟

فما الذي زجّ به في الأساس ليدخل إلى هنا؟

لو كان قد ولج إلى عمق المدينة، كان سوف يختفي ويذوب مثل ملح في الماء، لا أحد سيعرفه، رغم أن الأقوال التي سمعها تشير إلى أن المئات قُتِلوا لأنهم فقط يشبهون أهل الإقليم المغضوب عليه؛ بظن أنهم جنود في الجيش المتمرد أو ربما تنكيلاً..

"ليس من السهل التأكد من نواياهم، فهم يمكن أن يفعلوا أي شيء بأوامر السادة الذين يختفون الآن أين هم بالضبط؟"

وبقدر ما انشغل قليلاً بمصير القائد أين هو؟ كان مشغولاً بنفسه.

لقد جاء إلى هنا باعتبار أن هذا الحي يمكن أن يُشكِّل له هروباً سهلاً من المدينة باتجاه الصحراء الواسعة، باعتباره يقع في الطرف، لكن الوضع بات أكثر تعقيداً، لأن مئات الجنود دخلوا هنا أيضا، يبحثون عن أقارب لهم.

الضحية الآن هم سكان الحي الأبرياء، الذين ربما يشهد عما قريب مجزرة حقيقة.

٨

التوقع الأخير لم يحدث.. سرعان ما صدرت أوامر من جهة عليا في الجيش بعد ساعة، بأن يتم الانسحاب من الحي سريعاً، وأن يكتفي الجنود بمن قبضوا عليهم من المسلحين الهاربين من جيش التمرد.

فُسّر ذلك لاحقاً على أنه تمّ بعد مفاوضات ناجحة وسريعة خاضها الحاج قارسيلا، سعد.. الأب الروحي للحي.

٩

سمع رحمة وهو يندس وراء دكانة النجار، خلف أحد البترينات تحت التصنيع، أن الرصاص والمعارك قد توقفت نهائياً..

كان الناس يتكلمون بأن الحاج قارسيلا تدخّل فعلياً في الأمر، وأن رجال الحكومة ربما يسمعون له هذه المرة بخلاف مرات سابقة، لأن هناك مسؤولاً يثق في الحاج سعد، هو في الأساس من أبناء دارفور، وصل قبل قليل للحي.

المسؤول الذي يتولى منصباً كبيراً في جهاز الأمن، هو السبب وراء الوساطة الناجحة..

١٠

"الدم يميل لبعضه إلا عند الأنجاس، كما ذلك الجندي الذي حاول قتلك"
كان رحمة يقول لنفسه، وهو يتنفس الصعداء أن الأمور قد تجري بخير الآن، وحيث لا ضمانات.
سمع صوت يناديه من قريب..
تحسس بندقيته فربما احتاج لها.
قبل أن يمسك بها جيداً، اكتشف صاحب الصوت؛ إنه شاشي.
كيف عرف أنه هنا؟!
يصيح فيه:
"الحاج قارسيلا يطلبك.. ويقول لك إنك في أمان"
جرّه بيده، ينتشله من تحت الأخشاب المتكومة أمام المنجرة وهو ينفض ثوبه من نشارة الخشب.
حدّثه وهما في الطريق..
"جيش الحكومة قد غادر الحي، الآن الأمور بخير ليس من خوف"
صمت قليلاً، واصل:
"قارسيلا كلمته مسموعة، هم يثقون فيه للتسوية، لقد أخذوا العدد الكافي من الذين سوف يتم عرضهم في شاشات التلفزة على أنهم القتلة، لم يتركوا من رجل أسود في الحي"
وسأله رحمة:
"لكن هل أخذوا جنودنا، أم أيّ شباب من الحي؟"
فرد رحمة الآخر:
"لا أعلم سيدي.. قارسيلا هو الذي يملك المعلومات يمكن لك أن تسأله عندما نصل إليه".

رابع عشر:
شيء يتغلغل لا يمكن فهمه

1

تغيرت كل الأشياء، لم يعد الزمن ذلك الزمن..
تراجعت الغابات.. الأمطار.. الوعود الطيبة..

أصبح الملوك والسلاطين أناس عاديين يمكن للدولة أن تزجّ بهم في السجون..

الرب وحده يراقب كل شيء ويصنع كل شيء..

بين الصحو والكوابيس التي تشبه طبيعة الحياة، كانت خديجة لا تزال تحت تأثير التخدير اللذيذ لمهزلة الوجود.

كان الهواء البارد يضرب وجهها المشوّه بخربشات لا تزيده إلا بهاء، فيشعرها بالانتعاش، في حين بقي الشاب "محمد نبي غلام" بجوارها، في انتظار وصول طبيب من اليوناميد، سوف يساعد في شفاء الفتاة بأسرع وقت ممكن.

هذه الأنثى التي دخلت قلب نبي وجعلته يرى فيها عالماً غريباً لم يسبق له أن أحسه من قبل.

هل يمكن للإنسان أن يعرف قدره؟

كان يفكر وراح يسرح في بعض من ذكريات طفولته وصباه إلى اللحظة..

هل كان ذات يوم قد توقع أو فكر أنه سوف يتزوج من فتاة سمراء بهذا الجمال الإلهي؟

كان يديم النظر إليها وهي تستمر في حكاية قصتها، دون أن يهتم بالقصة في حد ذاتها، مدى مصداقيتها أم كذبها!

أين الواقع أو الخيال!

فقد كان يشغله جانب واحد من كل الصورة، خديجة لا غير.

لقد سمعها تنطق باسمها بتنغيم جعله يشعر بأنه يحلق في فضاءات لاهور البعيدة ومن ثم يحل قريباً من بيشاور، وحيث الأرض هنا تشبه الأرض هناك.

وحيث الحروب هنا هي الحروب هناك.

البشر الذين يقتلون بعضهم لأتفه الأسباب..

المصالح التي لا حصر لها. كلما ماتت مصلحة ولدت غيرها.

كأنه يجري وسط تلك الغابات المتاخمة للمدينة، أو يحل هنا ليس من فرق.

هل ولد ذات يوم في دارفور واختاره القدر ليصرخ هناك في البلاد البعيدة التي جاء منها؟!

٢

ترك لرأسه العنان في أن ينشغل بالتخيلات الجميلة، إلى أن وصل الطبيب؛ وهو شاب من رواندا.

أجرى الفحوصات العادية ووضع ضمادات لاصقة صغيرة في الوجه، كأنه يرسم لوحة فنية في إطار باهر.

قام بحقن خديجة حقنتين في أماكن حساسة، حتى أن نبي شعر بالغيرة وكاد أن يزيحه جانباً ليقوم بذلك، رغم أنه لا يعرف في عمل التحقين.

رفع الطبيب رأسه وهو يسحب سماعته ليخبره:

"هي بخير الآن، دعوها تستريح قليلاً"

استخرج رجل يرافق الطبيب، من داخل صندوق السيارة الأبيض الكبير، سريراً مُطبَّقاً، فرده داخل نقطة البوليس.

حمل نبي خديجة لترقد على السرير الطبي.

٣

وجدت الفرصة لكي تنام أخيراً بعد مسير لا تعلم عدد ساعاته ولا أيامه، وظل نبي بجوارها يحرسها، وهو يشعر بوشوشات في قلبه، لا يُدرك كيف تعمل أو كيف يمكن التحكم فيها!

عليه فقط أن يطيعها ويستجيب لها.

كانت هالة من الضوء تُنسّجُ في المكان، يحسها نبي أيضا.

يرى فيها أشجاراً كثيفة تتحرك، لا يعرف أن كانت هنا أم هناك في بلاده.

ومن ثم يرى عدداً من الرعاة يسدرون في الإقليم تتبعهم إبلهم وهم ينشدون كلاماً غير مفهوم بالنسبة له، غير أنه أحبه.

ورأى مجموعة من الرجال يستخرجون الصمغ من الأشجار وهم يضربونها بالفؤوس..

تلك التجارة التي صار ضباط اليوناميد بارعين فيها وهم يشترون الصمغ بأبخس الأثمان من هؤلاء الناس البسطاء ليبيعونه في أسواق العالم الكبرى..

لقد خبر نبي في هذه المدة أموراً كثيرة لم يكن ليعرفها من قبل..

إن الفساد هو سمة الإنسان كلما ارتفع منصبه.

إنهم يسرقون كل شيء هنا..

الأخشاب، الطلح الذي تستخدمه النساء السودانيات في الدخان وجعل الجسم طرياً ليناً..

العرديب ذلك المشروب الذي يشفي من أمراض مستعصية ويزيح حمى الملاريا، لقد جرّبه في أحد المرات فحقق فائدته.

ينهبون كذلك محاصيل الدخن والفول السوداني والذرة وحب البطيخ والكركدي، ونبتة التبغ.

في السنوات الأخيرة صارت تجارة أخرى رابحة؛ هي زراعة الحشيش..

"فأينما وجدت الحروب المسلحة ازدهرت التجارة الحرام"

يدرك "محمد نبي" هذا القانون جيداً، وهي قاعدة تعلمها في كلية الشرطة بلاهور.

المفارقة أن الذين يقال في الكليات لا يكون مهماً بعدها، لأنه في الغالب يصبح الضباط المتخرجين من صناع الفساد، يأخذون ما تعلموه لا ليحاربوه ويقفون ضده، بل لكي ينفذوه بحذافيره في الميادين الحربية.

٤

خلال يومين تعافت خديجة وسط اهتمام وعناية محمد نبي الفائقة، وحرصه على أن ينسى أي عمل آخر ويبقى بجوارها، يمنحها ما لم تشعر به منذ أن حدث الفاجعة في ذلك اليوم الذي يكون تذكره عقاباً ربانياً.

أصبح الآن بإمكانها أن تتمشى في المكان وتعيد استكشاف الحياة التي فقدتها طوال السنين الماضية.

هل كانت في حلم شرس وخرجت منه؟

أم أنها حقيقة مُرّة عاشتها؟

جراح الجنجويد وفظائعهم وشيوخهم..

هذه القصص البارعة في جعل الواقع لا يطاق.

لكنها الآن حرة، عليها كبنت تفكر جيداً، أن تبدأ في ابتكار حياة أخرى جديدة، ولكن من أين سوف تبدأ، وهي تعتبر إلى اللحظة نفسها في حيرة قاتمة وحيث لا شيء واضح هنا، سوى الصحراء وهذا المبنى الصغير للشرطة الأممية وهذا الشاب الذي يرافقها مثل ظلها، واثنين من الرجال أحدهما يبدو أوروبياً والآخر أفريقيا لا يتكلم يظل طوال الوقت مشغولاً بالأكل، يحشر يده في الثلاجة الصغيرة بمكتب الضابط، يستخرج بسكويت وحلويات وآيسكريم يقوم بتناولها، ثم يجلس عند الظل في انتظار أن يعيد ما اعتاده من جديد.

٥

في منتصف نهار اليوم الثالث، في الوقت الذي كانت فيه الشمس في كبد سماء الأحزان، التي كانت واضحة في وجه خديجة - كما يراها أو يصوّرها نبي - وصل ثلاثة من الرجال على ظهر سيارة قديمة بطيئة الحركة.

توقفوا عند النقطة، قاموا برواية قصتهم، ما حدث في معسكر النزوح الذي يبعد حوالي مائة كيلومتراً من الموقع.

تحدثوا عن مجزرة حصلت في المخيم.

لقد دخل عشرات الجنجويد ومعهم قوات حكومية غير نظامية، وقاموا بإطلاق النار على السكان ونهبوا الممتلكات ثم أحرقوا المخيم.

المشاهد نفسها تتكرر. رغم مرور الزمن.

كانت خديجة تسمع لهم وهي تشعر بارتجاف شديد، ما هذه اللعنة التي لا تنتهي؟

أما زالوا أحياء هؤلاء القوم؟

وكيف لهم أن يتحالفوا مع من هاجموهم قبل أيام في معسكرهم؟

ألم يكن الجنجويد وهذه القوات يقاتلون بعضهم قبل يومين أو ثلاث؟

كما يروي هؤلاء الرجال، وكما شاهدت هي بنفسها..

كان من الصعب عليها أن تحل هذه المعادلة الفلسفية الواقعية، المربكة والكريهة كما رأتها.

قررت أن تجمّد عقلها ولا تفكر بسوى النجاة، فالغالب أن هؤلاء المجرمين سوف يصلون إلى هنا عاجلاً أم أجلاً.

٦

وقف أحد الرجال، قصير القامة، يروي ما جرى بطريقة درامية وتمثيلية، كأنه يقدم عملاً مسرحياً ليس مهتماً بما رآه من أسى ونيران الدموع.

يفُهِم من كلامه، أن عدداً من الرجال في أعمار متفاوتة بين عشرين وستين سنة تم أخذهم، في شاحنات، وهم مقيدين، ليتم دفنهم، بعضهم أحياءً، وذلك في خندق كبير بجوار المخيم؛ في حين أن آخرين منهم، أعدموا مرة واحدة، ومنهم عمدٌ ومشائخ.

استمر الرجل الدرامي في قصته، ويبدو أن لوثة أصابته وهو يتحسر على أن مئات الأغنام تم قتلها كذلك، وهو يصيح..

"ما ذنبها؟ ما ذنبها؟"

يكررها أكثر من مرة، وقد هرول سريعاً، مبتعداً عن رفاقه وعن نقطة البوليس.

كاد رفيقاه أن يضحكا، لولا أن الموقف يتطلب أن يبدو المرء بوقار وأدب.

غاب وراء الرمال والشمس الحارقة، ولم يعد له من أثر بامتداد البصر.

٧

أوضح نبي للرجلين أنه لا يستطيع أن يقدم لهما أي عون، إذ ليس له حول ولا قوة، عليهم أن يسافروا إلى الفاشر، إن استطاعوا، لكي يبلغوا الوحدة الرئيسية هناك.

ومن ثم قال بصوت خافت:

"لكن لا أظن أن وراء ذلك جدوى"

كان يريدهما أن يغادرا ليخلو مع روحه الأخرى، خديجة التي تغلغلت في ثناياه دون أي مقدمات.

فجأة كان أن حصل ما حصل، وهم ينقذون فتاة من الموت، وهي الآن تنام في قلبه وموضع ضميره..

تدغدغ فيه أشياء عجيبة لا يمكن تسميتها بالضبط ماذا تكون؟..

٨

مثلما جاء الرجلان ذهبا إلى المجهول، يتبعان رفيقهما الدرامي المجنون، كما يبدو، بعد أن تركا سيارتهما المنهكة في مكانها.

"فالمأساة تخلق أناساً لا يمكن لنا أن نفهم طبيعتهم"

كانت خديجة تقول ذلك لنبي، وهي ساهمة في أفق غير محدد، تحاول أن تبدأ الحياة الجديدة، بجوار رجل لا تدرك ما هويته.

الرجلان اللذان ذهبا ظنا أنها موظفة ضمن اليوناميد، فقد تم تعيين عدد لا بأس بهن من الفتيات المتعلمات في مهام مختلفة ضمن اتفاقيات السلام الكثيرة، التي توقع ويتم تمزيقها قبل أن يجف الحبر.

٩

في ما قبل حلول المساء، تمشيا سوياً، كالعادة، حول المكان.

يبدو هادئاً، كأنه لا حروب ولا قتلى، ولا مجاعات ولا نازحين ولا بكاء ولا دموع.

كأن الحياة تعود مغلفة إلى لحظات ما قبل ميلاد الأوجاع.

أمسك نبي بيدها.

في البداية لم تستحسن ذلك التصرف، ثم وجدت أنها تفعله وهي تحس أيضا بمشاعر لا تفهمها.

عندما يهتم بك إنسان غريب عنك، يقدم لك العون والألفة والحنان، يكون هو عائلتك ونصف الآخر في عالم لا يبدو فيه من أمل، فإن هذا الشخص سرعان ما يصبح جزءاً منك شئت أم أبيت.

ما هو الحب؟

وما هي الخديعة؟

هل يصبح الحب مغلفاً بغلاف الروتين والاعتياد على الآخرين؟!

كانت تفكر في ذلك، وهي تحاول أن تفهم..

هل قد أحبت ذات يوم خلى؟

هل كان أحد من صبيان أو شباب الحي في قارسيلا قد دخل قلبها؟

هي عاشت هذه الموسيقي الحزينة التي تعشعش في دماغها الآن وتسري عبر الأعصاب والشرايين إلى كل مساحات الجسد، ليسترخي قليلاً ثم يتلاشى فيه الألم..

ألم النسيان.

أن يشعر الإنسان بأنه ابن اللحظة لا غير..

يكون كل الماضي والأمس بكل ما فيه من احتراق قد تسرب وضاع، أو تمّ تبديده في رحلة أخرى لحياة جديدة، سوف تكون لها بداية رائعة.

خامس عشر:
ذرية الخصي

١

راقب الملازم أول "مبارك بكري"، الحاج سعد، وقد ابتعد.

شعر بفرح غامر، أنه قام بالواجب الإنساني الآن.. وهو يحاول إزاحة الصورة التي عشعشت في دماغه وهو يقود السيارة.

ذكرى ومأساة تلك الحكاية القديمة التي روتها جدته.

وانسابت الدموع مجدداً من مقلتيه وهو يلحظ آخر ظلال الرجل المسن، يبتعد وراء أفق لا يمكن تَبيّن نهايته.

٢

لما أن بلغ الثالثة من عمره، كان قد أوتي به مع مجموعة من الأطفال، وقفوا تحت شجيرات غير مثمرة، وكان الشتاء في أوله يلفح برياح باردة، قادمة من الشمال.

حضر الرجل المُكلّف بعملية الخصي..

ضخم الجثة وهو الآخر مخصي، بصوت الإناث، وكان يجيد الغناء.

بدأ بثلاثة من الأطفال إلى أن وصل إلى "ساطور" الذي يصعب عليه الآن استحضار تلك الصورة بجلاء كامل، تبدو مشوشة في ذهنه، حيث ارتفع صراخ الذين سبقوه، وهم صرعى على الأرض جراء الألم الذي ألمّ بهم.

ذلك الألم الذي يكاد يسكنه إلى اليوم..

تلك اللحظات القاسية..

لكنها حصلت معه كما كثيرون غيره، ليس من مهرب، إنه قدر المخصي، يُبتر عضوه الذكري بالموس، ومن ثم جميع الأجزاء البارزة المرتبطة بتلك الآلة الصغيرة.

يتدفق الدم ثخيناً، يكون الطفل شبه مغمي أو ربما يموت بعض الأحيان.

٣

وسط صراخ الباعة في سوق النخاسة، يستعيد ما حدث، بذلك التشوش الذي لا يمكن مقاومته، وبحدة الألم الذي استوطن فيه إلى اللحظة والرغبة الدفينة بالتحرر من إغلال هذا الوجود..

"أن تكون سيداً لا عبداً"

"حتى لو حدث ذلك، فإن إحساسك الذكوري الذي منحك له الله قد ذهب إلى الأبد، إلا أن تستيقظ في عالم آخر فينمو عضوك من جديد"

وفكّر:

"لماذا لم يجعل الله لنا بدائل ممكنة، كما يحدث مع الأسنان، أو الأظافر؟!"

أيقن أنها قرارات الرب، وأن هذه هي النواميس لا تتغير، وليس مقابل ذلك سوى الضجيج الذي يسكن الإنسان دون أن يمنحه القدرة على الصراخ بقوة ضد جبروت العالمين.

٤

في العادة تتم عمليات الخصي في الفصل الخريف، لأن الطقس يكون ملائماً لشفاء سريع بالتئام الجرح والتعافي، ومن ثم ينهض الأطفال المساكين للإقبال على الحياة وفق ما سطّر لهم من مقادير ليس من فرار عنها.

خصي ساطور كان في الشتاء لأن كبير التجار النخاسين كان عجولاً في اللحاق بأسواق العبيد في مصر؛ لا يريد للوقت أن يسرقه، وعليه أن يسرق طفولة هؤلاء الصغار، وهو يحلم بالثراء والمال الوفير، الذي يجعله يعود في المرة القادمة بالمزيد من السلاح والقوة المدججة حتى يستطيع أن يقتلع عدداً أكبر من الأطفال والصبية من القبائل التي تسكن وراء النهر، الذين يعيشون حياتهم ببساطة وهم يتحسبون الغرباء الذين يأتون ليضجوا في مضاجعهم وينزعوا عنهم ذلك السكون.

الواحد منهم يرى كيف أن طفله يؤخذ عنوة منه، وهو غير قادر على المقاومة.

إذا تكلم فسوف يكون مصيره القتل..

يحدث ذلك دون أي شفقة، فلغة الموت محببة للرجال المسلحين الذين كانوا في الماضي البعيد قد تعرض بعضهم للخصي، وربما كان منهم من انتمي للقبائل نفسها، غير أنه مع مرور السنين قد يفقد الإنسان حتى حُب الأرض التي جاء منها، خاصة إذا كان قد تم أخذه في سن صغيرة، دون الخامسة.

ساطور على خلاف آخرين، كانت ذاكرته قادرة على النفاذ إلى مساحات عميقة في جدار الزمن، يثقب بشدة فيرى الدم المتدفق.

يشعر بالألم القوي كأنه يعيشه الآن.

يشاهد الأطفال البكاة وهم عراة.

يرى الرجل الضخم وهو يُصبّ بالزيت المغلي للتوّ على النار الموقدة بالحطب، من إناء أشبه بالأبريق.

دون رأفة يدلق الزيت الحارق على الأعضاء المبتورة.

تختلط السخونة بالبكاء، الذي يرتفع إلى أن يصل هنا، ممزوجاً بعويل اليوم وأوجاعه، مع ضرب السياط على ظهور العبيد، وهم يقفون صفاً يقتادونهم بالسلاسل في ساحة النخاسين.

٥

ثم يرى مشهداً آخر عندما تصب جارية حسناء مسحوقاً من الحناء فوق الزيت الحار على الجرح، لكي يبدأ الدم في التوقف تدريجياً ومن ثم يكمد الألم..

تدنو الصرخات من الأرض، حتى تذوب وتتلاشى شيئاً، فشيئاً.

لكن العملية لا تنتهي هنا.

يقوم رجل مساعد بتركيب أنبوب في الجزء الباقي من مجرى البول.

يكون آخرون من الرجال قد جهزوا عدداً من الحفر على الأرض، عملوا عليها منذ وقت مبكر في الصباح. كل حفرة بمقياس نصف جسد طفل.

يؤخذ الطفل بعد غرس الأنبوب بعنف، ليدفن في إحدى الحفر إلى ما فوق بطنه. يظل هكذا ليومين كاملين، لا يعرف ما الذي يحصل في العالم من حوله، يكون قد افتقد براءته، لا يرى سوى جمهرة تتحرك حوله، يتصارخون ويتكلمون، وهو أساساً لا يفهم ماذا يقولون.

في اليوم الثالث يتم نزع ساطور من الأرض مع البقية، يتم التأكد من شفاء التقرحات، يتلمسها الرجل الضخم دون رأفة، وهو يتفل على الأرض ويمس بصاقه بيده، يضرب على التراب ليمسح على مكان العضو الغائب.

بعدها تأتي الجارية الحسناء فتقوم بدهن مكان الجرح بعجينة من الطين المخلوط بزيت مستخرج من شحم الحيوانات.

يصبح الألم مضاعفاً فجأة.. غير أن ساطور لا يستعيد ذلك، فقد هوى سوط في هذه الهنيهة على ظهره.

لم يتأوه أو يصرخ، اكتسب طاقة على تحمل الألم، لم يعرف أين مصدرها بالضبط. يرى من يقوده إلى منتصف الساحة حيث جاء دوره في المزاد. ينتظر من سيكون سيده!

٦

تلك بداية مأساة الجد الأكبر ساطور، الذي أنجب ذرية بمعجزة إلهية، أو يبدو أن القضيب لم يبتر بالوجه المطلوب.

صعب على أي إنسان أن يكتشف تاريخاً غائباً.

سمع "مبارك بكري" هذه القصة مرة واحدة، لم تكرر من جدته الكبيرة قبل موتها.

كانت امرأة جريئة في القول، لها حس قوي في اكتشاف العالم وفي السخرية من كل شيء، حتى من نفسها، الحياة لا تعني لها سوى الغرابة والعبث، والإنسان ليس إلا جزءاً من مهزلة الرب.

بالمعنى الواضح يمكن وصفها بمعايير اليوم، أنها ملحدة أو غير مؤمنة.

سادس عشر:
حكمة الأجداد.. الذهب أولاً

١

بدلا من السفر إلى واشنطن، قرر بركة الخير الاتجاه إلى الأراضي المحررة في دارفور، تلك المناطق المتاخمة لمعسكر جبلي، ما زال يحافظ على اخضراره رغم طول سنين الجدب.

استقبله الجنود بحماس شديد، وهو يصلهم بمروحية هبطت به قادمة من معسكر قاقا الذي جاء عبره، مع إحدى فرق السينما الفرنسية، بوصفه أحد الممثلين ذوي الأصول الأفريقية القادمين لرصد معاناة النازحين وتسجيل المأساة، وربما عمل عدد من الأفلام التسجيلية حول ذلك الموضوع.

٢

منذ عدة سنوات صارت قضية دارفور تدرُّ الأرباح للعديد من الشركات السينمائية والراغبين في استغلال الأوضاع الإنسانية لصالحهم الخاص.

عشرات الممثلين ومن يطلق عليهم سفراء الأمم المتحدة للسلام والطفولة والإنسانية وغيرها يأتون إلى هناك.

يطوفون في المخيمات ويسجلون خواطرهم ويرسمون.

يحملون الكاميرات العتيقة ثم يعودون إلى ديارهم.

خلال فترة وجيزة يكون قد حصدوا الملايين من الدولارات، دون أن يعود لهؤلاء المساكين والجوعى أي عائد، رغم أن وعوداً أطلقت بهذا الشأن.

٣

وقف بركة الخير أخيراً، بعد غياب طويل، في أرض الأجداد، يتنفس بعمق، حملوه على الأعناق وهتفوا باسمه كبطل.

صرخ رجل من بين الجموع:

"حفيد رابح، أيها الشجاع الصنديد"

كان الهتاف مدعاة لفخره وإحساسه بأن الناس لا تنسى..

"فالتذكير بالمجد التليد يشحن الذات بالعزة، ويجعلها قادرة على اجتياز تحديات الراهن بكل ما فيه من أوجاع مستمرة"

أخبرهم:

"إننا قد فقدنا الأمل في كل العالم، وفي أمريكا والغرب، فالمصالح هي التي تشكل عالم اليوم ويجب إذا أردنا أن ننجح بحق، علينا، أن نعتمد على قُدراتنا"

وذكّرهم بلقائه مع عدد من شيوخ القبائل في فترة سابقة، وكيف أن وعودهم تبخرت..

"فقد ذهبوا ليبيعوا ضمائرهم للحكومة بدلاً من أن يكونوا معنا"

أشار لهم..

"ثمة فرصة مواتية رغم كل الصعوبات وغياب الدعم، وهي أن هناك خلافات عميقة في النظام الحاكم وتشرذم في الجيش، وأن ظهور القوات الجديدة الموالية للأمن التي تقاتل الآن بعض فصائل الجنجويد الذين يحاولون لملمة أطرافهم والقتال حول مناطق الذهب، كل ذلك يشكّل فرصة تاريخية للانطلاق من جديد باستراتيجية مختلفة"

لم يكن له خطة معينة في ذهنه، كان يريد أن يبتكر الأفكار في حينها من خلال السماع لجنوده والضابط القلة الذين تبقوا في الجبل.

كما كان يراهن على أن الخرطوم لم تعد مهتمة بسوى المال والذهب وهي النقطة السحرية التي يجب الاستفادة منها في زعزعتهم للخروج بأعظم المكاسب وفي زمن وجيز.

٤

انتهى به التخطيط إلى أن يقود بنفسه "معركة الخلاص النهائي"، كما أطلق عليها.

أقنع نفسه: "عاجلاً أم أجلاً سيدخلون كبرى مدن الإقليم بأي شكل كان حتى لو خسروا كل شيء"

بدأ التدريب السريع على الأسلحة، بعض الراجمات.

شكّلوا مجموعة من عصابات قطاع الطرق المكلفة بعمل مبدئي وهو مهاجمة سيارات القوات الأممية، اليوناميد، وأخذ معداتهم، فهم جبناء كما يعرفون ولن يقاتلوا عندما تتم مهاجمتهم..

"كما أن الذي يقاتل في غير أرضه، لا يمكن أن يكون مُخلصاً، ولن يتسلح بالجسارة، سوف يكون خائباً وخانعاً"

خلال أقل من أسبوع نجح التخطيط استطاع رجالات بركة الخير أن يستولوا على عدد لا بأس به من السيارات والمعدات، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة أو يقتلوا أحداً، فبمجرد الهجوم على سيارة من اليوناميد أو الاتحاد الأفريقي، يهربون فوراً ويتركون الجمل بما حمل.

توسع هذا العمل، ليشمل القبض على رهائن وطلب فدية تصل لمليون دولار على الأقل.

بدأوا باثنين من الصحفيين الفرنسيين.

ومن ثم كابتن طيران روسي، كان قد هبط بطائرة شحن في الفاشر، في طريقه إلى محل إقامته المؤقتة، عندما قام ملثمون بخطفه.

أخذوه في سيارة مسرعة وهو ينزل باتجاه الأرض من الطائرة في المطار. وهربوا به إلى الجبل. هذا الوضع أربك حسابات الجيش الحكومي والقوات الكثيرة التي تناسلت باسم الدولة والنظام، وأعاد بعض البريق للإقليم في الإعلام ولو بدرجة خافتة بعض الشيء.

٥

المخابرات الغربية والاستخبارات الإسرائيلية، العالم المتحضر كان يراقب ما يجري، فنصف هؤلاء الصحفيين ونجوم السينما هم ضباط تابعون للسي أي أن CIA (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) أو جهاز الموساد الإسرائيلي מוסד، وسرعان ما نقلوا التفاصيل..

"... ثمة قوة تتشكل في دارفور لصالح بركة الخير، والرجل بعد أن يئس من الدول العظمى هو الآن يقاتل بنفسه..."

وذكر تقرير سري أرسل إلى الرئيس الفرنسي..

"كونوا حذرين أن حفيد رابح فضل الله يحاول من جديد بناء مجده أجداده، والخطر لا يتوقف على دارفور ومنطقة السودان بل قد يشمل تشاد التي تمثل مصلحة استراتيجية كبيرة لنا، مع العلم بأن بعض قوات بركة تدخل مناطق من تشاد وتعيث فساداً هناك، وهذا قد ينذر بفوضى.. الآن الآلاف من الأطفال والصبيان والرجال بل نساء وكبار سن يسارعون للانضمام لجيش بركة، بعد أن عرفوا أنهم يدفعون أجوراً كبيرة للجميع بلا استثناء، وأنهم لا يفرقون بين القبائل. لقد استطاع الرجل في الوقت الذي ظننا أنه ليس له أي قدرات أن يثبت العكس. لقد فرطتم فيه وهو موجود بينكم وسخرتم من أفكارهم حول تحرير الإقليم أو ما اسماه بالاستفتاء، وقمتم بالإيحاء لرجالات القبائل بأن بركة كسياسي ليس له أي مستقبل"

٦

من جهتها كانت الحكومة السودانية قد أبدت حذراً من تطور الأوضاع.. "... وهذا يعني العمل بأسرع وقت على لملمة ما يجري من تشرذم" كما ورد في تقرير للمخابرات السودانية.

"توسع بركة وما حققه في وقت وجيز، إشارة إلى المتقاتلين حول جبل الذهب بأن يتوحدوا لهدف واحد ضد هذا الوحش الذي ظهر في الإقليم"

"في الماضي كانوا ينظرون إليه، على أنه مجرد رجل سكران، يتنقل ما بين العواصم لكي يتربح ويجني المال لملذاته الخاصة، فما الذي جعله يتغير بين ليلة وضحاها، ويصبح قوة ضاربة، هل هذا حقيقي أم خيال؟"

كانت تقارير تحمل مثل هذه العبارات تصل للجهات الأمنية ورئاسة الجمهورية في الخرطوم، وكان التفكير غير واضح بشأن المستقبل، عدا القيام بخطوات سريعة للقضاء على جيش الرجل الذي توسع كثيراً أو محاولة

التفاوض معه بأي شكل كان، رغم أن المفاوضات السابقة معه فشلت فشلاً ذريعاً.

٧

في تلك الأثناء وفي معسكر قاقا، ذات نهار كان عدد من الأطفال والنساء والصبيان والشباب يتجمعون حول رجل أُرسل من قبل بركة الخير، لأخذ من يرغبون في التجنيد، وحملهم بسيارات تأخذ طريقها ليلاً، إلى معسكرات التدريب في منطقة حدودية، غير حافلة بحرس الحدود المشترك، بعد أن صار يتقبل الرشاوي، متغافلاً عن أوامر منع عبور النازحين، وفق اتفاق بين البلدين الجارتين.

فالحرس لم يعدوا يقبضون مرتباتهم لشهور طويلة، سواء من قبل تشاد أو السودان؛ ما يعني بوضوح أن يفكروا في تدبير أمورهم، بطريقتهم الخاصة.

وقف رجل متقدم السن يطلب الانضمام للجيش.

انه الحاج قارسيلا..

من لا يعرفه هنا، يظل أغلب الوقت جالساً في الظلّ يكلم نفسه ويعيد تلاوة قصص قديمة، يظن أغلب الناس أنها مُختلقة، وأن هذا العجوز الذي دخل سنين الخرف، لم يعد يفرق بين الخيال والواقع والذكريات، فقد باتت الحياة له مجرد قصة مثيرة ومزعجة أو مسلية.

لا فرق.

وإذا كان الحي أو المخيم الكبير قد سُمّي باسمه، فإن ذلك حدث ذات يوم مضى.

العادة أن الاسماء تظل قائمة، حتى لو أراد الناس محوها.

لكن بالنسبة للأطفال، الجدد في المعسكر، فلا يعرف أغلبهم، من أين جاء اسم قارسيلا!

كانوا يظنون انه اسم إحدى ممثلات هوليوود الجميلات، اللائي يأتين ويبدين تعاطفهن أمام عيون الكاميرات، ويوزعن الحلوى، ومن ثم ينصرفن إلى حياة المكياج والبهجة في بلادهن.

طلب الرجل الذي كان يرتب صفوف المجندين الجدد، من الحاج قارسيلا، بأن يبتعد عن الصف، لأنه كبير السن ومن الواضح أنه لن يستطيع حمل بندقية.

فردّ عليه الحاج بسخرية، وهو يغمض عينيه، ثم يفتحهما بصعوبة:

"ليس بالضرورة أن أكون مقاتلاً، إن شئتم يمكن أن أقدم خبرتي في الحياة، لدي خيال واسع"

ضحك الرجل وتبعه الملتفون حوله يضحكون، لكنه انتبه فجأة إلى أن الشيخ العجوز جاد، وسمع من يهمس..

"رجالات بركة يريدون أن يهينوا حفيد السلاطين"

هذا جعله ينظر بتبجيل إلى قارسيلا، وأنه من حفدة الزعماء الكبار في دارفور، وهذا يعني..

"أن الحاج سعد له بقية حكمة يحملها، ولابد أن الحكمة لا تموت مع الزمن تظل متناقلة في أماكن غامضة من الروح البشرية، لتظهر من فينة لأخرى في حفيد آخر"

وقرر أنه..

"لا مشكلة لنأخذه معنا.. والقائد هناك يقرر أن كان هذا الشيخ المسن مفيد أم لا، ربما على الأقل فيه بركة أو أنه إشارة إلهية معينة"

وهي الكلمات نفسها التي فكر فيها بركة الخير لاحقاً، وهو يُسلِّم على الحاج قارسيلا، ويلقبه بـ "الحكيم".

٨

قال الحاج قارسيلا لبركة الخير:

"أجعلوا وجهتهم جبل الذهب. إنكم أن استوليتم عليه فسوف تسيطرون على كل الأوضاع.. لا تفكروا في أي هدف آخر.."

"ولكنا كنا ننوي دخول الفاشر.. غزو المدينة الكبيرة"

"المال أولاً.. الذهب.. بعدها سوف تفتحون كل المدن"

فردّ بركة:

"لكنهم يضعون كل قواتهم هناك. وتحرسهم كل دول العالم روسيا والصين على رأسهم، كيف لنا أن نصل إلى مكان مثل هذا"

سمع الشيخ يخبره:

"لم أعرف عن جدك أنه كان يائساً أو يضع العراقيل.. لقد قاتل السيد رابح، إلى النهاية.. كنّ مثله، فسوف تحقق المجد، إن لم تنتصر"

ظل بركة الخير طوال الليل ونهار آخر وليل ثانٍ، يفكر في كلام قارسيلا..

"هذا الرجل الحكيم الذي جاء به القدر إلى هنا، لأمر ما غامض"

شعر القائد بأن وجود هذا الشيخ، لسر إلهي ما!

كان رغم تفكيره العلماني ونزعته المادية، إلا أنه يمزّج ذلك ومنذ عودته للميدان بمسحة صوفية، لا يعرف كيف يفسّرها، وتراوده من فترة لأخرى يقينيات بتراث الأجداد وأساطيرهم..

"ليس ذلك مجرد عبث، إنه دلالة على خبرات عميقة في الحياة.. هذه التجارب ليست فوضى على أي حال، لابد أن وراءها من معان كامنة يمكن الاستفادة منها"

قضى الليل مشغولاً بموضوع الذهب، والحكمة الإلهية التي يتوارثها البشر، أباً عن جد إلى حفيد، ليكون للإنسان أن يحقق معناه في هذا العالم.

في سنين سابقة وفي تلك الأيام الأولى في باريس، كان قد كفر بهذه المعاني، اليوم يراها أقرب للواقع، فالمكاسب الذي حققها في الفترة الماضية لم تكن بدعم من أي جهة سوى اليقين بأن هذه المكاسب سوف تتحقق.

لقد سمع منذ زمن قديم أحد حكماء القرية يقول:

"إن الله ينصر الذين يثقون فيه بشكل مطلق"..

ثم سأل نفسه:

"ولكن هل أنا مؤمن، هل أنا أثق به. أم أنني أعيش فكرتي الخاصة مع ناموس الحياة والكون؟"

وتوصل لقناعة..

"إن الإيمان هو أمر شخصي، صورة الله هي ما يريده المرء"

سابع عشر:
قبو تحت النهر

١

في اليوم التالي، تم توجيه أمر، إلى مبارك بالحضور سريعاً إلى الضابط الأعلى في الكتيبة، كان ذلك بمجرد استيقاظه في الصباح الباكر.

أخبره أحد رفاقه، وهو يكاد يكتم ضحكة استهزاء أو أسى، لا يمكن فرز المواقف في اللحظات التي يكون فيها على المرء أن يصبح دون أية إرادة منه مثار شفقة للآخرين.

نصحه بأن عليه أن يكون شجاعاً..

"يبدو أن أمراً جللاً قد حدث"

وقف أمام الضابط، الذي خلع الطاقية العسكرية، وضعها على الطاولة، موجّهاً نظراته القاسية باتجاه الشاب.

نهض من على الكرسي بتثاقل ليصفع مبارك صفعة قوية، تراجع معها للوراء.

سأله بغضب:

"ماذا فعلت أيها الوغد؟".

حاول أن يصمت، ألا يقول أي شيء.

تكررت الصفعات ثم الركل، ليجيب وهو يعلم ما المقصود:

"لم أقم بسوى الواجب الإنساني"

ضحك الضابط، وهو يبصق على الأرض بقوة.

ثم كررها في وجه الشاب.

هنا امتلأ مبارك بحماس غير عادي..

استحضر تاريخه كجزار صغير له القدرة – وقتذاك - على الإمساك بثور هائج ورميه على الأرض، ثم ذبحه دون الحاجة إلى الحبال لشد وثاق الحيوان الهائج، كما يفعل البعض.

قفز بشكل سريع..

لا يعرف ما الذي حدث بالضبط.

كان قد أمسك بالمسدس الموضوع على الطاولة.

دون تفكير مسبق، أطلق أكثر من رصاصة في قلب الضابط مباشرة، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومن ثم وقف متجمداً في مكانه إلى أن أخذه عدد من الجنود بعيداً في طائرة عمودية نقلت الجثة كذلك إلى الخرطوم.

٢

في السجن سوف يلتقي بالعشرات من الذين تم الزجّ بهم ولقضايا مختلفة؛ أكثرها مختلق، أو لتصفية حسابات سياسية أو عرقية، أو متمردين تم القبض عليهم.

كانت الأحكام تصدر بالجملة..

سجن مؤبد..

إعدامات..

سجن لخمس سنوات على الأقل..

من ضمن المسجونين عدد من الطلبة الذين يدرسون بالجامعات، كان قد قبض عليهم بحجة تنظيم مظاهرات، تندد بما يجري من عنف ضد أبناء دارفور.

سمع منهم لقصص حول اقتحامات يقوم بها جهاز الأمن في آخر الليل لسكن الطلبة والطالبات بوسط الخرطوم، حيث يؤخذون وبعضهم لا يعرف مكانه فيما بعد، أما سعيد الحظ فهو الذي يأتي هنا، إلى سجن مثل هذا في

انتظار القضاة، الذين يصدرون الأحكام، دون الحاجة لمطالعة الدساتير التي فقدت قيمتها مع الزمن.

"فقد أصبح القانون اختراعاً شكلياً، من يصوغه وينفذه هم القضاة أنفسهم الذين لا فرق بينهم ورجالات الأمن وضباط في المليشيات المسلحة التي تقاتل المدنيين في الغرب"

"اختلطت الأمور بفوضى ليس من سبيل لفهمها بسهولة"

٣

في اثناء انتظاره لصدور حكم بشأنه، قيّد ذات ليل، من قبل أناس ملثمين، أخذوه إلى قبوٍ تحت السجن، ومن ثم خرجوا به إلى جهة غير معلومة، وراء النهر، هناك مارسوا فيه شتى فنون التعذيب..

الحرق بالكهرباء والنار..

التعليق بالمسامير في الجدران..

قراءة صحيفة من الصفحة الأولى إلى الأخيرة بصوت مرتفع..

استخدام الخوازيق التركية التي تحشر في المؤخرة.

ومن ثم تناوبوا عليه وهم يتلذذون بذلك، يستعرضون أعضائهم الذكرية، ويلامسونها ببعضها البعض بلا حياء، قبل أن يواصلوا حشرها في مؤخرة الشاب التي بدأت تنزف.

في نهاية الليل، وقبل أن يأتي الفجر الثاني، كانوا قد أعادوه للسجن وهو غير قادر على النطق.

فهم من همسات رفاقه أن هذا عادي جداً. فهناك ما هو أكثر شراً!

استغرب مع نفسه..

"أي عذاب أكثر من ذلك؟"

تكررت المشاهد، ذاتها.

رأى في المرات التالية آخرون يؤتي بهم، ومنهم أطفال لم يتجاوزوا سن الثانية عشر، تمارس معهم البشاعات نفسها، ولا يتورع الفاعلون أن يموت أحد الأطفال أو الصبيان..

ليس مهماً..

أمام خروج الأرواح البريئة للصغار، ليس لهم إلا ضحك مستمر.

وكذلك الشيء نفسه يفعل مع النساء ورجال كبار السن.

٤

في السجن اكتشف الجانب الآخر من القصة، من حكايته الشخصية.

كان قد تخرج من كلية الشرطة بمنطقة بري بالخرطوم قبل عامين، ومن ثم أرسل مباشرة في مهمة لدارفور الملتهبة، ليشارك في عدد من العمليات كواجب وطني، ولم يكن له من إحساس أو رغبة كبيرة في فهم الأمور.

كان يعيش في انتظار أن يكمل نصف دينه..

يحلم بالزوجة والبيت والولد.

وظن أن تاريخه الشخصي لم يعد مهماً.

وسط زملائه بالمخيمات العسكرية، كان يرى أن ثمة أمراً آخر يلوح وراء الماضي الذي اعتقد أنه قد زوى؛ فالعنصرية البغيضة تمارس بوضوح هنا، وسط العسكر..

لا جديد، إنه المجتمع نفسه. السوء ذاته.

تعايش مع ذلك، على أن يقوم بعمله فحسب، إلى أن حدث ما حدث.

٥

رأى القرى تحترق..

الجنجويد وهم يُصبحّون سلطة ودولة..

الجيش وهو يفقد هيبته..

قادة المسلحين الموالين للحكومة يصيرون أكثر نفوذاً..

قلة فقط من الضباط الكبار في الجيش كالذي قام بقتله، هؤلاء يلعبون بالحبال كلها..

أنهم بلا ضمائر.

وفهم خيوط اللعبة تماما، لم يكن ثمة خيار آخر لإعادة الساعة للوراء كي يتخذ قراراً جديداً، إلى أن اتخذه يوم قتل ذلك الضابط الأصلف، وهو ليس نادماً.

لو عاد فسوف يقتله، عشرات المرات، لن يكون أمامه من خيار آخر.

يقول ذلك لنفسه، وهو يستعيد صورة جده ساطور التي تتداخل في ذهنه مشهد الرجل المسن، وهو ممدد على السيارة قبل أن يتم إيقاظه ليدخل المدينة وينجو من النار.

فكّر كيف سيكون حاله الآن يا ترى؟!

بالطبع صعب أن تحضر الإجابة في بلد مكتظ بالبشر والهلوسة.

واستمر معه ليل السجن موحشاً، ليس فيه من شيء. سوى الانتظار للمجهول والمزيد من القصص المحزنة، ومن ثم التعذيب المستمر..

هذا الجسد الذي لم يعد مهماً فقد اكتوى بكافة أنواع الجراحات.

٦

بعد شهور اطلقوا سراحه، شبه مجنون.

حمد الله وهو لا يدري، إن كان الذي خرج من السجن هو أم شخص آخر يشبهه!

أسرع لركوب الحافلة السفرية عائداً لديارهم في الشمال..

خلال أيام كان قد مات وهو يهوي بسكينة على بطنه، يبقرها أمام جمهرة من الناس في سوق البلدة، تلك الآلة الحادة الطويلة، التي كان يقطّع بها اللحم في الجزارة، بظن أنه سوف يقضي باقي عمره في كسب رزقه من مهنة الأجداد.

٧

تجمهر رواد السوق والباعة، نساء ورجال وأطفال، ليروا النهاية التي اختارها حفيد ساطور لنفسه.

كانوا يتناقلون قصته دون تأكيد على الرواية الحقيقة التي حدثت.

ثمة من قال..

"إنه مجنون حقيقي ولهذا استغنوا عنه والسبب غير مفهوم"

"المهم انه فاقد العقل"

وهناك من ابتكر قصة عجيبة..

"لقد شارك في عمليات معقدة، حدثت فيها إبادة وحرائق وأنه لابد من تصفية المشاركين بوسائل مختلفة، غير الموت المباشر، كأن يتم حقنهم بسائل يعمل على جعل الفرد لا يرى سوى هذيانه.. هذا ما حدث معه بالضبط"

قبل أن يتوارى الشفق الأحمر للشمس المصبوغ بلون الدم في تلك الديار البعيدة، كانوا قد دفنوه في المقبرة بجوار الجد الكبير ساطور.

كفنوه ورسموا على قبره علامات تدل عليه من جريد النخل.

كان عدد كبير من الأهالي قد حضروا الجنازة، وهم يتهامسون..

"جنازة العبد حضرها خلق لم يحضروا جنازة الولي والشيخ أبو الحسن"

كان يشيرون لواحد من كبار شيوخ التصوف بالمنطقة، مات قبل عدة شهور، يريدون القول إن مبارك لا يستحق هذه التشييع الباهر.

ثامن عشر:
الخير في الشر أنطوى[٤]

١

متنقلاً تحت ضياء النجوم التي كان يحفظ مواقعها وأسماءها منذ الصبا، بين فصول حياته من هنا، حيث بدأ إلى هنا حيث عاد؛ لديه يقين بأنه في أحسن لحظات وجوده صفاء وحكمة، وأنه لم يعد ذلك الفتى الجوّال القديم في

٤ - من قصيدة الشاعر السوداني محمد المهدي المجذوب بعنوان "ليلة المولد" .. ورد: أيكون الخير في الشر أنطوى؟

تيه الخرطوم، حيث بدأت علاقته المهتزة مع العالم، بأن بدأ يكفر بتراث الأجداد، حتى لو أنه كان يدعيّ أنه يقاتل لأجلهم.

إذا كان صعب استرجاع الأمس وإعادة صياغته، ومن ثم إدماجه في مسيرة الإنسان، فإن الخطوة التي هو فيها اليوم، لاشك هي تتويج لذلك السير الطويل..

المعنى يكمن في هذه اللحظة، وليس في أي أفكار أخرى مغايرة.

انتبه وسط تأملاته وقد سرح مع النجوم، على صوت يكلمه. رفع رأسه عن الرمل البارد، كان الحاج قارسيلا يقف أمامه في المعسكر الجبلي.

قام وقبلّه في جبينه باحترام شديد، ولم يفكر في طبيعة تصرفه أو ماذا يعني.

"هناك تصرفات نفعلها من القلب أو لاوعينا وتكون هي الصحيح والمطلوب"

خيّل له أن يسمع الشيخ يقول له:

"كن شريراً.. لا تساوم في حياتك باسم الجبناء"

توقف ليفهم المعنى..

أيعني بالشر الخير؟

"أيكون الخير في الشر أنطوى؟"

أو العكس، كما قيل في بعض من الأشعار.

لم يترك له العجوز أن يسترسل في استهلاك دماغه، إذ أخبره:

"إن حقيقة الإنسان هي ما يصبحه وما يعيشه، وليس أي شيء آخر خارج ذلك. أنت الآن في الطريق الصحيح يا بركة.. حتى لو قتلت ونهبت فأنت تفعل ذلك لصالح قومك وبلدك، وأنا أكلمك بخبرتي في الحياة أن الأبطال دائما في التاريخ لم يكسبوا المجد من مجرد المثل العليا"

فجأة تحسس بركة الخير رأسه، ليكتشف أن الذي يتكلم هو وليس قارسيلا..

"فالشيخ المسن قد يكون حكيماً لكن حكمته بسيطة، وتأتي بكلمات مقتضبة وليس فيها أي أبعاد فلسفية كبيرة.."

حارّ في الأمر ما الذي يحدث معه؟

هل مثلا: أن فكرة الهجوم على جبل الذهب هي فكرته أم سمعها من قارسيلا؟!

وأرد أن يسأله، ثم قرر أن المهم ليس من قال بالفكرة، وإنما مدى جدواها وقوتها.

٢

خلال أيام تم تجهيز قوة من كتيبة كاملة، تلقوا تدريباً جيداً.

اتصل في الوقت نفسه رجل قال: إنه يتبع للحكومة الفرنسية وأنهم مستعدون لدعم معركة جبل الذهب.

لم يفكر بركة كثيراً في المعلومات؛ كيف وصلتهم..

"فالجواسيس موجودون في كل مكان، لابد أن بعضهم هنا"

ولكن عليه أن لا يضيع الوقت، بحثاً عنهم، فالزمن الذي يستغرقه لكي يعثر على جاسوس، يكون فيه قد اقترب من إنهاء معركة فاصلة وانتصر فيها.

اختصر الأمر بأن أجاب الرجل الفرنسي:

"لا نطلب منكم أي شيء سوى أن تتركونا وحالنا. لا نريد دعماً من أي جهة سوى الرب الذي أوجدنا، والأرض التي ولدتنا، من يقاتل لأجل قضيته يكسب، والخاسر من يزجّ بنفسه في حرب ليس له فيها مصلحة سوى المنفعة المادية أو الحقد الذي يملأ قلبه"

وتخيل أن قارسيلا بجواره يسمعه، وهو يقول له:

"أحسنت يا حفيد رابح.. أحسنت.."

وكان ذلك سليماً، فقد كان الرجل يقف معه.

متى جاء وكيف سمع مكالمته؟!

لم يفكر بالموضوع كثيراً، واصل في إصدار تعليماته بالتحرك في ليل اليوم نفسه، مُزيّحاً أي هواجس يمكن أن تعيقه عن الوصول إلى الهدف، خاصة العوائق النفسية التي قد تطرأ أحياناً بلا مسببات، كالتي واجهته ذات أيام وعطلّته؛ لكنه اليوم يشعر بالقوة والانتصار الكبير المقبل.

"إن الإنسان ابن قدره وهو الذي يصنع هذا القدر بإرادة الله الذي يفهمه هو"

"الطريق إلى تحقيق الانتصارات ليس نزهة"

٣

خلال أسبوع، سار جيش بركة باتجاه الهدف، جبل الذهب.

كان القائد يتقدمهم مرات، وأحياناً يُسير في المؤخرة، عندما يرغب في التأمل في قضايا معينة يريد حلها.

في بعض الأحيان يجلس وبجواره قارسيلا، يشعر بأن وجود هذا الشيخ الذي يجسّد التاريخ يُعطيه دفعات معنوية، هو في أشد الحاجة إليها..

أمر يحدث لا يعرف أن يفسره!

كأن وجود قارسيلا في حياته ضرورياً منذ زمن طويل، ولم يحدث إلا متأخراً.

أحياناً يتسامران حول أمور غير ذات علاقة بالمعركة المقبلة، هذه هي طريقة الحاج سعد، يرى أن الحكمة يمكن أن تلتقط من البعيد ومن القريب، ويقول ذلك بمعانٍ بسيطة كما فهم بركة الخير أسلوبه.

٤

مع توطد العلاقة بدا بركة يشعر بالانزعاج أو يحس بأمر غامض لا يقدر على تأويله، أن العجوز، يكلّم نفسه بعض الأحيان، أو ينادي المجهول.

"طبيعي أن يتكلم المرء مع روحه، غير أن هذا لا يتم بهذه الطريقة الغريبة"

رآه أكثر من مرة يجلس كمن يمارس صلاة اليوجا وهو يستقبل جهة الشرق، ينادي رجلاً يسميه قارسيلا.
يبدو كما لو أنه يُنادي نفسه.
يخبر المُنادى.. أو شيئاً ما في بواطنه:
"الشر.. الشر.. كن شريراً"
"اللعنة إنه الشر يظهر من جديد"
يقول بركة الخير ثم يترك العجوز وحاله ليرى حال جنوده.

٥

رغم تضجر بركة الخير من هذه الهلوسات، كما بات يسميها مع ذاته، فقد كان يتخوّف من الاستخفاف بها..
"فهؤلاء الذين وروثوا تراث الأجداد، لابد أن لهم حياتهم العجيبة المكتنزة بالأسرار"
هنا سوف يقفز لذهنه أمر نادراً ما عبر برأسه منذ سنوات الشباب، صورة أحد أعمامه الذين كان لهم القدرة على أن الكلام مع المجهول كطريقة قارسيلا.
الواحد فيهم يجلس الجلسة نفسها، كالحاج سعد، وهو يستقبل الشمس ويبدأ في المسامرة.
أولاد الحي كبار السن قالوا: إنه مصاب بمسّ ولابد من علاجه، وهو يرفض الاستجابة لذلك، مدّعياً أن له رفيق كان يسكنه هجره وسافر عنه وهما يتواصلان معاً.
يحكي أنه الآن في مصر يسير في شوارع القاهرة، ومرة قال إنه سافر لليبيا، وهكذا يتجول من بلد لبلد، إلى أن جاء يوم كان قد أحس فيه بوجع في صدره، وأخبرهم بأن يجهزوا له قبره، لأنه سيموت، فقد غاب الصوت الذي يربطه برفيقه؛ وهذا يعني النهاية.

لم يصدقه من أحد، إلا رجل واحد من كبار رجالات القبيلة، قال، إن ذلك يحدث وعنده سرّه ولن يتكلم به لأحد.

في الليل حملوا العم ودفنوه في مقبرة القرية تحت ضياء القمر.

هناك من حلفوا أنهم رأوا شكلاً أو شيئاً ما غير ملموس، يحوم في المكان، مثل شبح، يبدو شبيه تماماً في وجهه بالعم الراحل.

٦

قبل أن يكون إدراك جبل الذهب، حدثت الأمور السيئة، كما يجري غالباً في قانون الحرب البشعة، عندما يلعب عنصر المباغتة دوره فيغير المعادلة.

كان الوقت ما قبيل منتصف الليل، والكتيبة تتحرك بهدوء في مسيرها.

يقوم الراصدون بمراقبة السماء كما الأرض.

عندها ظهرت في الأفق البعيد نجوم صغيرة متحركة، اتضح أنها طائرات قامت برمي قنابلها الحارقة.

لم يكن من منجاة!!

سقط المئات من الجنود في ثوانٍ.

كان بركة الخير يرى ما يدور..

ثمة خلل ما قد حدث يصعب ترميمه، لقد خاض المغامرة ويبدو الآن إنه سوف يخسرها، ماذا سيفعل؟

هل يستمر أم يتراجع؟

حتى لو أنه قرر أن يعود للوراء، فسوف يتم ضرب جنوده في كل الأحوال.

الخيار الأفضل، إذن، أن يتقدموا للأمام بشجاعة متحدين الموت.

صرخ فيهم صرخة مدوية شقت سكون الظلام الكاذب الذي خرقته الطائرات، التي تدلت لأسفل دون أدنى خجل وهي تستمر في إلقاء القنابل.

"يبدو أن وشايات كبيرة قد حدثت"

قال بركة لنفسه.

ومن ثم سكت لم يكن أمامه سوى الرضوخ للمجهول.

٧

تلفت حوله يبحث وسط الرعب وحمى الموت عن قارسيلا..

"أين هذا العجوز الكارثة، فهو الذي اقترح معركة الجبل، لماذا سمعت له؟ يا بركة الخير؟"

قبل أن يكمل ندائه الداخلي بصوت مرتفع، رأى الرجل يتقدم نحوه وقد أصيب في كتفه وقريباً من صدره، كان يعتصر الألم لا يبوح به، كعادة كبار السن الذين يتحدون المصاعب بكل جسارة.

لكن ذلك لم يدخل الرأفة في قلب بركة الذي سرعان ما أدرك أن ثمة شيطان يسكنه.

صرخ في الرجل المسن بكلام غير مفهوم، فقد بات مرتبكاً وليس لديه القدرة على اطلاق كلمات مرتبة.

تكلم الحاج قارسيلا وسط حدة الألم، قائلاً:

"سيدي القائد، لقد توحّد الأعداء.. صاروا لحمة واحدة لأجل مصالحهم.. هذا ما حدث.. لقد تفرغوا لأجلنا لكي يقتلونا.. هذا ما يفلحون فيه"

وكاد بركة أن يسأله وسط حالة عدم الاستياء.. هل أنه يتخيل، أم لديه معلومات، ومن أين جاء بها؟!

فردّ عليه قارسيلا، كمن سمع صوت القلب:

"أتكلم لك بما عندي من معلومات دقيقة، لك أن تصدقني أم لا؟"

نظر إليه في العتمة، يحاول أن يقرأ ما يلوح به خاطره من خلال تعابير وجهه.. وهو مشغول بالتفكير.. من أين يستقي الرجل معلوماته بالضبط، وهو الذي يظل هنا طوال الليل والنهار بينهم؟

أيكون ذلك القرين العجيب؟

ولكن أين هو؟

أين يقيم؟

وكاد أن يسأله:
"هل هو الذي...!"
وقبل أن ينطق بها قارسيلا، لأول مرة وهو على أعتاب الموت، كما ظنّ، مع شدة الألم الضارب بجهة القلب..
قبل أن يفصح أو يحكي عن قصته الخفية وسره الأعظم، كان النبض قد ارتفع، كأنه يحذره ألا يفضح بالسر..
كان قد دخل في غيبوبة عميقة جراء الإرهاق وكبر السن، وعدم القدرة على الحركة في الدماغ الذي تعطّلت أعصابه على ما يبدو، غير أنه لم يمت، ظل يتنفس..
القائد يراقب حركة الصدر وهو يرتفع ويهبط.

٨

في تلك الأثناء قلت حدة زمجرة طائرات الأنتنوف في السماء.
يتخيل بركة الخير.. أن الروس الخونة هم الذين يساندون الحكومة الآن في ضربهم، لو كان قد استجاب للفرنسيين، لربما أعانوه بمضادات لهذه القنابل وصواريخ يمكن أن تصطاد طائرات بوتين فترديها على الأرض فوراً..
غير أنه لم يقبل العرض، ووثق في نفسه وفي هذا الشيخ الخرافي..
"أن تضع كل ثقلك على الأجداد؛ قد يقودك لغير الطريق السديد، يحدث ذلك فتصبح قواعد اللعبة غير ما توقعته وتشعر بأنك أمام نهاية عجولة لما ظننت أنه معركة سريعة نهايتها الفوز"

٩

لم يكن خفوت الأصوات الضاربة بقوة إلا مؤقتاً.
عادت الزمجرة من جديد..
ارتفع الضجيج..

بدا المكان مُكشوفاً بإضاءة قوية من السماء، كأنها ليلة قدر ملعونة تضيء بالعذابات بدلاً من الأفراح والنصر.

هل يكون العذاب مثلاً مقدمة لبداية جديدة مُفلِّحة؟

قال بركة لنفسه، وهو يعلم أن ذلك ليس إلا نوعاً من تسلية النفس بالترهات..

"فالإنسان في ساعة الخسارة يكون وضيعاً، أمام ذاته، ليبتكر اختراع قوى غيبية قادرة على إعانته وإنقاذه من الشرّ الذي يحيق به"

١٠

ارتفعت الإضاءة قوية جدا..

هبطت طائرة مروحية تحمل كشافات، كانت هي مصدر ذلك الضوء الباهر..

نزل منها رجلان، أحدهما أشقر الشعر وأحمر البشرة.

تخيل بركة انه روسي..

كانا يصوبان بنادقهما نحو قارسيلا وبركة، الواقفين بين جثث القتلى من الجنود، يأمرونهما بالرضوخ وعدم إبداء أية مقاومة وإلا خسرا حياتهما.

يقصدان بركة بالتحديد.. فقارسيلا كان لا يتحرك. ممددٌ على الأرض وسط الدماء المنسالة، وحيث لا يمكن تمييز الدمّ عن الظلمة، بعد أن اطفئت الكشافات.

اقتاد الرجلان بركة قيدّاه بالجنازير، وحملاه إلى المروحية، في حين بقي قارسيلا على الأرض يستنجد بهما أن ينقذاه ولكن دون جدوى؛ فلا رأفة في قلب الرجل الروسي..

لقد كان روسياً بالفعل يتكلم لغة سودانية دارجة مضحكة.

سمعه بركة دون حاجة للتلصص، وهو ينادي رفيقه السوداني الذي يظهر مثل حرسة الجحيم؛ قوي البنية، ملتحٍ، في العقد الرابع من عمره تقريبا، مفتول العضلات.. مثل ملاكم أو مصارعٍ ثيران.

تاسع عشر:
أوجاع وهزائم الهيام القديم

١

في ذلك النهار، عندما كان الحاج سعد يفكر في قرينه الآخر وسط الراجمات والرصاص في حي قارسيلا غربي أمدرمان، كان ذلك القرين البعيد قد بدأ في التواصل معه، حدث ذلك لبرهة من الزمن، ثم انقطع الصوت.

هل كان ذلك حقاً أم مجرد تخيل؟!

كان من المستحيل على العجوز أن يفهم أو يدرك ما يدور.. لكنه تعامل مع الأمر على أنه حقيقي وواقعي.

بناء عليه ترتبت أمور كثيرة فيما بعد.

سمع الصوت الآخر يناديه:

"كن شريراً.. لا تساوم في حياتك باسم الجبناء"

فكّر في المقصود، دون أن يصل لمعنى محدد يمكن أن يفسر ما سمعه، فهو يعرف أنه ليس شريراً.

طوال حياة قارسيلا لم يكن إلا رجلاً مهادناً محبوباً للجميع، يمكن له مرات أن يتكلم مع صوته الداخلي بالشر أو الحقد أو الخداع، لكن هذا يظل في باطنه لا يخرج إلى السطح أبداً، يدفنه ثم يستمر في الحياة العادية..

"وما دام المرء لا يخرج نواياه السيئة فلا مشكلة، أبداً"

هل يقصد قرينه البعيد أن يُخرِّج ذلك الشر ويجعله ظاهراً للعيان؟

وأين هو ذلك القرين الشرير؟

أم هو نفسه الشرير؟

هل انفلقا لنصفين أحدهما خيّر والآخر شرير؟

أحدهما طيب والآخر يحب المعاداة والبغضاء؟

٢

قبل أن يكمل أفكاره، أو يحسمها، شعر بأن روحه تمتلئ تماماً بما يشبه القيح والصديد، أنه قوي بقوة طائشة تشبه لحظة قديمة في حياته جرّب فيها أن يفعل فعلة هوجاء وتراجع عنها في آخر لحظة.

في ذاك اليوم البعيد، كاد الشر أن يطغى ويفيض ليخرج إلى الأرض، فيقول الناس..

"إن سعداً شريرٌ فحسب، لا يمكن وصفه بغير هذا"

إذا كان ما حدث يبدو مشوشاً، فهو يكاد يرى أن هناك امرأة جميلة تتقدم في الظلام، وأنه أحبها شديداً وقد رفضته.

قالت وقيل: إنه فقير وبائس لا يملك مالاً ولا قوة، وان رجولته وفحولته مشكوك فيها، فهل يبقى رجل إلى ما يقارب الأربعين من عمره إن كان له من ذكورة دون أن يفكر في زوجة، أو يمس امرأة!.. وأنه بدد خيرات ليبيا أمام قبر أمه، دلالة على غبائه الكبير.

وسمعها أو قيل له ذلك، ليس من دليل اليوم بعد مرور السنوات. خاصة أن صوت الراجمات القوي يصمّ الآذان، وأشباح الماضي لا ترحم.

"الخيانات تعود لتغطى العالم، فالشرّ الحقيقي لم يبدأ هنا"

قال لنفسه، وهو يتذكر أنه لولا مهادناته الطويلة لما سمحوا له بأن يبقى وجماعته في الحي، وهاهم في الأيام الأخيرة قرروا هدم البيوت..

فماذا استفاد من الرضوخ لهم؟

هؤلاء الدستوريين كما يطلق عليهم؛ ليس لهم من أمان أبداً.

"دائما ما ينتصر الأقوياء ومن يملكون المال والتسلط"

٣

أنت شرير منذ الأزل يا قارسيلا، يجب أن تواجه حقيقتك التي تحاول أن تخفيها، ألم تتقدم في ذلك الليل باتجاه المرأة التي رفضتك بوضوح وهي تصرخ:

"لن أتزوجك أيها العبد الذليل، أيها الغريب!"

وانت تردّ عليها:

"أنا ابن السلاطين؟"

وهي تضحك بغنج ممزوج بالتشفي وأمور أخرى غير معلومة، لتخبرك:

"اي سلطان يا رجل؟ تحسس أنك لست أي شيء يذكر"
ذلك الجرح لم يندمل، حمل سكينته في الظلام ودخل القطية.
كانت نائمة بجوار أمها، وعدد من أخوتها، ونويت أن تبدأ بها هي، ومن ثم إذا كان من وقت سوف تذبح أمها أيضا.
وقبل أن تشرع في ذلك، كان صوتك الآخر، القرين الآخر الذي يسكنك يصيح فيك:
"يا سعد لا.. لا تكن قاتلاً"
رميت بالسكين أرضاً ثم هربت.
لا أحد بعدها عرف بما وقع معك، إلا ذلك النصف الآخر الذي يكلمك من مكان مجهول لا تدركه الآن.
النصف الأكثر خيراً أيها الشرير.

٤

وصل ذلك الرجل الدارفوري القوي، الذي قالوا إنه جزء من صفقات مع كبار رجال القبائل في الإقليم.
كان يمشي مثل بطريق بحري..
وقف أمام قارسيلا، بأدب لم يكن من طباعه، فالرجل طالما كان مزهواً بنفسه..
"فهو إن لم يكن من أبناء السلاطين، إلا أنه الآن يستطيع أن يقرر بمصير حفدتهم"
قال للحاج سعد:
"سوف نضمن لكم البقاء في الحي إلى الأبد، أنت وجماعتك من أهل القرية.. فقط سلّمونا المتمردين الذين دخلوا هنا في هذه غزوتهم الفاشلة"
ابتسم قارسيلا بحرقة وألم، وهو يرى كيف أن الغبي يصبحاً سيداً.
فهو يعرف تاريخ الرجل جيداً ولا مجال الآن لتذكر الوقاحات.
ردّ عليه:

"أنتم تعرفونهم.. إذا شئتم فخذوهم"

ثم أردف بروح شريرة:

"من متى كنتم تستأذنون لأي فعل؟.. تأتي جماعتكم كل يوم وتمارس الاستعراض هنا وتمضي"

نظر الرجل بغضب للحاج قارسيلا، ثم قال له بتحذير واضح:

"لم آت لكي أتعلم منك درساً في الأخلاق أيها العجوز؟ رصاصة واحدة سوف تذهب بك إلى حيث لا تعرف أين أنت ومن تكون.. نحن لا نستأذنك نحن نخبرك باعتبار أن هناك من يرونك سيداً هنا.. أتفهم ذلك يا عبد؟!"

٥

أخذ الرجل مسدسه من جيبه، أطلق سبع رصاصات في فضاء السوق وسط الحي، عندها كان قد وصل "الكوماندو رحمة" و"رحمة شاشي".

كانت مؤامرة قد حيكت، وقد وقع نائب القائد ضحية لها.

جرجروه وجنزروه..

كان قارسيلا ينظر إلى "رحمة عبد الله" بين الغضب والشفقة والتشفي، وهو يعيد صورته منذ صباه، فهو يعرفه حق المعرفة.

يتصارع فيه صوت داخلي شرير وآخر بعيد قد يبدو مليئاً بالخير، ليس من الممكن أن يفهم بسهولة فحوى ما يدور؟

أين يبدأ الخير وأين ينتهي الشر؟

ولم يشغل باله بالتماهي في معنى ما يحصل أمامه، كان قد ربت على كتف شاشي، يحيّه ويقدمه للرجل الأمني، وهو يقول له:

"هذا هو الرجل الأول في مخابرات الحي.. كافئوه بمنصب مناسب. أنه يحب المال كثيراً.."

صرخ شاشي غاضباً:

"لست أنا.. أنني لا أحب المال.. أنت خدعتني يا سيد قارسيلا.. لم أعهدك هكذا.. من أين تغذى قلبك بهذا الشرّ لم تكن من ذي قبل كما أنت اليوم؟!"

رد قارسيلا بأنين غير مسموع:
"إنه الألم يا ابني.. يجعل الإنسان يفقد كل الأحلام والضمائر"
كان يقول ذلك وهو يسمع الصوت البعيد، الذي يسكنه، يشكره بقوة..
"شكرا لك أيها القرين الرائع، لقد فعلت خيراً"

عشرون:
أتعرفني يا أنت، أنا، أنت؟!

١

قطع الحاج قارسيلا مع ألم إصابته، وبركة الخير، مسافات لا يعلمان طولها، وهم يحبوان تارة ويمشيان مرة أخرى في الظلام.
لا يعرف بركة كيف أنهما استطاعا النجاة من الهول الأكبر!
وهل كانت تلك المروحية التي حملته وذاك الروسي البغيض، مجرد أضغاث؟
فهاهو قارسيلا بجواره.
هل يعني ذلك انه ربما انشطر لنصفه الآخر؟ خرج منه القرين، ليذهب مجنزراً إلى الخرطوم، في حين أن النصف الآخر أصطحب هذا العجوز وقد منّ الله عليهما بالنجاة.
قرر ألا يشغل باله بالموضوع كثيراً..
عليه أن يواجه الراهن، سواء كان هو الشخص نفسه، أم قرينه، أم نسخة أخرى!!

٢

أدركا أطراف قرية صغيرة، بها بعض من الأهالي الذين ربما لم يسمعوا بالحرب الأخيرة، ويبدو أن وصول الرجلين سوف يقلق حياتهما ويضيفهما إلى ملفات العذاب.

نظر أحد الرجال كبار السن في وجه بركة الخير، ولفّ وجهه بشال من القطن مهرولاً بعيداً عنه.

أدرك قارسيلا أن هذا التصرف، يعني أن ثمة أمر ما..

فالواضح أن الرجل ليس خائفاً بل جاسوساً.

لم تمض سوى أقل من ساعة إلاّ وحوصرت القرية بعدد كبير من الجنود التابعين للقوات التي من المفترض أنها الآن عند جبل الذهب، بعد أن قضت على قوات بركة.

وكما حدث مع بولاد في ١٩٩١ كانت الحكاية نفسها تتكرر مع بركة الخير..

الوشاية.. هي كلمة السر.

قبض عليه بسهولة ولم يقاوم.

أخذوه والحاج قارسيلا..

وكالعادة حُملا بطائرة مروحية إلى الخرطوم حيث مستقر العذابات.

٣

في طريقهما إلى معتقل لا يُعرف أين هو بالضبط وسط بنايات المدينة التي اتسعت عشوائياً، كان بركة الخير يراقب من عند نافذة صغيرة في السيارة وبصعوبة صُوره معلقة في الشوارع، فقد أعلنوا عن مكافأة كبيرة للقبض عليه.

ترى من فاز بها؟

كان المبلغ الضخم مكتوباً أسفل البوسترات الكبيرة.

ابتسم باقتضاب يكلم روحه..

"لابد أنهم القادة أنفسهم هم الذين أخذوها"

٤

خلال يومين صدر حكماً بالإعدام على بركة الخير، في حين أطلق سراح الحاج قارسيلا باعتباره مجنوناً أو مهرطقاً، تركوه في أحد شوارع المدينة المكتظة بالبشر، بجوار أحد الأسواق المزدحمة بكافة أشكال الناس والحيوانات من كلاب وقطط وحمير وأحصنة وقرود تباع وغيرها.

مشى كأنه يكتشف نفسه لأول مرة، بات منحني الظهر يقاوم بقايا الجروح التي لم تُشفى بعد في جسمه، وفي أمكنة أخرى لا يمكن الإمساك بها، يحاول أن يتلمس الماضي من بين ثنايا الحاضر.

كان ذلك صعب جداً..

إذ ليس بالإمكان القبض على أي شيء له قيمة.

تبدو الحياة مثل مسرحية لم تكتمل.

هل هو ذلك الشاب الذي كان في ليبيا والشيخ الذي قابل الرئيس الأمريكي في قاقا؟

أم أنه شخص آخر؟

أين قارسيلا القديمة التي أحبها؟

أين الحياة التي كان قد عاشها بكل ما فيها من تفاصيل حلوة وأخرى مريرة ومُرة كانت هي نهاية الأشواق الممتدة؟

أين حبه القديم الذي زوى إلى الأبد؟

٥

كان الناس في شوارع المدينة، يتحدثون عن أن الحكومة تعد لاتفاق كبير مع زعماء القبائل في الإقليم..

وكان ثمة من يتكلم أن حكم الإعدام لن ينفذ على قائد المتمردين، سوف يفرج عنه وستبدأ دورة جديدة من السياسة القذرة التي لا تنتهي ألاعيبها.

ظل يسمع، وهو جائع، لهذه القصص والأقاويل. دون أن يفرز بينها، أو يفكر في قيمتها..

وكان بعضهم يتحدث عن الرجل المسن الذي كان مشعوذاً يخدم المتمردين، وأن الحكومة قد قبضت عليه، لكنها اطلقت سراحه فقد اتضح أنه مجنون.

هل يا ترى يتكلمون عنه أم شخص آخر؟

أيضا لم ينشغل بأي إجابة تحلّ الإشكال، فالأمر لم يعد يهمه.

يشعر كما لو أنه حياته انتهت الآن ولم تبدأ بعد.

٦

وقف أمام لافتة مكتوب عليها.. قاعة المؤتمرات الكبيرة..

دخل دون أن يستأذن..

وجد قوماً يجلسون على كراسي متراصة بشكل أنيق..

رائحة العطور الذكية تفوح في المكان والبخور الذي يعانق السماء.

رأى سجاجيد حمراء مطرزة بالأزرق على الجانبين، ورجل يقف في الوسط في منصة عالية يحمل مكبراً للصوت وهو يتكلم بتبجح.

يستطيع أن يفهم جيداً كيف لبعض الناس أن تعكس روحها الداخلية، سيئة كانت أم حسنة، وذلك من خلال أصواتها فقط.

لكن ليس من مجال الآن للاستغراق في هذا الأمر.

كان الرجل على المنصة له صوت جهور رغم أنه يبدو متقدم السن، يتحدث عن السلام القادم، عن مفاوضات قريبة مع الجميع..

عن أن ما حدث طوال السنين الماضية سوف يتم كنسه، وسوف يدخل الناس عهداً جديداً.

كان يستخدم جهازاً يدير به محتويات شاشه كبيرة ورائه، يُحرّكها من على البعد، يستعرض أماكناً وأشكالاً وصوراً، ومن ثم يتعرق، يمسح على جبينه بالمنديل الورقي الذي أخذه من الطاولة المرتفعة أمامه.

٧

جلس الحاج قارسيلا في مقعد متأخر، بهدوء دون أن يحسّ به أحد.
كان النعاس مع الجوع الشديد قد أخذ منه كل طاقته، وهو بين الغفو واليقظة وسماع ذلك الصوت الذي يأتي ويبتعد من الرجل عند المنصة.
يتخيل كما لو أن ذلك الصوت هو صوت بركة الخير.
لكن الوقت لم يكن كافياً ليمنحه القدرة على فتح عينيه مرة أخرى ليتأكد من هوية الرجل.
ومرة ثانية يتخيل أن ذلك الصوت، هو صوته، هو..
صوت قرينه الغائب منذ سنين..
سوف يسرع إليه ليحتضنه ويقول له، ها قد ألتقينا بعد كل هذه الأوجاع.
أتعرفني يا أنت، أنا، أنت؟!
ثم يذوبان في بعضهما، البعض.. يتلاشيان في جسد واحد..
قارسيلا الأصل.
سوف تحدث الحكاية نفسها التي كان الأجداد يعرفونها تماما.
أخيراً، كان قد استسلم للنعاس وربما لهيب أسواط النهاية..
رأى قرية تحترق كاملة بما فيها، لكنه لم يسبق له أن رآها من قبل.
ربما هي من ابتكار خياله، فالسنين الماضية شحذت ذهنه بما لا عدّ له من المشاهد التي تفوق المعجزات، بحيث يسهل على الدماغ أن يبتكر ما لا يمكن تصوره.

أحد وعشرون:
القصف في يوم القديس

١

في سجن كوبر وفي الأيام الأخيرة قبل الخروج، استعاد رحمة تلك اللحظات المقطوفة من غبار الزمن الأرضي..

الخيانة أم الأمانة؟

من يخون من؟

شعّر بأن شاشي كان صادقاً..

راجع بعض من أطياف ذكّراه في ذهنه، كيف أنه كان يصرع فتيان الحي ويساوم بأخذ الثمن، لكن يبدو أنه تغيّر، فالحياة الجديدة غيّرت كل الناس، لا أحد بقي على سابق عهده.

لكنه تغيّر إلى الأفضل إن كان للأخيار أن يُصنّفوا على أنهم الأفضل.

أما الحاج سعد فيبدو أنه باع نفسه للشيطان الرجيم..

"شيطان الحكومة وعصابته الذي سوف تصالحونه خلال أيام، فاللعبة هي اللعبة بغض النظر عمّن يمسك بها ويدير حبالها، لا تظلم قارسيلا يا رحمة"

ثم صمت عن التفكير، لملّم أوراقه، المتناثرة على طاولة، كانوا قد أحضروها له قبل يومين.. ولأول مرة يبدو السجانون أكثر لطفاً من قبل، هناك بلا شك أوامرَ صادرة لهم بأن يتعاملوا مع المفاوضين والوزراء المقبلين بالذوق والأدب.. فهم الآن أشقاء لا خصماء.

٢

أخذ الورق بعيداً دسّهُ تحت الوسادة الجديدة، أخرج سيجارة برغبة في التدخين افتقدها منذ سنوات خلت، كانت من النوع الفاخر الذي قدّموه لهم بالأمس، هو وعدد من قادة المتمردين الذي سوف ينالون حريتهم.

مع ارتفاع الدخان في الزنزانة الأكثر اتساعاً عن سابقتها، رأى في ثنايا الهلامات، التي رسمها الدخان، صورة القائد حنيّن، دون أن يفهم السبب الذي جعله يطل فجأة بلا مقدمات..

كم يشتاق لرؤيته والسماع له لاسيما تأملاته العميقة، في أيامه الأخيرة، قبل أن تحدث الكارثة والهزيمة في معركة "الذراع الطويلة".. هذا الاسم الذي لا يعرف من أين جاء به الزعيم! لاحقا قرأ في ثنايا صحيفة قديمة بالسجن هنا.. أن إسرائيل قد اطلقت الاسم نفسه على عملية اغتيال المبحوح تاجر السلاح التابع لحماس، التي تمت بفندق بدبي في ١٩ يناير ٢٠١٠م، تلك العميلة المعقدة التي ارتبطت بسلسلة عمليات قصف قام بها الإسرائيليون بالصواريخ بعيدة المدى من البحر الأحمر لشاحنات السلاح بشرق السودان والمتجهة إلى الإسلاميين في قطاع غزة، وراح ضحيتها المئات من البشر.

٣

تناسى تلك التفاصيل التي بدأت تشغله..

في السجن، مرات، تجد نفسك تهتم بأمور غير مهمة، يعتمد ذلك على المتوفر أمامك من، خيالات وأفكار وقصاصات، وحتى رسوم قديمة على الحائط تركها سجناء قبلك.

آثر أن يعيد تأمل حواراته مع القائد، فقد بدا له أقرب لمتصوّف حقيقي، في تلك اللحظات النادرة التي لا تتكرر.

كان كمن يعيد ابتداع مهاراته كفنان ورسام ديكور في صياغة الأفكار المتعلقة بالأرواح وفلسفة جنون الحروب، وما اسماه مهزلة العيش الأرعن.

كان يقول إنه لو عاش طويلاً إلى أن انتهت المعارك ووجد الوقت الكافي، ليعود إلى مرابعه القديمة، إن وجد من مرعى وإبل، فسوف يفعل شيئاً واحداً هو محاولة فهم فكرة هذا الوجود من خلال تجربة حياته..

أن يقبض على الغموض في الحياة..

يتذكر رحمة أنه كان يستمع له بعمق.

ثم قال لنفسه الآن: "إنها ذات الأفكار التي كانت تشغلني، يقدم لي الإجابات الضائعة بشأنها"

ثم فكّر.. "هل يمكن للحرب أن تمنح الإنسان القدرة على رؤية العمق الثاني لمدلول هذا العالم المعقد؟"

٤

هاهو من جديد يستمع لصوت لا يهتم إن كان هو حنيّن في كلماته الخالدة تلك، أم هي عبارات حديثة تخرج الآن منه، هو، ولا يجد الرغبة في تسجيلها على الورق، لإيمانه بأن أجمل الحكم نتركها تذهب للفراغ.

نقولها لأنفسنا بين الصحو واليقظة..

وبعدها نستيقظ، لنقرر أننا أغبياء، لم نعد بذات الذكاء الأول الذي عهدناه على أنفسنا.

"إن الشجاعة تقتضي من الإنسان أن يفهم قدره بالضبط"

تلك من وصايا القائد، وهو ما زال يسيطر على الدخان يمسك به.

من يتكلم هذه المرة، القائد حنيّن نفسه.

ليس رحمة من يتكلم، إنما من يظلّ يستمع..

٥

"أنت الذي تعرف ذاتك ومهما ظهرت أمام الآخرين قوياً ومتماسكاً من ناحية الفكرة والنفسية، فإنك لو كنت صادقاً وشفافاً وفيك ذلك النفث الصوفي العميق فسوف ترى شروخاتك العميقة، تلك التي لن يراها أحد سواك.. من هنا تكون القدرة الحقيقة التي تكسب الإنسان القوة على السير إلى الأمام دون تردد.. أما أولئك الذين يوهمون ذواتهم بأنهم نصف آلهة على الأقل إن لم يكون الواحد منهم إلهاً كاملاً، فسوف يسقطون ذات يوم.. حتى لو أن ذلك لم يحدث وعاشوا محاطين بالرعية والمنافقين فسوف يدور التاريخ ليمسحهم

عن سجله ولن يعد ثمة من يتذكرهم أبداً. فالتاريخ لا يُبقِي سوى الصادقين الذين اختارتهم أنفسهم بعناية قبل أن يختارهم أي مسبب خارجي"

٦

أخذ يفكر في مغزى ما حاول استرجاعه وسجلّه هذه المرة كتابة على الورق..

هل هو قول نابع من القلب أم فلسفة تقال وحسب؟

"فالسياسيون بارعون في القول واطلاق الحكمة، لكن قلوبهم قد لا تكون كذلك"

وشعر برجفة تعتريه أن يشك في نوايا حنيّن، إنه أصدق من عرفهم على وجه الأرض، لو أراد أن يعيش ملكاً لصار، وقد آثر أن يدخل المعركة بنفسه ويجرب السلاح ضد القتلة.

مع الكلمة الأخيرة شعر من جديد بخيبة تعتريه.

كيف لهم أن يهادنوا حتى لو أن ذلك سوف ينقذه ورفاقه من الموت، هل يفكر القائد في تكتيك معين ومن ثم يعيد الكَرة؟..

ربما!

لم يكن له من جواب، وهو لا يعرف أي معلومات واضحة حتى الآن بخصوص ما يجري من مفاوضات في فنادق الخليج.

سمع أصوات الحراس في الخارج ينادون بأن مسؤولاً كبيراً من الحكومة يزور السجن، ليس أقل من وزير الدفاع.

ما مضت سوى دقائق حتى دخل الرجل، إنه هو..

سلم على الجميع وقال بصيغة لا يمكن التكهن بها:

"سوف نطلق سراح الجميع إلا قلة ستبقى تحفظاً"

وابتسم يكمل..

السياسة القذرة!!

كان لرحمة أن يقدم كلمة باسم السجناء السياسيين، فقد تبدلت الصفة في وسائل الإعلام من الخونة والقتلة أو المحكومين بالإعدام إلى سجناء السياسة.

أراد أن يقول أشياء كثيرة، تلعثم لسانه، لم يقل سوى عدد محدود من الكلمات..

"إننا نشكر الحكومة ونأمل في نهاية سعيدة للأحزان"

دخل غرفته، وجد نفسه يبكي بلا هوادة، لا يعرف من سبب جلي لذلك سوى الإحساس بالهزيمة..

"حتى لو أنك لم تمت ولم تعدم إلا إنك هزمت، فالموت أشرف، لماذا فعلت ذلك يا حنيّن؟"

كان صوته يروح ويجيء، غير قادر على فعل أي شيء.

٧

اطفأ مفتاح الكهرباء، بقي وخياله في الظلام، يسمع صوت الحراس يتشاكسون وهم يلعبون الورق، ويدخنون البنقو.

كانت رأسه تستدير وتكبر حتى تصبح كرة مطاطية، يركلها ثم يعود لتصغيرها مجدداً.

نام بعمق في تلك الليلة يرى رحمة، يحمل البندقية مجدداً، يهمس لحنيّن تحت السحاب من فوق عشب أخضر، وهما في طريق طويل إلى غابات الجنوب هرباً من زحف القوات الحكومية التي وجدت دعماً قويا من ثلاث دول الصين وروسيا وإيران.

لوهلة لم ينتبه هل كان ذلك في الحلم داخل السجن؟!

أم أنه الآن في الواقع والطائرات تقصفهم من أعلى بقوة.

حنيّن يتشهد.. "لا إله إلا الله محمد رسول الله"..

الجنود يتساقطون مثل حبات الأرز في القدر الساخن..

ثمة مراجل كثيرة للخوف والخديعة..

كيف عرفوا طريقهم وأنهم قرروا السير جنوباً، ليلتحموا مع كتائب أخرى من المتمردين استعداداً لمعارك فاصلة أخرى؟

غير أن القدر الإلهي كان أسرع، لقد انكشف سرهم ولابد أن الجاسوس كان وسطهم؛ نعم هو حي بينهم..

إنها لعنة أجهزة الثريا التي تتيح نقل المعلومات، وحيث لا أحد يسمعك.

٨

كان البرد شديداً، في ليلة عيد الميلاد السبت ٢٤ وصباح ٢٥ ديسمبر ٢٠١١ وحيث لم يترك لهم الزمن أن يتنفسوا لغير عام واحد من تلك الاتفاقية القذرة، ومن ثم الشعور بالخديعة.

يفكّر رحمة مع نفسه، وهو يسقط جريحاً جراء شظايا القنبلة التي انفجرت بجواره ساقطة من طائرة الأنتنوف الروسية أعلاه، في تحليق قريب..

"إن الله سوف يغفر كل الذنوب، وان الاستشهاد بجوار حنيّن رحمة كبيرة ورِضاء من الله الذي يحب من شاء من العالمين"

يتذكر ذلك الحلم القديم في السجن، دون أن يفرز أين هي النقطة الأصيلة هنا أم هناك؟

هل يتقدم الزمن أم يتراجع؟

هل الحياة خيال أم الخيال حياة؟

كان ثمة دوي شديد، دخان وأصوات، رجال يموتون وهم يصرخون من الوجع.. العشب يحترق أسفلهم والبرد ينفث بقوة، لا تملك الروح التائهة في تلك اللحظة سوى أن تغرّد وحيدة تبحث عن شيء ضائع اسمه الهوية.

التراب، الوطن، الذكريات..

هل يعود ذات يوم بذرة في هذه الأرض تخرج منها شجرة؟

هل يكون رحمة آخر يسكن في قلب طفل حديث الولادة حتى لو جاء نتاج اغتصاب شنيع؟

"فالدم لا يتوقف والدموع لا تهدأ في هذه الأرض"

هل يبكي أم يلعن الظروف أم يشكر الرب الخالق في عيد قديسه الأعظم وابنه المحبب له؟

"لقد اختارك الله مسيحاً يرفعك للسماء يا حنيّن في ذلك الليل"

صوت ما يكلّمه، هو حقيقة روحه، التي ارتفعت بعجلة إلى السماء، ترى الأرض أسفلها..

ليس من أي رونق ولا بهجة.

ثاني وعشرون:
السندريلا وكوابيس القيامة

١

أمسكت يده بقوة، وحركّتها، نظرت إليه وهما يجلسان عند الرمال، التي ما زالت تحافظ على سخونة النهار. دفنت له يده في الرمل، ثم قرصته بقوة، وهي تضحك. تنسى أنها كانت ذات يوم قد عاشت القسوة والعذابات، تغيب عنها كل الصور إلا صورة الشاب الذي أمامها، البوليودي.. الذي يكاد يمتزج بصورة لا تفهم لماذا هي محببة لها.

ثمة شيء ما وراء الجسد والأبعاد الشكلية، حقيقة مندسة في الروح الإنسانية تجعلنا نعرف من نحن، ما هي حقيقة وجودنا.

"هل كان ضرورياً لنا أن نشغل حيزاً في هذا العالم؟!"

ما وراء أفكارها الممزوجة بالرغبة في فلسفة الأشياء، لم يكن "محمد نبي" فيلسوفاً؛ يبدو براغماتياً، عادياً، يفهم في تفاصيل الحياة القذرة والفساد وجنون البشر، أما ما سوى ذلك فلا يجيد إدراكه.

من حوار بسيط عرفت أنه ليس ساذجاً، إنما هي هذه طريقة؛ نظرته للعالم، وهو حر فيها، والإنسان في الغالب لا يعرف اختياراته..

الحياة هي التي تختار لنا.

٢

أخبرها وهما يعودان لمبنى مركز الشرطة، حيث حلّ المساء، أنه سوف يتصل بوالدته ليخبرها، أنه وجد رفيقة عمره أخيراً في بلاد قصية، قريبة من القلب.

ضحكت ولم تردّ عليه.

كانت مجرد ابتسامة مقتضبة بالأحرى.

هي لا تعرف إن كان ذلك حبٌ حقيقي أم لا؟

وربما لم تفكر إن النتيجة ستكون ذلك الوفاق المسمى الزواج.

لديها أحلام أخرى كثيرة، سوف تقدم له اعتذاراً بأن الوقت المناسب لم يأت، كما أن ثمة شيء آخر، ما يخيفها لم تتعرف عليه، إحساس غريب يقول لها بأن هناك خطأ وما حدث لا يكفي.

"لا يكفي أن نكون مع بعضنا، وأن نعيش سوياً، فأنا لم أخلق لسوى رجل واحد، أكاد أراه الآن أمامي، أو أراك فيه، لكنه لست أنت. لست أنت مطلقاً"

لم تنطق بذلك..

حاولت أن تقنع نفسها بأنها تكذب على ذاتها، ويجب أن يتغير تفكيرها حتى أصابها صداع شديد.

٣

استمر الموظف الأوروبي جالساً كالعادة في كرسي بلاستيكي، لا يفعل أي شيء سوى مراقبة السماء، كأنه يعد النجوم أو يرتب أفكاراً معينة في ذهنه لا يتكلم بها.

اقتربت منه برغبة في، أن تتعرف على مكمن سره، لديها هذه العادة..

دائما ترغب في أن تبحث في تفاصيل الأشياء، ما وراءها، كيف يفكر الناس، هذا الهوس الذي لا تعرف هل سببه المعرفة أم أنه متوارث؟

غير انها لا تعلم أحد من أقاربها كان يحمل هذه الصفة، الكل مشغول بنفسه، بهواجسه اليومية وحياته الروتينية، وحيث تبدو الحياة مجرد ظلال باهتة الآن.

رأت في وجهه أسراراً مكتنزة..

أحس بها، كأنه يكتشفها لأول مرة.

بالمعنى الواضح يكتشف جمالها، لماذا لم يشعر بضجيج أنوثتها من قبل!

نظر إليها مليئاً أكثر من مرة، أدرك السبب الذي جعل "محمد نبي" يحرص عليها مثل جوهرة نادرة، بل هي كذلك.

أين غاب عقله طوال الأيام الماضية؟

هل صحيح أننا لا نرى كل ما حولنا بالعين؟!

وذلك الرواندي الآخر، ألا يرى هذه الروعة التي تضيء الليل، ألا يبصر؟

ثم أدرك أن فيه علة ما، هو يعرفها، نعم لقد حكى عنها لشخص ما، ذات يوم.

ووجد أنه يسكت قبل أن يبكي في هذه السهول الساكنة.

٤

ثم ناداها الأوروبي:

"ساندريلا.."

اللقب نفسه الذي سمعته في الطفولة، وسمعه محمد نبي الذي كان يعد طعاماً بنفسه، في غرفة داخل المبنى الصغير المصنوع من مواد غير ثابتة، لكنه يستوف شروط العيش، يقاوم الأمطار والرعود والبرق الكاذب.

لكن يبدو أن هذا العام بلا خريف.

يبدو أن خريفه الوحيد هو غضب سيحل في هذا المساء، ولا أحد كان يراه، سوى قلب خديجة التي لمحت عيني "نبي" تلفظ شرراً وهي تعاين إلى جوزيف.. الذي كان قد أمسك بزجاجه عرقٍ مستورد، كانت تحته مغروسة في الرمل.

سكب منها في حلقه وهو يرفعها بأقصى ما يمكن لأعلى، وهو يقول.. بصوت مسموع كلاماً لا يمكن استبيانه كاملاً، يأتي متداخلاً..

وضحك ضحكات متقطعة غير مفهومة أو مدركة السبب، لا تبدو هزلاً إنما رغبة دفينة في فعل انتقامي ما.

لا أحد هنا كان يدرك ما وراء ذلك الجنون المغلف، ما وراء صمت جوزيف ثم ثورته، وأنه سجين سابق في النمسا، وأنه يحمل جنسية ألمانية وأن اسمه الحقيقي ليس جوزيف وإنما أدولف، الذي كان الاسم الأول لهتلر، لهذا لم يحب أن يُنادى به.

كان الرجل لغزاً لا يمكن تفسيره من قبل أحد، حتى هو لا يفهم من يكون بالضبط..

أخذوه لدارفور من ألمانيا ليساهم في وحدات الشرطة الأممية.

لا يعرف إن كان ذلك نوع من العقاب المستمر له، بوصفه مختل العقل سابقاً يجب أن يقضي المزيد من الوقت ليشفى في أي مكان لا يصلح لسوى المجانين، بما فيه من حروب وقهر، أم أنها مكافأة له؟

٥

قفز محمد نبي بعنف "البتان" المقاتلين الأشداء، رغم أن جسمه لا يشير إلى تلك القوة.

قبض على أدولف في رقبته، داسّه بشدة، وهو يُحذّره بألا يفكر في أي فعل سيء. فقد كان لديه إحساس بأن هذا الشخص ومنذ أن جاؤوا به إلى هنا لا يمكن أن يكون طبيعياً.

كان الرواندي ينظر ولا يتحرك..

أما خديجة فقد وجدت نفسها فجأة أسيرة عالم يتصارع لأجلها، وهي لا تدرك ماذا ستفعل؟ أمام مجنونين، صنعا حلبة ملاكمة في الرمل، ارتفعا لأعلى ثم هبطا، كل يحاول أن ينتقم من الآخر.

مثّل ذلك دليلاً لها، أن هذا الأوروبي الصامت، الذي يبدو غافلاً كان يختزن هو الآخر عاطفة أو حب أو شهوانية لها.

كلهم جنجويد كذابون ومداهنون؟

ألم يقتلوا الشعوب ذات يوم هؤلاء الأوروبيين ويستعمروا العالم؟

ألم يكن الاسترقاق شيئاً عادياً مباحاً؟

وتذكرت أنها قرأت مرة أنه في نهاية القرن الثامن عشر أخذوا مجموعة من رجال السودان، ليعرضوا في حديقة حيوان بألمانيا على أنهم كائنات غريبة متوحشة.

هذه هي إنسانيتهم!!

٦

حدث ذلك في ٢١ أكتوبر من عام ١٨٧٨م، في برلين بالتحديد.

كان مدير سيرك وتاجر حيوانات يدعى "كارل هاغبنك"، قد تسبب في ضجة كبيرة بالمدينة وبعدها في كل العالم، ممن سمعوا بالنبأ، بعد أن حضر حوالي ٦٢ ألف شخص مرة واحدة لمشاهدة عرض لنحو ثلاثين شخصاً من "الرعاع" كما اطلقوا عليهم..

أناس ببشرة غامقة وبلباس غريب، أحضروا وأجريت عليهم التجارب العلمية..

هل يفهمون؟

هل يرون الألوان؟

هل لهم حواس قوية؟

٧

تذكرها ذلك، جعلها تبغض هذا الرجل، حتى لو أنه قد لا يكون مسؤولاً من ذلك التاريخ البعيد.

نظرت إليه وهو يقع تحت قبضة محمد نبي، الذي يبدو أنه انتصر في المعركة، حيث ترك جوزيف نائماً على الأرض وهو سكران، ونهض باتجاه خديجة قائلاً وهو يشهق من أثر العراك:

"هذا التافه لن.."

مدّ يده باتجاهها لكي يضعها عند خدها، لتتصرف هي بتلقائية، ودون تفكير، تزيحها بعيداً بعصبية، وهي تتجه إلى الناحية الأخرى من المبنى، تجلس على الأرض، تبكي بعويل مسموع، لا تفكر بسوى ذلك اليوم الذي حدثت فيه القيامة الصغرى، عندما دخل رجل أبيض البشرة ورجال سود، يحملون الرعب والبنادق، وحيث بدأ الضرب بالسيخ ورؤوس الكلاشينكوف.

٨

سمعت صراخ الأطفال وهم يقتلون أو تجزّ أطرافهم بالسواطير في مشاهد كابوسية لا يمكن لها أن تسترجعها إلاّ وتغمض عينيها غير مصدقة، هل حدثت حقاً؟

وما الذي يجعلها تتفجر الآن في ذهنها؟

أهذا الرجل الذي يريد أن يغازلها بفحش وربما قد يغتصبها لولا شجاعة محمد نبي، يريد أن يمثل دور القتلة؟ وهم يدوسون على جثث الموتى، ليس عندهم من فرق بين حي وميت..

"الكل بلا مشاعر مثلهم"

أحدهم داس عليها قبل أن تناله رصاصهُ، وهو يصرخ في زميله:

"بنت الكلب.. بنت الحرام"

وتسمع الآخر يناديه:

"أنت الكلب.. انها من كان الزعيم يبحث عنها.. يا كريه"

٩

كان قائد المجموعة طوال الطريق يدخن بشراهة، لا يبدو أنه سجائر من النوع المعتاد، وعندما وصل عند شيخهم كان قد غسل فمه عشرات المرات قبلها بماء مُلوّن في قنينة، كان يتمضمض به ثم يتفل في أرضية السيارة بلا ذوق، يكشف عن رعونة وفوضى ونفس خربة، وهو يسمع لرفيقه يروي قصة شيخ مسن أراد أن يدافع عن نفسه بقطعة حطب، كاد أن يضربه بها، فرفسه بقدمه وأرداه قتيلاً.

يعيد القصة وهو يبتسم، ينظر في وجوه الرجال الآخرين ليدرك حجم الدهشة وربما الاستغراب المطلوب، في أعينهم.

يبدو معتوهاً تماما مثل جوزيف، الذي تتداخل صورته الآن في رأسها مع صور متشتتة للحرائق والجثث والرماد والجحيم الأرض والكابوس الإلهي..

كابوس الرب..

كوابيس القيامة..

كأنها في فيلم خيالي.

١٠

سنوات الزعيم، هي الأخرى علمتها كل شيء.

جعلت منها امرأة أخرى يمكن أن تحب وتكره بسهولة، وهي الآن ترغب أن تفهم هل تبقى لها من قلب بداخلها أم لا؟

لماذا لم تشكر محمد نبي وهو يقف بجوارها؟

هل تبغضه حتى لو أنه قام بإنقاذها؟

وحتى لو حدث ذلك فما الجديد، فأي فرق بين الحب والكراهية!

ألم تتعرض للقنص عشرات المرات.. ما الذي سوف يحدث الآن، ما المستجد في قصة هذه الملهاة، المستمرة؟

لقد حوّلوا الأرض إلى ساحة للصوص والقتلة والمجرمين والمعتوهين الذين جاؤوا بهم من كل العالم، كلهم مذنبون بما في ذلك هذا الكائن الغامض الذي يسمونه المجتمع الدولي.

خلال وقت وجيز رأت كل العجائب، الممكن واللاممكن.

في معسكر الزعيم كان ثمة عالم لا يمكن اختصاره في الذهن بمشاهد محددة.

الرجال المثلمون الذين ينتهزون فرصة غياب الزعيم في محاولة لغزو الجاريات والنيل منهن، سواء كنّ من بنات الإقليم أو أولئك الذين جاؤوا بهن من بلاد أخرى..

ممارسات المسلحين مع بعضهم وهم في الليل، ينامون مثل جسور متراصة، يتأوهون بغباء..

لا تستطيع خديجة أن ترى بوضوح ما يجري من بعيد عبر النافذة، لكنها تفهم هذا الفعل الشنيع.

١١

ذات يوم حدث أمر غريب، سمحوا في النهار لوفد أجنبي بزيارة المعسكر.

كيف حدث ذلك؟!

لا أحد يعلم!

كانوا يحملوا كاميرات ودفاتر ورقية وألواح كمبيوتر كفية.

قام الجنجويد بإخفاء النساء.

كانت تجلس في غرفة بكامل بهائها، عندما دخل أحد الرجال ومعه مجموعة من هؤلاء الصحفيين، قال لهم:

"هذه زوجة الزعيم، لكن غير مسموح بالتقاط الصور لها.. الشيخ لا يرضى ذلك"

كان الشيخ قد اختفى، أو أخفوه. أو أخفى نفسه.

ليس لها علم.
أجلسوا رجلاً بديلاً عنه، على أنه الزعيم، تكلم للأجانب.. أنهم يقاتلون لأجل العدالة والإنسانية، وإعادة هيبة الدولة في الإقليم..
"إذا كانت الدولة عاجزة فنحن من سوف نصنع النظام"
كان يزبد في حديثه وهو يتقطر عرقاً، رغم أن الجو ليس ساخناً.
سألوه عشرات الأسئلة.
أجاب عليها، نافياً أن تكون إبادات قد حدثت بالإقليم..
"ما جرى أن العالم يروج لذلك وأنهم يختلقون القصص لكي تستمر الفتنة هنا"
ونفى أن يكون ثمة مرتزقة يأتون من دول مجاورة للقتال.
انتهى الحوار، وذهب الصحفيين، خرج الشيخ بعدها من مخبأ تحت الأرض، كان يغني بصوت مسموع..
"يا جمال الدنيا.. حبيبي أنا"
مسح على نظارته بطرف ثوبه بعد أن بصق عليها.
قال لخديجة:
"هؤلاء هم الفتنة لعنهم الله"
ولم ترد عليه، في انتظار أن يقوم بعمله الروتيني معها.

ثالث وعشرون:
الأرض عروسة ثكلى

١

وقف الحاج سعد وبجواره حليمة تمسك بابنتها رحاب، بقوة حتى لا يأخذوها منها..

"إذ لا ضمانات هنا"

وهي تصيح:

"كفى كفى.. ألا يكفي كل ما جرى بنا؟"

الآلات الضخمة، البلدوزرات المُصنعّة والبلدوزرات البشرية، سدّت الآفق في حي قارسيلا بأطراف العاصمة..

المسؤول الكبير يصدّر التعليمات..

"لا تبقوا على شيء. أريد أن أرى هذه الأرض وقد تمهدت في الصباح، سوف يأتي وفد المستثمرين الأجانب في الغد"

يرتفع صوته أعلى..

"لابد أن يفرغ العمل.. لابد أن يروا كل الأمور جاهزة"

استمر يكلّم على الطرف الآخر من هاتفه النقال شخصاً ما، يجلس في مكان آخر من هذه الأرض المحترقة، إذ كان لابد من حرق الأشجار والبيوت المُشيّد بعضها بالحصير..

النار تأكل الأخشاب، وتمتد في المكان، مع حسرات الأهالي وبكاء أطفالهم، في حين بقيت حليمة تنظر إلى بيتها يحترق، يذوب كأنه لم يكن إلا مجرد ذكرى، كالأشياء الكثيرة التي حدثت في هذه الحياة القاحلة.

وكما يحدث مع الألم والحسرة، وحيث تتكاثر الأحزان، استعادت رحلتها منذ ذلك اليوم الذي أخذوها فيه الجنجويد، واحداً تلو الآخر، ثم رموا بها، وسط الأنقاض بظن أنها قد ماتت مع الآخرين.

٢

في ذاك العصر البعيد.. القديم.. وقد هدأ كل شيء، إلا رائحة الموت والنار التي فحّمت الجثث، كانت قد بدأت في الزحف شيئاً، فشيئاً.

بعد يومين، وهي تشرب من أودية بها قليل من الماء المتخثر لتستمر في الحياة، كانت قد اقتربت من معسكر للنازحين، تجمّع فيه عدد من الصحفيين، جاؤوا لزيارته والتقاط الصور كعهدهم ليدبجوا بها الصفحات الأول من الصحف والمجلات العالمية.

بغتة أخذ لها صحفي صورة، فصرخت فيه..

أنها لا تريد مزيداً من الأوجاع..

لم يستمر الصراخ، حيث دخلت المعسكر ثلاث سيارات كبيرة ذات دفع رباعي مسرعة، عليها مدافع وجنود من الجيش السوداني.

أمروا الصحفيين بمغادرة الموقع فوراً، ثم أخذوا حليمة مع آخرين.

٣

في اليوم التالي وجدت نفسها في الخرطوم، داخل قاعة مُكيّفة مع نساء ورجال، تم تقديمهم لوفد أجنبي - قيل إنهم أعضاء من مجلس الأمن الدولي - للإدلاء بشهاداتهم حول ما يجري في إقليم دارفور.

تكلمت حليمة خائفة والرعب يسكنها؛ لا تعرف ما الذي يحدث معها..

هل هي التي تتكلم أم شخص آخر؟

سألها الرجل ذو البشرة الحمراء..

هل تعرضت للاغتصاب؟

فأجابت وهي تبكي..

"لا أبدا لم يحدث ذلك"

ثم صرخت فيهم:

"أريد أن أعيش أتركوني، لم يمسني أحد"

ابتسم رجل يرتدي الزي المدني، يبدو أنه وزير في الحكومة، كان يتكلم عبر مترجمين مع الوفد الأجنبي، يخبرهم:

"هذه هي الحقائق"

ثم أرسل ابتسامة باتجاه حليمة، كأنه يقول لها..

شكراً هذا هو المطلوب.

٤

بعد أسبوعين كانت في حي قارسيلا..

جاء رجلان من الحكومة شادا الغرفتين، وذهبا..

بعدها لم يكن من أحد يهتم بها، فقد راحت وعودهم إلى السراب، لقد قالوا لها:

"سوف نقدم لك كل شيء. البيت والأكل والشراب، وسوف نساعدك على أن تعيشي مثل ملكة"

فأين ذهبت هذه الوعود؟..

ظلت تفكر هل هذا حدث حقاً، أما كان أجدى لها أنت تموت بدلاً من هذا الرهق المستمر؟!

غير أنها لم تكن ترغب في ذلك لأنها تحب هذا الطفل، أو هذه الطفلة المحمولة في حشاها.. سوف تحبها حتى لو أن أباها من هؤلاء القذرين، فرغم كل شيء هي أمها..

"ولا تملك الأم غير أن تقدم الحنان لطفلها"

فهمت أنه قد تم توريطها في مؤامرة كبيرة هي وآخرين، وأن هذه الخديعة ليست إلا جزءاً من الخدع المستمرة والأباطيل التي يصنعونها للبشر..

"إنهم بلا ضمائر ولا قلوب"

في ثوان.. انتهى كل الحلم..

الأرض تُحضّر نفسها ثكلى لمقدم المستثمرين القادمين لشرائها.

نظر المسؤول إلى التراب المُسوى بعناية فائقة، قال:

"إن هذه الأرض قد بدت مثل عروسة"

كان قد تحسس أماكن مزعجة منه، قبل أن يقفز في سيارته..

يغادر الموقع.

٥

نظر الحاج قارسيلا إلى الأرض التي أصبحت عذراء بكر من جديد، كيوم وصل هنا لأول مرة. لم يكن له القدرة ليعيد الزمن إلى الوراء ويبدأ في بناء قطيته هنا، كما فعل في المرة الأولى.. لأن الخيارات قد اختلفت.

"طالما أن القرار أمر إلهي يجب على البشر طاعته والسكوت، لا أحد يستطيع أن يقاوم إرادة الرب"

تحسس قلبه الذي كان يتوجع، وفيه شيء من الندم، أن سمع لذلك الصوت الآخر منه الذي كلّمه بأن يكون شريراً..

"فعندما تحاول أن تغير طبعك، لن تنجح، سوف يقرروا بك في نهاية الأمر وسوف تسقط في الاختبار"

لم يتمالك نفسه فقد بكى بعنف، وهو يمسك بيد حليمة، يقودها من جهة وطفلتها من الجهة الثانية، يسيران باتجاه زحام مدينة أمدرمان، وهما يبحثان عن حافة تقلهما، دون أن يدركا، إلى أين سيذهبان بالضبط!

فليس من خطة واضحة للعيان!

"كل الدروب موحشة وموغلة في التيه"

رأى أمامه أطفالاً صغاراً يلعبون تحت شجرة، وهم يسابقون بعضهم.

يريد أن يكون مثلهم، ولكن هيهات فقد مضى الزمن.

توقف أمامه الزمن فجأة. وهو يعاتب نفسه..

لماذا اختار أن يذهب معهم في السنين الأخيرة؟

لماذا هادن هؤلاء المجرمين بل أنه باع أهله لأجل أشياء رخيصة ووعود زائفة؟

أين هذا الجانب الخفي الشرير الذي يسكنه؟!

نهاية:

أمسك محمد نبي بيدها، فتحت عينيها من السرحان في ذكريات الأسف، لتحمد الله أنها ليست بيد ذلك الجنجويدي.

اعتذر لها بأنه كان يجب أن يقوم بما قام به من واجب.

لم تعلق.

رأت في عينيه صدق، لكنه ليس كافياً، ليخبرها أنه الرجل الذي تنتظره، وتركته ليكمل دوره، وهي محاصرة بالشتات.. بصورة الأمس المزعج، وهي تشتم رائحة الشاي الذي أعدّه الرواندي، يذكّرها بالقرية عندما كان في الحياة متسع من الآمال.

دخلا إلى الغرفة، كان هناك تلفزيون بشاشة صغيرة مشغلاً على إحدى القنوات، لأول مرة تنتبه لوجوده.

تناست نبي بجوارها، أو أنه كان قد أخبرها بأنه سوف يطلب منها شيئاً مهماً وعليها أن تستمع له بهدوء ودقة وأن ترد عليه بصدق.

ظهر بحجم الشاشة، رئيس البلاد، وهو يخطب في عدد من الجنود بزيهم العسكري، يبدون من تلك الكتائب التي هاجمت معسكر الجنجويد قبل أيام.

كان يتكلم عن حسم التمرد، والجنود يتصايحون..

"أبشر.. الشباب جاهزين.. قدرها.. قدرها"..

وصوت رجل يصيح بعد أن استلم مكبر الصوت من الرئيس، وهو يحمل عكازته يتدلى بها من طاولة خشبية عالية كان يقف أعلاها..

"الله أكبر.. لسنا ملكيين.. نحن أهل الحارة"..

وآخر ينادي:

"عصرنّاهم إلى أن جابوا الزيت"

ضغط محمد نبي على الريموت كنترول ليغلق الصوت، مبتسماً.. وهو يقول لها:

"اسمعي لي.. هم كذلك دائما"

كانت الشاشة تعرض أسلحة متنوعة.. رشاشات دوشكا مضادة للطائرات.. بنادق من أنواع أخرى.. دبابة.. كتب تحتها..

.."غنائم من العدو"..

وكلمة غنائم قد كتبت..

.."قنائم"..

كان ما زال هناك مشهد رجل مُلثّم في ذهنها.. يصرخ في رفاقه قائلاً:

"اقتلوا هؤلاء الأطفال لأنهم غداً سوف يصبحون رجالاً، فينتقمون منك ومن أبيك.. أحرقوهم"

صوت رغم بعده يكاد يصمّ الأذن، يجعل كلمات "محمد نبي" تبدو كما لو أنها آتية من عالم آخر.

-انتهت -